فاهان كيرا كوسيان

التخوم

رواية

"تنويه"

لكي أروي لكم هذه الحكاية،لابدَّ من مصارحتكم عن الظروف و الأسرار التي فتحَت ذهني و بصيرتي، والتي كانت بِ مثابة الطاقة فوق الكونية؛ تلك الطاقة كانت النداء الفلكي الذي تدحرجَ عبْرَ الكواكب والأفلاك و المجرّات، و استقرَّ في الأماكن الحَسّاسة من كياني المادي.

طبعا أنا الآن في سنٍّ متقدّمة من عمري الأرضي. وأنا موجود في غمرة كلِّ الأحداث و الأماكن. أتَقَمَّصُ كلَّ الأشكال و الشخصيات الحقيقية والوهمية والخرافية. أتَجَوَّلُ في الأماكن كلِّها، الملموسة والخيالية. أسير زحفا بين الأعشاب وأوراق الأشجار المطروحة على الأراضي الرطبة والجافة. تلتقطني الطيور و الحيوانات اللاحمة. أَسفُّ التراب و استخلص الرطوبة من الهواء وعناصر مختلفة من تلك التي تحيط بِ كياني. أغفو في سُبات طويل في الكهوف و المغاور، تحت الثلوج والرمال الحارقة. و بِ سرعة البرق أنطلق في السماوات القريبة والفضاءات اللامنتهية.أداعب ذرّات الرمال والنجوم البرّاقة. أَتسلَّقُ حَوافَّ الكواكب و أمشي على أطرافها متحاشيا الانزلاق و الوقوع في متاهات مجهولة مفتوحة كَ أشداق تنانين خرافية. أراقبُ الكلّ و أسمع عناصر الحياة كلّها. أدخلُ في مفردات الكون، بل الأكوان، ألتصق بها. أدخل في حيواتها، عقولها، رغباتها و أرواحها. أنا هو الشاهد و الراوي و الملقِّن، و أنا هو قائد الرياح والنسائم و الأمطار الكونية والثلوج الملوَّنة. أنا هو أبو الإله الرمليّ الذي سَ تسمعونه و تقرأونه و تعيشون معه في تهويماته و تحليقاته و خيالاته. و لِ أنَّني أنا هو كلُّ ذلك، فَ لا تندهشوا، و لا تستغربوا، ولا تشكّكوا وتستنكروا ما سَ تقرأونه في هذه المدوّنات العميقة البسيطة، و إنْ كنتم ، إلى الآن، محسوبين على القطيع، فَ لا خير يُرجى منكم، ولا خير يُرجى من اضطلاعكم على محتويات هذه الوثائق الذهبية.

و لِ خشيتي من ضياع مدوّناتي أو نسيان أجزاء مهمّة منها، فَضَّلتُ كتابة أحداث الرواية على صفحات الهواء كي تخترق كلَّ الحواجز والحدود. كي يقرأها ويسمعها أيِّ عابر سبيل. هذه الرواية دوَّنْتها كما سمعتها من ثقاة القوم، و أنا لستُ مسؤلا عن التناقضات و الأكاذيب و المبالغات التي قد تجدونها في متن هذه المدوّنات. فَ مثلها موجود في كتب الله التي أرسلها إلى خاصته، زعماء عصاباته المنتشرة في أصقاع الكرة الأرضية. كنتُ أثناء تدويني أتَجَنَّب التدقيق، أو التشكيك في صحّة الأحداث و الأخبار. كان هَمّي الوحيد ألاّ أنسى أيَّة جزئية منها. كنتُ أعصرُ خلايا دماغي لِ

تَسْكبَ لي ما كان مخزونا في تلافيفها. تَوَخَّيْتُ الحذر في التدوين لِ ألاّ أتحوَّلَ إلى مُحَقِّقٍ أو قاضٍ في موضوع هذه الصفحات التي تُكتَب على الهواء، وإنْ نَصَّبَ القارئ ذاته قاضيا على جوهر هذه المدوَّنات، فَ عليه أنْ يتحمَّلَ تَبِعات تحليلاته و مقاصد تأويلاته و نتائج أحكامه.

إذن لِ نبدأ من المدوّنة الأولى ، أو بِ الأحرى المدوّنة رقم واحد.

المدوَّنة رقم واحد

-الخروج من القاع-

(هكذا روى محتوياتها أداي ابن أبيه، في
نسخته القديمة، حين كان في كهف ناريك)

-1-

صعود فيرجين - من بين المياه العذبة و الأعشاب النبيلة - إلى السماء .

في عام الضفدع، شَرَعَ أبي في تحضير مستلزمات رحلةٍ قَرَّرَ القيام بها، و كان قد قَرَّرَ أنْ يأخذني معه في رحلته تلك. كانت وجْهَته إلى أَحَدِ الكهوف المنتشرة خلف بيوت المحلّة. اختار كهفاً بِ عينه لِ ما كان يُمَثِّله من ذخيرة روحية مقدَّسة في وجدان الأهالي. كان يبعد مسافة نصف نهار، و أكثر قليلا، سيرا على الأقدام. يمكن تقدير المسافة عن طريق الأفلاك و النجوم. نقول إذْ ذاك:

" تُقَدَّرُ المسافة بين الكهف و بيوت البلدة من بدء شروق الشمس إلى قُبيل غروبه. أي إلى أن يصبح لون الشمس برتقاليا. في هذه الحال، تكون المسافة إلى الكهف تبدأ من الشفق إلى الغسق. أي من الأحمر الكَرَزي إلى الأحمر الكرزي، و لَمّا كان لِ الكرز ألوانا عديدة، فَ نقول عندذاك، من الطيف إلى الطيف".

(كان لِزاما عليَّ أنْ أُخبركم بِ أنَّ الذين كانوا يَرْوون هذه الحكايات، كانوا قد أعطوا صفة التذكير لِ الشمس و صفة التأنيث لِ القمر. أَمّا لماذا فعلوا ذلك، فَ هذه القضية لا شأنَ لي فيها. يمكن أنْ نسأل نفس السؤال لِ الذين أعطوا صفة التأنيث لِ الشمس و التذكير لِ القمر).

عند صياح الديك، أيقظني أبي من النوم و قدَّمَ لي وجبة الصباح. كان الأفق لمَّا يزلْ بنفسجيا- عندما صاح الديك على الناس- و راح يتلوَّن رويدا رويدا بِ الأحمر. هذا الوقت من النهار هو الشفق. هكذا كان الأهالي يقولون عن الفجر حين كان يبدأ بِ التلوّن. كان الفجر مرتبطا بِ صياح الديك، و كان هو المنبّه الطبيعي لِ أهل المحلّة. في بعض الأحيان كان يسبِق أو يؤخّر توقيت الشروق(استيقاظ الأهالي). كانوا يقولون عن هذه الظاهرة، أو يسمّونها، بِ" الخَرَف الديكي". و آخرون كانوا يفسِّرون تشوُّش الديك في توقيت الصياح، على أنَّه غَفى على سياج القنِّ وهو غير مكتفٍ من ممارسة الجنس مع دجاجاته، وأنَّه كان يقرقرُ في منتصف الليل بِ سَبَبِ الجوع الجنسي، و أنَّه سقطَ من على الوتد أكثر من مرَّة لِ نفْسِ السبب. أمّا النساء، فكان لهنَّ رأيا آخر، كُنَّ يُلَمحْنَ ويُفسّرنَ، فيما بينهنَّ، سَببَ سقوطه من على الوتد في منتصف الليل إلى إكثاره

أو إفراطه في ممارسة الجنس مع دجاجاته. و لِ هذا السبب لم يكن يقوى الوقوفَ على الوتد لِ أداء مهمته الطبيعية، أو بالأحرى، البيولوجية. ربَّما يكون رأي النساء، في هذا الموضوع، هو الأَصّحّ. كانت النسوة يعتمدن،في هذا التفسير، على المشاهدات اليومية حول البيوت و البيادر القريبة، حيث أَنَّ الديك الواحد يسوق مجموعة من الدجاجات البالغات جنسيا، ويعتليها جميعها حين يَعنُّ الجنس على باله، وفي أغلب الأحيان كان يختار الدجاجة ذات الخلفية الممتلئة وذات الذيل المرفوع لِ الأعلى. النسوة هنَّ اللائي لاحظنَ هذه السلوكيات الجنسية، و كُنَّ يفسِّرْنَ ذلك على أَنَّها تبعثُ على المتعة والاسترخاء أثناء الممارسة الجنسية. في هذا المجتمع العائلي ترى الدجاجة، أو يتهيأ لِ المرء، أنَّها منهمكة في التقاط الحبوب و الديدان من على قمامات أحياء البلدة غير مهتمة بِ الديك الذي يعتليها بين الحين و الآخر، و هي لا تثير اهتمام الديك و غيرته عليها. فهي لم تشهد صراع الديَكة لأجلها كما يحصل عند الأسود والضباع و الكلاب. فَ الديك لديه مجموعة من الدجاجات، و هو يرغب في أن تكون له أكثر من أنثى في حياته، و يتصرَّف مع الدجاجات التي تكون حوله تصرّف "كازانوفا"، فهو ينتقي حسب ذوقه، ويختار وفق مقاييسه؛ ليصطفي الدّجاجة التي يشعر بالميل لها أكثر من بين الدجاجات الكثيرة التي من حوله، و حتى إن كان الديك يفضّل في نهاية المطاف دجاجة واحدة؛ فَ إن ذلك لا يمنعه من إقامة علاقات أخرى عابرة من حين لآخر مع بقية الدجاجات. كثيرا ما كانت النسوة تشبّهن الرجل المتكبّر المعتدّ بِ نفسه بِ الديك المتغطرس الأناني النرجسي النافش ريشه، حين يكون هو الوحيد بين العديد من الدجاجات، الذي يمشي رافعا رأسه مفتخرا بِ عرفه الخمري و ذيله المرفوع على شكل قوس المنجل والمزيَّن بِ الريش الطويل و الألوان الزاهية. أمّا إذا كان معه ديَكة أخرى منافسة له، فَ في هذه الحال يتخلّى عن كبريائه و عنجهيته و تبختره لِ يصبحَ رقيقًا عاشقًا رومانسيًا، وأكثر تودّدًا وتقربًا من الدّجاجة التي مال إليها قلبه، فالمنافسة لها قوانينها وطقوسها، والذكي من الديكة هو من يعرف التأقلم مع كل الظروف. و قالت النسوة بِ خصوص الظاهرة إيّاها(الخرَف الديكي): إنَّ الديك يصبح ملولا في الحُبِّ و العشق إذا بقي مع نفس الدجاجات حتى إن مال إلى دجاجة واحدة واختارها من بين كل الدجاجات، فَ إنَّ وتيرة العلاقة الحميمية "مع الحبيبة" تقلّ بمرور الزمن، وتفقد نكهتها وحرارتها. و كُنَّ يؤكِّدنَ على أَنَّ الديك يشعر بِ الحيوية و الانشراح كلّما تَمَّ عَرض دجاجة جديدة عليه، و أَنَّ عدد الحيوانات المنوية لديه تَقلُّ و تضعف بِ سبب الملل والروتين. و ربَّما المشاهد الجنسية تلك كانت تثير غرائزهنَّ.

حَمَّلني أبي زوَّادة الطريق. مشينا بِ اتجاه الشرق حيث يوجد الكهف. كنتُ أخطو

ثلاث خطوات مقابل خطوة واحدة من خطوات أبي. كنتُ صغيرا لم أتجاوز السنوات الخمس من عمري. و بِ الكاد كانت الخطوة الواحدة من خطواتي تعادل نصف أو ثلث خطوة من خطوات أبي. كان أبي يتقدّمني بِ بضْع خطوات. لم أستطع، مهما حاولتُ، أنْ أُقَلِّصَ المسافة بيننا إلى أَقَلّ من خطوتين.كان يُحَدِّثُني، بِ صوت مسموع، دون أن يلتفت إلى الوراء. مَرَرْنا في المروج الخضراء خلف البلدة. في هذا الوقت من الفجر، و هذا الشهر – نيسان– من فصل الربيع، تكون المروج قد اكتست حلّة شفّافة تَبْرقُ مع تَمَوّجات الأثير. كانت قطرات الندى تتلألأ فوق ذؤابات الأعشاب الطرية، وجوقات الطيور كانت قد صَحَتْ حديثا من غفوتها، و راحَت تغتسل بِ حَبّات اللألئ المنثورة فوق الأعشاب والشجيرات القريبة من النهر. كنّا أَخذْنا المسار الشمالي لرحلتنا إلى الكهف. كان الطريق يَشقُّ المرج بتعرّجات، وكان يقترب، في بعض المقاطع، من الينابيع العذبة التي تتفجَّر من قيعان الصخور. و لِ كثرة هذه الينابيع و غزارة مياهها، كانت قد شَقَّتْ لِ نفسها مجرى آخر، و كانت قد شَكَّلَت في جريانها نهرا آخر، ضحل المياه، غير النهر الرئيس الذي يمرُّ قريبا من مخارج البلدة. من هذا النهر ذي المياه العذبة، كانت تتشكَّل (Golat) أحواضا خلال جريانها، خاصة في أكواع المجرى الطبيعي له. كانت أغلب هذه الأحواض (Golat) تحتوي على دوّامات خفيفة. في هذا النهر العذب، كانت تنمو نباتات وأعشاب صالحة لِ الأكل. قسم من هذه النباتات، توزكِه(Touzkeh) ، كان يميل مذاقها إلى الحموضة الخفيفة و الحدودية اللاذعة، و نوع آخر من نفس الفصيلة، بَنْدكِه(Bndkeh) ، كان طعمها لذيذا(مزيجا بين الحامض و الحلو) غير حادّ. هذين النوعين من أعشاب المياه العذبة كانا مثل التوأم ينبتان و ينموان معا في المياه العذبة. إنَّهما من الأعشاب النبيلة لا تنبت إلّا في مياه الينابيع الغذبة. كانت النساء و الصبايا، في موسم هذه الأعشاب، في بدايات فصل الصيف، يُشَكِّلْنَ مجموعات ويأخذنَ العدّة اللازمة لهنَّ ويذهبن بِ اتجاه نهر الينابيع. كنَّ يدخلن في الماء و يجمعنَ المحصول من التوزكة والبندكة. في كثير من مراحل الالتقاط، كُنَّ يدخلن إلى العمق فوق الركبة. و في بعض الأحيان كانت المياه تصل إلى أحواضهنَّ، أسفلَ خصورهنَّ. و حين كنَّ يَخْرجنّ من الماء لِ ترتيب المحصول في سِلالِهنَّ، تكون فساتينهنَّ قد التصقَت بِ أفخاذهنَّ و أحواضهنَّ، و قسم منهنَّ كانت تنكشف سيقانهنَّ، و قسم آخر كنَّ يلملمنَ فساتينهنَّ و يعْصرْنها من المياه. في هذه الحال كانت أفخاذهنَّ البيضاء تبتسم للشمس والهواء، و لصاحب الحظِّ الذي يَمرُّ، حينذاك، قريبا من النهر العذب. أمّا رجال وشباب البلدة، فَ كانوا يتحيَّنون هذه الفرص النادرة. كانوا يتقصَّدون المرور في الأماكن حيث الأعشاب النبيلة تنبت. كانوا يتوقَّعون رؤية الصبايا و النساء

في المياه العذبة و خارجها، حيث المَشاهد المثيرة لِ أجسادهنَّ المغرية. كان الذكور يؤلّفون القصص و الحكايات، المبالغ فيها كثيرا، حول هذه المسألة. فَ منهم مَنْ كان يوصفُ لون أفخاذهنَّ، و يقترب قليلا– في وصفه– إلى الأماكن المحظورة، و بعضهم كان يذهب في مبالغاته إلى الحدود القصوى، كَ أنْ يَدَّعي بِ أنَّه ضاجع إحداهنَّ بين الشجيرات القريبة من النهر، حين ابتعدت عن مجموعتها بذريعة تجفيف ثوبها. و لكي يُعطي مصداقية لروايته، يحاول اختلاق علاقة سرّية فيما بينه وبين الفتاة، أيّة فتاة لا على التعيين لطالما لم يعطِ اسمها ولا صفاتها، التي مارس الجنس معها(على ذمَّته).

كانت المياه العذبة تحتوي على كائنات نورانية، أو كما كان حكيم البلدة يقول(أرواح خَيِّرة)، انسكَبَت مع المطر الكوني الأول واخترَقَت الجبال والصخور والوديان و أعماق الأرض. كانت تلك الأرواح قد خَزَّنت في خلاياها الهلامية طاقات الحُبّ و السعادة، جاءت بها من عوالم غير مرئية. كان مجلس إدارة البلدة، المؤلَّف من ثلاث نساء و رَجُلَين، يتناولون في اجتماعاتهم هذه الأخبار. كانوا يتجادلون حول حقيقة تلك الكائنات النورانية. رَجلَين وامرأة، من المجلس، كانوا يُرَجِّحون وجود سرّ يجعل نساء و صبايا البلدة متلهّفين لِ الدخول في الماء لِ جَني عشبة التوزكِه و البَنْدكِه، وكانوا يعتقدون بِ أنَّهنَّ يَحْصلنَ على السعادة، و أَنَّ خدودهن تتورَّدُ وعيونهنَّ تَشعُّ حُبّا في الأرجاء كلِّها. أمّا الإمرأتين الأخريين، فَ كانتا تذهبان أكثر من زملائهنَّ في هذا الموضوع. إذْ أنهما كانتا تعتقدان، لا بل كانتا تؤكدان فيما بينهما، بِ أنَّهنَّ يحصلن على لذَّة جنسية و هنَّ في الماء، وذلك بسَبَبِ ملامسة الماء لأعضائهنَ الجنسية. هذا الموضوع لم يَتم نشره بين الأهالي. كان محصورا بين أعضاء المجلس، و حكماء البلدة فقط. كانت قصص حوريات الأعشاب النبيلة تدور في مجامع النساء و الرجال على حَدٍّ سواء. المسألة، كلها، كانت بِدوافع جنسية، الجوع الجنسي، الحرمان الجنسي. كانت تصورات الجميع تتجاوز الواقع. كان الكل يُحَلِّق في الخيال بِ خصوص موسم أعشاب المياه العذبة. و شَرَعَ الكل في اختلاق القصص، لا بل، الأساطير حول علاقة النهر بِ الصبايا، و راحَ بعضا منهم يروي حكايات غاية في الغرابة. كان بعض الفتية و الشباب يتناقلون شائعة مفادها: وجود كائنات غير منظورة تعيش في تجاويف الصخور الجرفية، و هي تتناسل من الغازات الكامنة في أعماق الأرض وداخل ذرّات الصخور. تتشكَّل أجنَّة تلك الكائنات بمجرَّد تلاقُح الغازات بعضها مع بعضها الآخر. حينذاك تتدحرج من ثقوبها، وهي أَجنَّة مجهرية لا تُرى بِ العين المجرَّدة، و تندمج في اقرب قطرة ماء تعثرُ عليها لتتجرفَ معها إلى تجمُّعات المياه العذبة. في معرض مبالغات الرجال، أو بِ الأحرى الذكور، حول هذا الموضوع، كانوا يتناقلون الأحاديث فيما بينهم عن مغامراتهم و

مشاهداتهم. قال أحدهم:" ذات يوم، حين كنتُ عائدا من البيادر إلى البلدة، كان الشمس قد صَعدَ إلى مسافة ربعِ القوس الصباحي. عند مشارف البلدة، قريبا من نهر الينابيع، سمعتُ ضحكات و ثرثرات النساء و الصبايا. اقتربتُ من النهر، و صرتُ أسير بِ بطء شديد خلف الأجمة و الشجيرات و النباتات العالية. فعلتُ ذلك كي لا أثير أدنى ضجّة تكشف وجودي. في الأثناء رحتُ أخطف النظر إليهنَّ من خلال الفراغات بين الشجيرات و النباتات. كان المشهد جميلا و مدهشا. بعضا منهنَّ كُنَّ قد تركنَ رباط الصدر مرتخيا و مفكوكا بعض الشيئ، مما سَهَّلَ رؤيتي لِ تكويرة نهودهنَّ البيضاء البَضَّة، و أخريات كُنَّ قد رَفَعْنَ فساتينهنَّ و رَبَطْنَها بِ الكمر عند الخصر. عند هذا المشهد، كُدْتُ أقَعُ من طولي بسَبَبِ جمال و بَياض الأفخاذ التي كانت تلمع أمام عيوني. رأيتُ أكثر من واحدة منهنَّ كنَّ يتمايلنَ بِ حركات ذات مغزى جنسي، و سمعتُ بعضا منهنَّ يُصْدِرْنَ أصوات و همسات كَ مَنْ يُمارس الجنس".

كانت شائعة قوية قد سَرَت بين الأهالي في زمن موغل في القِدَم، مفادها: أنَّ واحدة من الصبايا، في موسم التوزكِه و البندكِه، قد حَمَلَت من تلك الكائنات النورانية التي تنتشر في مياه النهر العذب. تقول الشائعة: أنَّ فيرجين(Verjin) ، ابنة الستة عشر ربيعا، حَدَّثَت أمَّها عن ظاهرة غريبة تَعَرَّضَت لها، و هي تجمع الأعشاب، في المياه العذبة قائلة: رأيتُني وسطَ دائرة تشعُّ و تَبْرق من حولي، وفجأة انقطعَ ضجيج الصبايا. لم أعد أسمع أصواتهنَّ. التفتُّ يمنة ويسرة كي أتأكَّد من وجودهنَّ حولي، لكني لم أرَهنَّ ولم يكن لهنَّ أثرا في المكان. ارتفع بريق الماء، و راحت الأشعة الملوَّنة تُحيط بي. وجدتني داخل طيفٍ من الألوان تمتدُّ نحو الأعلى. كنتُ أسبحُ باتجاه السماء. لم أكن أُحَرِّكُ أطرافي ومع ذلك كنتُ أرتفع وأرتفع. كانت المياه تغمر نصفي الأسفل إلى تحت الخصر بِ قليل، كنتُ أحسُّ بملامستها لِ ردفيَّ. نظرتُ إلى ساقَيَّ وقدميَّ المغمورتين في المياه الصافية الرقراقة. رأيتُ أطرافي السفلية تلمعُ بياضا، و رأيت ذرّات ناعمة كَ مسحوق الماس تنتشر فوق قدميّ وتبرق عاكسة مكوّنات الأعماق. راحت ألوان الطيف تُحيط بِ ساقَيَّ و تتسلَّق فخذّيَّ مداعبا الوبرَ الناعم،غير المرئي، على أفخاذي. في الأثناء، شعرتُ بِ وخزة ناعمة بين فخذَيَّ. في النَوِّ و اللحظة، رأيتُ ذرّات دقيقة من عناصر كونية تُشَكِّلُ حلقات و تكوينات لونية، و ترسم لوحات من خارج الطيف الأرضي. أَحسَسْتُ و كأنَّ شيئا انسَلَّ إلى أحشائي، و في اللحظة ذاتها، سمعتُ صوتا يهتف في أذنيَّ:"إنَكِ يا فيرجين ابنة السماء تُدعَين، سَتكونين أُمَ الأرض! إنَّكِ حاضنتنا التي اخترناها لِ أنَكِ نقيَّة النفس، طاهرة الروح و عذبة اللسان. إنَّ الذي انسلَّ إلى أحشائك، إنّما هو بذرة من عندنا. سَ تكونين مُصانة و محروسة من قِبَلِ الطاقة،غير

المرئية، التي سَنرسلها إليك، وهي التي سَ تُباركِ من بين نساء قومكِ". انتثرَ الطيف الذي حَمَلَني إلى السماء الأولى. و جدتُ نفسي معلَّقة، بل، واقفة في فضاء يشعشعُ بِ ألوان لم أرَها في حياتي أبدا. كان المكان أَشْبَه بِ حديقة تُحيط بِ قصور من النثار الرماديّ. أسوارها تعلو قامات الصنوبرات و الأرزات الباسقة. تتخلَّلها قناطر و فتحات لِ العبور. وعند البوّابة رأيتُ ثلاث عربات مزيَّنة بشرائط وريبانات ملوَّنة. عربة ذهبية اللون تقفُ في المقدّمة، وأخرى فضيّة تقفُ خلفَ الأولى، وثالثة زيتيّة اللون تقفُ خلفَ العربة الفضيّة. رأيتُ كائنات جميلة مربوطة، بَدَلَ الأحصنة، إلى العربات. كائنات لا تشبهنا، أجسادها مكسوة بِ الريش الأبيض و الأزرق. لم أرَ أرجلها. كانت ذات أجنحة بنفسجية عليها دوائر صفراء و خضراء تتوسَّطها نقاط حمراء خمرية. كانت الابتسامة مرسومة على أفواهها، و عيونها تَشعُّ حنانا و تَبثُّ الطمأنينة مِن حولها. ما استطعتُ تشبيهها بالجنس البشري و لا بِ أيّة كائنات أرضية. لكنّها كانت ودودة، مريحة تَبْعَثُ الأَمان في نفوس الناظرين إليها. إنّها كما الملائكة التي تحكي عنها كتُبُ الأوَّلين. كانوا يتحدَّثون مع بعضهم بِ لغة لم أفهمها. لم أرَ نقاط، أو أماكن اتصال بينها و بين العربات. في الأثناء، تَقَدَّمَ كائن سماويّ منّي، مَدَّ يديه، أو ما يشبه اليدين، نحوي و حملني فوق كتلة كثيفة من الهواء مجتازا الحَشْدَ الهلامي الذي كان في استقبالي. كان الحَشْدُ قد جاء من أطراف الفضاءات كلِّها. كانت كياناتهم تتداخل بعضها في بعضها الآخر، تتوالد، تختفي، ثمَّ تتوالد مُجَدَّدا. تبرقُ، تطلقُ أصواتا، بل، ترانيمَ ذات طابع احتفالي. كانت و كأنها تنشدُ أناشيد النصر وتغنّي أغاني الفرح والولادة. أخذني الكائن السماوي إلى العربة الذهبية. كانت تشبه الحنتور، لكن دون غطاء السقف كَ ذاك الحنتور الذي عَلقَ في ذاكرتي منذ طفولتي، حنتور الخال آزاد. كان يُلَقَّبُ بِ الخال عزّو (أهالي البلدة يلفظونه خالو –khalo–عزّو). كان يسكن في نفس الشارع الذي كان يسكن فيه الخال ياني، ذلك الإنسان النبيل المتحدِّر من نسل الداهية أوذيسيوس. كان الخال ياني، و بَعْدَ عام من التحاقه بِ جيش الدفاع الوطني أثناء إحدى الحروب الدامية ضد الاستعمار العثماني لِ بلاده، و خدمَته في الجبهة الشرقية، كان قد فَقَدَ الاتصال بقطعته العسكرية شرق السواحل القبرصية، و تاه في الأناتوليا. عاش متخَفّيا آخِذاً كلّ الحيطة والحذر في تنقّلاته، فَ الأتراك يقتلون أيّ إنسان لا يشبههم، ليس من ملَّتهم، و خاصة المسيحي. إنَّهم يقتلون أيّ شخص إذا عَرِفوا بِ أنَّه أرمني أو سرياني أو يوناني أو بلغاري. حاولَ بِ كلِّ السُبُل ألَّا يَقَعَ بين أيديهم. استطاع بَعْدَ عامٍ من الضياع هناك، أنْ يَصِلَ إلى الرها. عاش في الرها مع عائلة سريانية مدة سبعة شهور. كان يساعدهم في الأرض و أعمال أُخرى. حافظوا عليه من غَدْر الوشاة و العملاء.

حكايته انتقلت من فَم لِ فَم، كما يُقال، و تفاصيل حياته مكتوبة على صفحات وردية (أسلافه، موطنه، عائلته، ثقافته و روحه الرهيفة) في كتاب الرجوم. الكتاب الذي لم يجرؤ أَيّ أحد، من أبناء الشرق، على طباعته و نشره بين الناس.

كان حنتور الخال عزّو جميلا، عاليا وكبيرا بِ النسبة لنا نحن الأطفال. له سقف على شكل قوس نصف دائري يحمي الركاب من حرارة الشمس في فصل الصيف، و من مياه المطر في فصل الشتاء. كان الخال عزّو رجلا ودودا، لطيفا و راقيا في تعامله مع الآخرين. إنَّه من الناجين من المجازر التي تَعَرَّض لها آباءه و أجداده، على أيدي الأتراك و الأكراد، في بلدهم الأم منبت سلالاتهم. كُنّا نحن الصغار نركض خلف الحنتور صباحا حين يذهب إلى عمله، و مساءا حين يعود من عمله. و في الجولتين، صباحا و مساءا، كنّا نتعلَّق و نسند مؤخراتنا على عارضة تربط بين طرفي الحنتور (عرضيا) من الخلف. الأطفال الذين لم يتسنّى لهم اللحاق والجلوس على تلك العارضة الخلفية، كانوا يصرخون(عَمّو قامتشير.. عمّو قامجير – القامتشير، القامجير – يعني السوط) منبّهين الخال عزّو بوجود أطفال آخرين جالسين على العارضة خلف الحنتور، وهذه الأهزوجة كانت مفهومة لدى الخال، يعني اضرب السوط إلى الخلف. في الأثناء كان الخال يَضرب بِ السوط الذي في يده إلى الخلف، هكذا لا على التعيين، و غالبا ما كان السوط يلسع أجسادنا بِ طرفه المستدق في نهايته. حينذاك كنّا نترك الحنتور و نهرب بعيدا، بِ الرغم من أَنَّ لَسْعَة السوط لم تكن مؤذية أو موجعة، لكننا كنّا نبتهج لِ هذه الطقوس التي كانت تجري بيننا و بين الخال عَزّو. كان اسم الحنتور عندنا بايتون(PAYTON)، فَ كُنّا نقول جاء البايتون و راح البايتون. الصبْية الذكور كانوا يزاحموننا في الجري خلف حنتور الخال عزّو. و في أغلب الأحيان كنّا، نحن البنات، نكتفي بِ الهرولة على الجانبين من خلف الحنتور، و كنّا نطلق الضحكات على أولئك الذين يتعرضون لِ لسعات سُوط الخال عزّو.

في أحد أيام الصيف لَمَحْنا الحنتور قادما من السوق باتجاه الحارة، حيث منزل الخال عزّو. كان الوقت عند الغروب أو بُعَيد الغروب، و في هذا الوقت، أي قُبل الغروب بِ قليل، كان راعي البلدة يعود بِ الأبقار من المراعى إلى بيوت أصحابها، وكانت الأبقار تعرف بيوتها بِ الغريزة، وكانت تطلق خوارها وهي في طريقها إلى حظائرها. كان وقت دخول الأبقار إلى شوارع الحارة وقتا ممتعا، حيث كان الأطفال الذكور، و نحن أيضا، يركضون وراء الأبقار و يلكزونها، و في أغلب الأيام كان الأهالي يتقدَّمون نحونا و يصرخون، أنْ اتركوا الأبقار وشأنها، أمّا نحن فَ كنّا نتقافز كَ القرود من حولها وسط ضحكاتنا و صيحاتنا الطفولية. في الأيام العادية، لم نكن ننتبه إلى روثها المنتشر في

الشوارع التي كانت تسير فيها من المرعى إلى حظائرها. أمّا في هذا اليوم، و حين اقترب الخال عزّو بِ حنتوره إلى رأس شارعنا من طرف حارة اليهود، راح الأطفال، كما كلّ يوم، يركضون خلف الحنتور و يتعربشون به من الخلف، و كما كلِّ الأيام أيضا، راح الأولاد الآخرون يطلقون الأهزوجة ذاتها(عمّو قامجير..عَمّو قامجير)، و كَ كلِّ الأيام راح الخال عزّو يجلد ظهر الحنتور بِسوطه لِإبعاد هؤلاء الأشقياء. وعند ذاك كان الأولاد يقفزون من على العارضة و يركضون بعيدا، و هم يصرخون و يضحكون مبتهجين لِ هذه الطقوس المألوفة بينهم وبين الخال عَزّو. في هذه المرحلة من لَهْوِهم، كان بعضهم يسقط أرضا لِ فَشَلِه في الحفاظ على توازنه أثناء مغادرته الحنتور الذي كان أسرع من خطواتهم. و في هذا اليوم، ايضا، حصل أنْ تدحرج بعضهم خلف الحنتور، أمّا الملفت في هذه المَرَّة، فكان المشهد الذي أثار الضحك على هؤلاء الذين تَمَرَّغوا في روث الأبقار عند سقوطهم أثناء تَرْكهم لِ الحنتور، و في كثير من الأحيان كان الخال عَزّو، هو الآخر، يبتسم و يضحك في سرِّه على ما يحصل لهم. في بعض الأيام، حين كنتُ أرافق والدتي إلى نهر الينابيع لِ تجميع التوزكِه و البندكِه، كنتُ أرى حنتور الخال عزّو يَمرُّ بنا إلى القرى المجاورة حاملا ركابا وأمتعة كَ توصيلة من البلدة إلى القرية، و كان يحمل آخرين، إنْ وجِدوا، من القرية إلى مركز البلدة. كنتُ أحسُّ بِ فَرَح و سعادة عند رؤيتي لِ الحنتور و هو يسير خَبَبَا على الطريق المحاذي لِ النهر الذي كانت أمَّهاتنا يجمعن الأعشاب النبيلة منه. وفي بعض الأحيان كنّتُ أرى الركّاب يمدّون رؤسهم إلى خارج الشمسية التي هي بِمثابة قوس نصف دائري وينظرون إلينا، و غالبا ما كانوا يهتفون إلينا بِ عبارات لم أتبيّنها في ذلك العمر الصغير. أمّا الرجل الذي كان يقود الحنتور، فَ أذكر تماما و بِ وضوح، كان يُحَيّ النساء بِ رَفْعِ يده عاليا، و كان يقول صباح الخير و الله يعطيكم العافية. كانت النسوة يعرفنه و يعْرفنَ طيبته و نقاؤه، فَ يُرَدِّدْنَ دُعاء الخير و البركة و التوفيق له و يلوّحنَ له بِ أياديهنَّ بِ فرح وسرور. كانوا يقولون عن الخال عزّو بِ أَنَّه لطيف وعينه كريمة و يده نظيفة. طبعا عرفتُ، فيما بعد، ما كانوا يقصدون بِ تلك الصفات.

نُقِلَ عن الأهالي، رجالا و نساءا، بِ أَنَّ الخال عزّو يحظى بِ رفقة ملائكة في سَفْراته خارج البلدة. إنهم يحمونه من كلِّ سوء، ويساعدونه في إصلاح أيّ عطل يحصل معه على الطرقات خارج البلدة في المسافات بين البلدة و القرى المحيطة، حيث الغابات الصغيرة وأشجار الكينا و أشجار الحور، أي، في الخلاء حيث لا بيوت و لا تجَمّعات ثابتة للناس. كانت هناك قصص مثيرة تدور بين الأهالي حول هذا الموضوع، و منها ،على سبيل المثال، أَنَّه في إحدى سفراته إلى قرية حلكو لِ توصيل اثنين من الفلاحين

من البلدة إلى القرية، و في الطريق حصلَ أنَّ الحنتور مال بِ زاوية حادة على جنبه الأيسر، و هو ينزل إلى الوادي الأحمر (NAWALA SOR) الذي يفصل القرية عن البلدة، و قيل بِ أنَّه سار على جنبه، وهو يلامس الأرض تقريبا، و أنَّ الحصانين كانا يسيران خَبَبَا ولم يُصَب أحدهما بِأذى إلى أنْ صعد إلى كتف الوادي و دون أنْ يصيب أحدهم بِأيّ جرح أو حتى خدش صغير، و دون أنْ يصيب هيكل الحنتور أيّ ضرر. و أنَّ الخال عزّو كان جالسا على مقعده و لم يَمل مع الميلان الشديد لِ الحنتور. أمّا الراكبَين، و بعد أنْ صعدَ الحنتور إلى الطرف الآخر من الوادي، فَ كانا في صدمة مبهوتَين. ارتبط لسانهما من أثر الحادث الذي حصلَ معهم. راحا يتحسَّسان جسديهما لِ التأكُّد من أنَّهما لم يُصابا بِ أذى. كانا ينظران إلى الخال عزّو ويَمدّان رأسيهما إلى فوق كتف الخال لِ النظر إلى الحصانين، فَ كلُّ شيء كان طبيعيا. الخال عزّو يقود الحنتور و كأنَّ شيئا لم يكن، و الحصانان يسيران خَبَبا كَ كلِّ سفراته، و الحنتور كان سليما بِ كُلِّيَته. نظرا إلى بعضهما في دهشة، و حَرَّكَ كلّ منهما يديه و شفتيه دلالة التعجُّب والاندهاش ممّا حصل لهم و لِ الحنتور في الوادي. مالا إلى بعضهما وراحا يوشوشان لبعضهما بِ صوتٍ منخفض لا يسمعهما الخال عزّو. كانا يعتقدان بِ أنَّ قوى خارقة غير مرئية قد اسْنَدَت الحنتور. و حين نقلا تفاصيل الحادثة لِ الأهالي أضافا من عندياتهما بِ أنَّهما رأيا كائنات شفّافة تحيط بِ الحنتور من الجانبين و من الخلف و الأمام أيضا. و هكذا اطمأنَّ الأهالي لِ اعتقادهم بِ رفقة الملائكة له. أمّا زواج شامو (SHAMO) و ساكو، فَ يتمُّ تناقل أخبار ذلك الحدث إلى يومنا هذا. ساكو كان يحبُّ شامو(شامو هو تصغير أو تَحَبُّب لِ شاميرام، و كذلك ساكو هو تصغير أو تَحَبُّب لِ سركيس) و شامو، هي الأُخرى، كانت تحبُّ ساكو. كانت قصتهما قد انتشرت في البلدة، لكن في السرّ. لم يتم تداول قصة عشقهما بِ شكل علني فضائحي. كانا رمزا لِلعشاق في البلدة. الموقف الضمني لِ الناس كان متعاطفا معهما، و كانوا يحسدونهما على حبِّهما الجميل العاصف الذي يتحدّى كلَّ الأعراف و العادات والتقاليد. بِ التأكيد هناك بعضا من الأهالي، و هم قلّة، كانوا يدسّون شائعات سيّئة حولهما، كَ أنْ يقولوا: بِ أنَّهما يلتقيان بين أشجار الحور أوقات الظهيرة، حيث الأهالي في قيلولتهم أيام الصيف، و أنَّهما يفعلان أشياء مريبة. يقولون أيضا بِ أنَّ خاجو(يعطون هذا الاسم لِ تمييع الموضوع، لأنَّ أغلب الشباب يُسَمّون بِ هذا الاسم في البلدة) حين كان عائدا إلى منزله وهو يسلك الطريق الموازي لِغابات الحور القريبة من النهر، إنَّه رأى خياليين يتحرّكان تحت ظلال الأشجار الباسقة. يقول ذاك الشاهد الوهمي، طبعا نقلا عن دسّاسي الشائعات المغرضة حولهما:"كنتُ عائدا من الحقل إلى

البيت، و لكي يعطوا مصداقية لِ إشاعاتهم ذكروا اسم الضيعة التي كان الشاهد عائدا منها و هي جنيدية الصغيرة(الصغرى)، و حين اقتربتُ من النبع الكبير، على يمين الطريق، سمعتُ خشخشة و همسات أصوات آدمية، عندذاك أبطأتُ السير و حرصتُ على أَلاّ يصدر صوتا عاليا من مشْيَتي. نظرتُ إلى الناحية التي أَتَتِ الهمسات و الخشخشة منها. رأيتُ خياليَن، أو قُلْ شخصين، طبعا لم أتبيَّنهما، لم أعرف مَنْ هما، لكنني مَيَّزتُ جنسهما فَ عرفتُ بِ أنَّهما شاب و فتاة. تَمَهَّلتُ في السير و صرتُ أمشي على رؤس أصابعي تجنّبا لِ إحداث أيّ ضوضاء يكشفُ وجودي في المنطقة. كانا يبعدان عنّي قرابة العشرين إلى خمسة و عشرين مترا بين الأشجار و النباتات الطويلة العالية. رحتُ أتلصَّصُ عليهما من بين فرْجات الأشجار و النباتات العالية. رأيتهما يتعانقان، يقبّلان بعضهما و بعد لحظات انزلقا بِ بطء عند جذع شجرة و راح الشاب يرفع كنزتها ويداعب نهديها ثمَّ تمدَّدا على البساط العشبي، وأنا متأكد من أنَّهما كانا يمارسان الجنس تحت ظلال الشجرة. و يتابع قائلا: بِ التأكيد كان ذاك الشاب ساكو نفسه، و الفتاة شامو نفسها؟!" قَرَّرَ ساكو، بعد الاتفاق مع حبيبته شامو، أنْ يطلب يدها من أهلها. ماطلَ أهل شامو في طلب ساكو في المرَّة الأولى، و طلب من أهله أنْ يذهبوا إلى أهلها مرَّة ثانية يطلبوها لِ الزواج، و هذه المرّة أيضا لم يعطوا رَدّا على طلبه. بعد خمسة شهور من محاولاته العلنية و الرسمية لِ طلب الزواج منها، و حين تبيَّن لهما بِ أنَّ أهلها لا يرغبون في زواجها منه، عندذاك اتفقا على أنْ يهربا معا و يتزوَّجا في قرية زندا التي تقع إلى الشرق من حلكو. ذهب ساكو إلى الخال عزّو و شرحَ له الموضوع و طلب منه أنْ يساعدهما في تحقيق أمنيتهما في الزواج. طبعا الطلب هو أنْ يوافق الخال عزّو على نقلهما بِ الحنتور إلى زندا دون علم أهل شامو. وهذه الطريقة في الزواج هي عادة متعارف عليها وتسمى(الخطيفة، أو الهَريبة)، أي أنَّ الشاب يخطف الفتاة و يتزوَّجها دون موافقة أهلها. كان أهل الفتاة، حين تحصل الخطيفة، يرفضون الاعتراف بِ الزواج ويهدّدونهما بِ القتل. حينها تَتَمُّ الوساطات من أهالي الطرفين، و من وجهاء البلدة لِ التصالح و قبول الزواج و إجراء مراسم الأفراح لِ الزوجين. طبعا بعد المباحثات و التدخلات الخَيّرة يتمُّ الصلح بين الطرفين. أثناء الوساطات يكون أهل الفتاة يبحثون عنهما لتنفيذ التهديد بِ القتل، إلاّ أنَّهم يفشلون في العثور عليهما و يعاودون الكَرَّة في البحث عنهما وهكذا إلى أنْ يتمَّ الصلح و التصالح و الفرحة. و ربَّما تكون عملية البحث بِرمَّتها مجرَّد تمثيلية لِ الإيحاء لِ أهالي البلدة بِ أنَّهم سَ يغسلون العار الذي لَحقتْ بهم جرّاء اختطافها و قبولها بِ الهَرَب معه. كانت شامو قد قابلتْ الخالة مانوش، زوجة الخال عزّو، و أخبرتها بِ قرارهما بِ

الهرب(الهريبة، الخطيفة) و تَرَجَّتها أنْ تقنع زوجها بِ القبول بِ مساعدتهما. كانت الخالة مانوش سعيدة بِ قرارهما و باركَت لهما زواجهما سلفا، و شَرَعَت في إسداء النصح لها و عَلَّمَتْها كيفية التصرُّف في الليلة الوردية، و دلَّتْها إلى ما هو ضروري من الأمتعة و الألبسة، وخاصة الداخلية منها، التي عليها أنْ تُصرّها و تأخذها معها. تَمَّ ترتيب كلّ الأمور و الاتفاق على مكان و زمان اللقاء مع الخال عزّو. في فجر يوم الأحد، حيث الأهالي يكونون في نوم عميق لأنَّ هذا اليوم هو يوم عطلة. كانت شامو قد رتَّبَت صرَّة ملابسها الضرورية، و سارت من فوق الأساطيح إلى منزل الخال عزّو الذي كان بانتظارها. كان قد شَدَّ الحصانين إلى عريش الحنتور. في الأثناء أخَذَت الخالة مانوش بِ يَد العروس و أَسْدَت لها نصائح مهمة و خاصة ما يتعلَّق بِ الأمور النسوية، وأهدَتْها فوطة بيضاء ناعمة الملمس مع ابتسامة خبيثة ذات دلالة جَعَلَت وجه شامو يَحْمَرُّ خَجَلا. قَبَّلتها من جبينها و ساعدتها على ركوب الحنتور. كان ساكو ينتظرهما خلف مطحنة البلدة حيث حقول القمح و الشعير و العدس. بين تلك الحقول توجد طرق ترابية، كلّ طريق يأخذ إلى ضيعة أو أكثر، و ذلك حسب التوزّع الجغرافي لِ تلك القرى. صعد ساكو إلى الحنتور وجلس بجانب حبيبته، طبعا بعد أنْ صَبَّحَ على الخال عزّو. كان مخطَّطهم أنْ يذهبوا إلى دمخية الكبيرة، القرية التي تقع إلى الغرب من حلكو و زندا، و منها يتوجَّهون إلى حلكو و من ثمَّ إلى زندا. خَطُّ السَير هذا كان لِ التمويه. بعد ساعتين من خروجهم من البلدة، كان إخوتها وأولاد أعمامها وأولاد خالها قد تسلَّحوا بِ الخناجر والهراوات الضخمة، وتَوجَّهوا إلى قرية زندا. توقَّعوا أنْ يذهبا إلى هناك حيث خال العريس يسكن فيها. أمّا موكب العروس كان قد وصل إلى دمخية الكبيرة بعد أَقَلّ من ساعة. أخذوا قسطا من الراحة. صعد الخال عزّو إلى الحنتور، بعد الاستراحة، و ساط ظهر الحصانين لِ الانطلاق إلى حلكو. و لمّا وجَّه الرسن بِ اتجاه طريق حلكو، أبى الحصانان السير فيها. كلما كان الخال يحاول دفعهما لِ السير بِ الاتجاه الذي يختاره، كان الحصانان ينعطفان بِ اتجاه الشمال. بعد عدة محاولات فاشلة لِ إرغام الحصانين على جَرِّ الحنتور إلى زندا عبْرَ حلكو، ترَكَ الرسن على رسله. فَ ما كان من الحصانين إلاّ أنْ اتجها شمال قرية دمخية الكبيرة. نُقِلَ عن العروسين بِ أنَّهما شاهدا، أو تراءى لهما، خيالا على هيئة طير أزرقَ اللون فاتِحُه، يرفرف فوق رأس الخال و ينتقل من اليمين إلى اليسار من رأسه، و كَ أنَّه يُخْبره عن مسألة، أو موضوع مهم يتعلَّق بِ سَفْرَته هذه. و بناءا على ذلك، وَجَّه الخال عزّو الحنتور إلى طريق ترابي بين حقول القمح و الشعير و كروم العنب. كانت مساحات من البساتين وغابات من الأشجار و الشجيرات تحاذي الأراضي الزراعية، و في بعض

المسافات تكون بِ مثابة حدود لِ ملكيات الأهالي لِ تلك الأراضي. كانت بينها أشجار مثمرة كَ الرمان والتين والكرز، وأشجار دائمة الخضرة. كانت رائحة الحقول و البساتين تمتزج مع روائح أشجار الكينا والزيزفون و الريحان البري. هذا العبير وموسيقا الطبيعة الصادرة من زقزقة العصافير وتغريدة البلابل وحفيف أغصان الأشجار، إنّما هي أجمل هدية تُقَدِّمها الطبيعة لِ العروسين، وهي فأل حسن لِ بلوغ أمنيتهما في الزواج بِ أمان و فرح و مباركة السماء لهما. قيل عن الخيال الذي تراءى لهما بِ أنَّه الملاك الحامي الذي يرافق الخال في سفراته، و أنَّه أشار إليه بِ تغيير وجهة السير إلى هذه الطريق، حيث تؤدي إلى قرية هيمو. هكذا تَمَّ زواجهما بِ فرح هناك في هيمو، و قيل أيضا بِ أنَّ الخال عزّو أخذ دور الكاهن و كَلَّلهما، بعدَ أن تطوَّع شاب و زوجته لِ الوقوف كَ عَرّابَيْن(شاهِدَيْن) لِ زواجهما. لقد انتشر خبر تزويج الخال عزّو لِ العروسين، و نال استحسان الأهالي، خاصة أنَّه أدّى الصلاة بِ شكل صحيح و جميل على رأسيهما. لم يكن ينقصه شيئا من وسائل و رموز الاكليل، فَ هو يحتفظ، دائما، بِ الكتاب المقدَّس و الصليب معه في الحنتور، بِ الإضافة إلى كميَّة من البخور الذي يشتريه من عند العَطّار اليهودي عزرا. كنّا سعداء بِ ألعابنا الطفولية. كان الأطفال الذكور، أو بعضا منهم، يُقْدِمون على ألعاب فيها أَذيَّة و ضَرَر، إنَّها لم تكن ألعابا بل كانت تحرّشات و أفعال مزعجة لِ الآخرين. أذكر في إحدى الأمسيات الصيفية، حيث الشمس كان قد غاب خلف الأفق، و كان الظلام قد بدأ ينتشر، و في هذه الأوقات كان بعض الصبْية الذكور يذهبون إلى الشارع الموازي لِ شارع بيت الخال عزّو غربا، حيث منزل الخال (خالو) داود. كان خالو داود قصير القامة يعيش مع زوجته، و بِ سبب قِصر قامته كان يتعرض لِ سخرية و تعليقات الأطفال. كانا يملكان بقرتين و عدّة دجاجات و زوج من الديك الرومي. كانا يعيشان على انتاج البقرتين و الدواجن، حيث أنّ الخال داود كان يبيع الحليب و اللبن و البيض. امّا الحدث الذي أتذكَّره هو أنَّ هؤلاء الأولاد مَرّوا بِ جانب بيت الخال داود و هم يحملو ترابا في أيديهم، و أثناء اقترابهم من شبّاك بيته قذفوا التراب على أواني الحليب واللبن الموضوعة في النافذة التي كانت درفاتها مفتوحة من الداخل ومحمية بِ الغربول من الخارج. وهكذا كانوا يفسدون المواد التي كان الخال قد وضعها هناك ومغطاة بِ شاش أبيض لِتبرد وتكون جاهزة لكي يبيعها في الصباح. كنتُ أتألَّم من هذه الأفعال المؤذية، و لم أكن الوحيدة، فكان عددا من البنات و الأولاد أيضا لم تعجبهم مثل هذه الأعمال المؤذية، و لذلك كانت المرَّة الأخيرة. أمّا تحرّشات الصبية بِ شكل عام، بِ الخال داود، كانت تعليقا و سخرية من قِصَرِ قامته، حيث كانوا يصرخون، حين يرونه، داودِ (داودي) قُط (قصير) يمشي و ينطّ... داودِ قُط

يمشي و ينطّ. طبعا كانت هذه الأهزوجة تُزعجه كثيرا، لذلك كان يردُّ عليهم قائلا: "ينطّ على أمّك" و كان الأطفال يضحكون و يهربون منه.

-2-

نظرتُ ثانية إلى العربة الذهبية، تقول فيرجين. كانت مكشوفة على الاتجاهات كلِّها. أَجْلَسَني على الأثير خلف الملاك الذي يقود العربة. كانت العربات تقودها ملائكة ذات أجنحة بِ ألوان مطابقة لِ الوان العربات التي تقودها. نظرتُ لِ الأسفل، إلى النهر، إلى الصبايا اللاتي كُنَّ يجمعنَ الأعشاب معي في المياه العذبة. رأيتُ رجالا و شبابا يحومون حول المكان. يحيطون بِ أماكن تواجد الصبايا كما الضِباع حين تُحيط بِ قطيع من الغزلان. كانوا يخطفون المشاهد المثيرة من أجساد الصبايا، حيث كنَّ ساهيات في غمرة التقاطهنَّ لِ الأعشاب من المياه العذبة، و كانت أفخاذ بعضهنَّ، أو أثدائهنَّ قد التمعت تحت الشمس الربيعي في الهواء المنعش. رأيتُ ابنة خالتي لوسين تُلَمْلِمُ فستانها من حول جسدها و تجمع أغراضها في سلَّتها لِ تنطلقَ عائدة إلى البيت مع صديقاتها. في الحال أومأتُ لِ الكائن السماوي كي ينظر إلى الأسفل، طبعا هو لم يأبه البتّة لِ ما ظهرَ من جسد لوسين، حين كانت تُلَمْلَمُ ذاتها في تلك العُجالة. كانت تدفشُ نهديها داخل القميص الأزرق السماوي المقلَّم بِ خطوط بيضاء رفيعة، ثُمَّ أَفرَدَتْ تنورتها الخمرية على ساقيها اللتين كانتا مكشوفتين لِ الهواء و لِ سعيد الحَظِّ الذي سَ يَحظى بِ رؤية بياضها و جمال اتساقها مع انحناءات حوضها الجميل. لَمْلَمَت شعرها على شكل كعكة إلى الخَلْف من رأسها. تذَكَّرْتُ، أو بالأحرى، ذكَّرَتني لوسين من خلال تحريك نهديها لِ الأعلى و الأسفل، ثمَّ لِ اليمين و اليسار إلى أن استقرّا في أماكنهما و أخذت تكويرتهما شكلها الجميل في انحناءة ملساء، ذَكَّرَتني بِ أيام مراهقتنا الأولى، حيث كُنّا نَخْتَلي في مكان بعيد عن أنظار أهلنا و كنا نقوم بِ كَشْفِ البراعم التي نَمَت و أخّذّت حجمَ التفاحات على صدورنا. كُنّا نتخيَّل براعمنا بِ أحجام مختلفة و نضحك من أفعالنا و خيالاتنا. ها قد نضجت البراعم يا لوسين و أمست بِ الحجم الذي كنّا نتخيّل، و ها أَنَّكِ تفعلين كما كانت أمهاتنا يفعلن أمامنا. كنّا حينذاك صغارا تغمرنا فرحة البلوغ و خجل الطفولة. بَرْبَرْتُ بِ صوتٍ لا ينتمي إلى أيَّة لغة. قلتُ له بِ أنَّ ابنة خالتي سَ تذهب إلى بيتنا، إلى أهلي و سَ تخبرهم بِما جرى. هَزَّ رأسه و قال: "سَ تكونين في بيتكِ قبل أنْ تصل ابنة خالتكِ إلى هناك".

انطلقَ الحنتور الذهبي في الفضاء المزركش بِ النجوم ، و لوحات بديعة مرسومة و منحوتة بِ دقّة لا مثيل لها. كانت عربتنا في المقدّمة، و من خلفها احتشدت عربات

السماء و الكائنات الهلامية. كُنّا في هذا الأثير الكونيّ اللامحدود نتحرَّكُ كَ الوميض، و كَ البرق نلتهم الأَبعاد كلّها. مَرَرْنا بين ملايين من النجوم و بِ جانب كواكب عديدة كانت تبدو، قبلَ وصولنا إليها، كَ خَرَزَات صغيرة ملوَّنة متناثرة في هذا المحيط اللامحدود، هذا المحيط الذي تنتشر في شتّى أطرافها سحابات هائلة من ذرات التراب والغازات. كانت الأنهار تلتمع حين نصادفها في مسارنا. كان سطحها يرتعشُ بِ فعْلِ النور السماوي الذي ينعكس عليه. كانت في جريانٍ أَبَديٍّ نحو المجهول مِن هذه الفضاءات المترامية الأَبْعاد. دخلَتْ عربتي إلى مُجَمَّعٍ مدهشٍ، و عند المدخل أَنْزَلَني الكائن السماوي حيث الملائكة يرتِّلْنَ مزامير الولادة والخلود. سَجَدَ الكلُّ أمامي و أيديهم متصالبة على صدورهم من تحت أجنحتهم. شَرَعوا في إنشاد تراتيل الحبِّ العذري و الحَمْل من المياه البدئية. سمعتُ كلمات ترتيلة عذبة هادئة، ينشدونها بِ لغةٍ ليست غريبة على مسامعي، لغة محكية مِن قِبَل أهلنا و جيراننا في بلدتنا الوديعة، لغة أعرفها أنا أيضا. إنها اللغة السريانية، الآرامية. اللغة التي بها خَلَقَ رَبُّ الأكوان آلهة وأنصاف آلهة. اللغة التي تَحدَّثَ بها قائد الفلْك البابلي مع إله الطوفان آنذاك. اللغة التي بها حَكَمَ الملك الجبّار(جلجامش)، ابن الإلهة نيسون، شَعْبَ أوروك. اللغة التي بها كتبَ الملك حمورابي شريعته الخالدة. اللغة التي تحدَّث بها السيد المسيح. كانت كلمات الترنيمة تقول:"مباركة أنتِ من بين عناصر الحياة كلِّها. لقد حَبلتِ من بذور المياه البدئية. حَبلتِ دون أنْ يَمسُّكِ رَجُل. حَبلتِ بِ قوّة الطاقة البدئية. إنَّكِ الآن تحملين أَجنَّة جنسٍ جديدٍ، إنَّه من سلالاتنا المنتشرة في هذه الأكوان و المجرّات و الخلاءات المرئية و اللامرئية. إنَّكِ أُمُّ الحياة الجديدة التي سَ تَحلُّ مكان هذه التي في طريقها إلى النهاية و الفناء الأكيد. إنَّكِ تُدْعين، الآن، فيرجين. لكنَّكِ أنتِ نفسكِ هي القمر، عشتار، إيزيس، أفروديت، فينوس وآناهيد. نحن حُرّاس طيفكِ هنا في هذه الفضاءات، و حُرّاس الجنين الذي تحملينه في أحشائك. سَ تبقين في غيبوبة النشوة السماوية هنا بين سلالاتنا الفضائية. سَ تُمْطِرين أَجِنَّة الجنس الجديد من أحشائك على الكوكب الذي صَعَدْتِ منه إلى عوالمنا".

مَرَرْنا من تحت قنطرة، ذات لون رصاصيّ،على طريقٍ مُمَهَّدة بِ طبقة رقيقة من تراب أورانوس وحُبيبات من صَمْغِ البخور المنهمر من جوبيتر.مَشينا وَسْطَ الحضور المبتهج نحو كهفٍ مُضاء بِ قناديل وشمعدانات نيرانها لا تطلق الدخان و الهُباب و لا تُخَلِّف شَحّارا أَسوَدا. تَوقَّفَ الموكب عند مدخل الكهف. تراجعَت جموع المستقبلين و جوقة المنشدين مسافة لم أَتَمَكَّن من تقديرها. كانت الجموع تستمع إلى جوقة المنشدين في خشوع. سمعتُ أناشيدهم و عرفتُ من خلال القدرات فوق الطبيعية التي اكتسبتها منذ

صعودي إلى هذه السماوات، من القوى الفضائية، بِ أَنَّهم يُنْشدون بِ اللغة اللاتينية. اللغة التي كانت الآلهة بها تبني و تُدَمِّر. تَبثُ الحُبَّ و السلام و الفنون الخلاّقة، و بها كانت تُحارب بعضها بعضا. سمعتهم ينشِدونَ مقاطع حميمية و أُخرى حزينة. كانت كلماتها اللاتينية تقول:"يا أُمّنا، يا أُمَّ الحياة، يا ديميتر مباركة أنتِ من بين الأكوان! باركي أثينا واغفري لِ هيلين فعْلتها الشنيعة. سامحي ابناء و أحفاد الإغريق، و ارسلي جنسا جديدا من أحشائكِ لِ يَحلَّ مكاننا(نحن الفانون قريبا). أنتِ أُمّنا، أُمُّ الحياة الجديدة". أمّا الكائن السماوي الذي أَنْزَلني من العربة الذهبية، أَسَرَّ في أُذني أنْ أدخل الكهف وحيدة وأَنْ أتابعَ طريقي إلى المذبح المقدَّس، حيث مجمَّع أرباب الأفلاك و الفضاءات و الأكوان بِ انتظاري. وحين بدأتُ في السير نحوالمذبح الربوبي، رأيتُني أَمشي فوق أرضية الكهف دون أنْ أُحَرِّكَ أطرافي السُفْلية. كان الغمام يحتضنني و يأخذني إلى حيث الأرباب و الآلهة. غَمَرني دخان شفيف من نواتج احتراق الراتنج و البخور و الغار و خشب الصندل. تَغَلْغَلَتِ الروائح المنبعثة من الأصماغ الأرضية في خلايا دماغي. صرتُ أرى المكان كلّه، كما كنتُ أرى الهيكل و المذبح(الخُوْران) في أديرتنا المنتشرة في بلداتنا. و أرى صور تلاميذ المعلم، و من فوقهم تتراءى لي ملامح المعلِّم رافعا يديه الاثنتين في إيماءة حنونة، و كأنَّه يلقي السلام على الكون.

تصاعدت الروائح المستخرجة من حوت العنبر و إيل المسك وعطر الزباد إلى السماء الأولى. تسَرَّبَت إلى داخل الكهف وامتزجت مع روائح تلك الأصماغ الباعثة لِ أجواء العِبادة و الخشوع، لِ التأمّل الروحي و الصمت المقدَّس. لم اَكَد أَشُمُّ المزيج لِ لحظة، إلّا وكانت روائح النباتات العطرية، من فلّ وياسمين والعسليات الملوَّنة و اكليل الجبل و البنفسج، تملأُ المكان و تختلطُ بِ الروائح الصمغية و الحيوانية. هكذا أَقْبَلَت أرواح العطور إليَّ، و باتت تداعبُ روحي و تُضَوِّع بِ الأريج الأرضي هنا في هذا الكهف و هذا الهيكل المقدَّس. التمَعَت عيونهم و أَشْرَقَت وجوههم. أَلْقوا نظرة عميقة على وجهي، وراحوا يرسمونني بعيونهم التي لا تشبه عيوننا. مالَ الجَمْعُ، يمينا و يسارا، إلى الجالس وسطهم دون أنْ ينطقوا، أو يلفظوا كلمة. إنَّهم يفهمون بعضهم بِ الومى. مَدَّ الجالس على الغيمة البيضاء يدَه إلى اليمين من فوق رأسه، حيث الجواهر الليلكية و النجمات الفضية و باقات من نيازك السماوات تلمع في حديقته المزدانة بِ مساحيق من الذرّات الفوسفوريّة. قَطَفَ ثلاث نجمات و ثلاثة أزرار ذهبية. لَمَّ عددا من الجواهر الليلكيّة و أخذّ كَمُشة من المسحوق الفوسفوري. رَتَّبَ ما جمعه في مزهرية من العقيق الأحمر الخمري المُعَرَّق بِ خطوط صفراء ذهبية رقيقة. طَلَبَ من الجالس إلى يمينه أنْ يُقَدِّمها إليَّ، و التفَتَ إلى الجالس إلى يساره طالبا منه أنْ يُقَدِّمَ إليَّ المنديل البنفسجي المطوي

على بعضه بِ ثَنْيَتين اثنتين. كان المُجَمَّعُ الربوبي قد تلقّى الأمر الصادر من مركز المجرَّة والقاضي بِ أرسال فيرجين إلى محيط الزوبعة الكونية. أَخَذَت فيرجين المزهرية الفضائية، و رَمَتِ الشال البنفسجي على كتفيها. أخذها كبير الآلهة إلى المذبح و شَرَعَ في تقديم فروض الولاء الكوني و تمجيد السديم الذَرّي. في الأثناء حَرَّكَت أمواج الأثير أوتار السماوات كلّها، وراح أعضاء الجوقة يتوزَّعون في مجموعات بحَسَبِ تخصّصاتهم ، وفي الحال صَدَحَ صوت المنشدين بأغاني الفرح على إيقاعات خفيفة. أمّا المرتّلون، فَ قد اختاروا النصوص التي تُمَجِّدُ المياه الفلكية و الأنهار المقدَّسة التي حَمَلَت بذور الكواكب والنجوم، وأَنْزَلَتها في المطر الكوني الأوَّل على كوكب الأرض، حيث تَغَلْغَلَت في تجاويف الصخور ونسغ الأشجار النبيلة. امتلأ الهيكل بِ الغازات البركانية الناتجة من تلاشي فقاعاتها على سطوح الأحواض النَشِطة. امتزجَ دخان خشب الصندل و البخور و روائح الزيوت و الشحوم العَطِرة مع تلك الغازات المنبعثة من الفقاعات البركانية. رَفَعَ كبير مُجَمَّع الربوبي صولجانه نحو نَجم الخشخاش المملوء بِ عطر زهرة الأفيون الوردي. أَخَذَ حجمين من عطرها و أَضافَ إليه ثلاثة أحجام من العطور وأَبخرة الصندل والشموع و البخور. جَمَعَ المزيج في قَعْرِ نَيْزَك على شكل قَمْع أرضي. أوماً لِ الحشد أنْ يُهلِّلوا لتتويج فيرجين ملكة على الكون، والسجود لها كَ أُمٍ لِ الحياة. في الأثناء اقتربَ منها و قَدَّمَ النيزكَ إليها، و قبلَ أنْ يطلبَ منها استنشاق أبخرتها و غازاتها العطرة، راحَ يشرحُ لها المخطط الفلكي الذي رُسِمَ لها و الدور المنوط بها. قال لها بِ أَنَّهم سَ يأخذون نسخة منها مع الجنين الذي تَشَكَّلَ من تلاقح الذرات الفضائية، تلك التي تدحرجَت من فجوات الصخور إلى المياه العذبة، مع بويضاتها العذراء في رحمها الطاهر. إنَّ مجمَّع الآلهة المسؤل عن الحياة في كوكبكم قَدْ طَفَحَ بهم الكيل، إنَّهم(و أنا على رأسهم)، و لنْ أَقُلْ بِ أنَّنا أُصِبْنا بِ الأرق و لم يعد أحدنا قادرا على أَخْذِ قيلولة لِ يرتاح من الأعباء الملقاة على عواتقنا. كلُّ ذلك بِ سَبَبِ التكاثر الهائل لِ الجنس البشري. و لذلك طَلَبْتُ(أنا كبير هذا المجمَّع الإلهي) من مركز الزوبعة الكونية بِ إفناء البشر بِ الطريقة التي يرونها مناسبة. أَخْفَضَت فيرجين بصرها إلى الأرض. كان الحزن باديا على محيَّاها، و ملامح الدهشة غَطَّت وجهها؛ كيف لا، و هي تسمع هذا الكلام الرهيب(إفناء البشر)، أيْ قَتْل كلّ البشر، كلّ هؤلاء الذين تعرفهم و الذين لا تعرفهم. أمّها، أبوها، إخوتها و اخوانها. أقرباؤها، جيرانها، صديقاتها و أصدقاؤها... بعد لحظات من سماعها لِ كلام كبير المُجَمَّع، شعَرَت بِ دوار، و بِ الكاد أَسْنَدَها و أَحاطها بِ النور السماوي و تركها مغمورة فيه، معزولة عن المؤثِّرات الخارجية، سوى إمكانية التواصل الروحي معه. بعدَ حين من الزمن الكوني، تواصَلَ

كبير المجمَّع مع أركان الزوبعة الكونية. أَطْلَعهم على رَدّة فعل فيرجين من مسألة إفناء البشر. شَرَحَ لهم مكنونات روحها قائلا: "إنَّها ما تزال تعتقد بِ أنَّ جنسها يفعلون الخير على الأرض، و أَنَّهم يسلكون سلوكا مسالما وعادلا مع بعضهم و مع الكائنات الأُخَر. عرفتُ من الذبذبات الصادرة من روحها، بعد سماعها لِ قرار الإفناء، بِ أَنَّها أُصيبَت بِ صدمة مزلزلة لِ أعماقها. إنَّها تنظر إلى الحياة بِ عيون الفراشات الملوَّنة و بِ براءة العصافير الصغيرة. هي الحاضنة الصحيحة و النقيَّة، و أَنَّنا اخترناها بِ دقَّة متناهية لِهذه المهمَّة الكونية. لكنَّها ليست جاهزة مئة بِ المئة، كما تبيَّنّ لي، و أنا أرى بأَنَّها بِحاجة لِخَلْوَة كونية تذهب فيها إلى أعماق العلاقات الأرضية بين جميع مكوِّناتها" جاءته الإشارات عبْرَ ومضات النجوم وحفيف أغصان الكويكبات السابحة في المحيط الأزرق النيللي. كان مضمون الإشارات مطابقة لِ ما كان، يفكِّر به. في الأثناء، أوعزَ إلى فيرجين لِ البدء في الخلوة الكونية، الرحلة الكونية نحو الأعماق. كانت فيرجين متَّكئة على كتل من السحب الفضية داخل الحقل المُحاط بِ النور السماوي. اخترَقَتِ الذبذبات الصادرة من المُجمَّع الربوبي جدار النور، غير المرئي، من حول فيرجين و لامَسَت خلايا دماغها. في الحال بدأتْ في التحرُّك و كأَنَّها استفاقت من غفوة عميقة. أَخَذَتِ النيزك القمعي، المليء بروائح العطور والخشخاش، بِ يدها و راحت تنظر إليه بِ خشوع. تنظر إلى لونه الأسود اللامع المرصَّع بِ حَبَّات الرمال البرّاقة. أَخَذت نَفَسا عميقا من محيطه الليلكي. طَفَقَتِ الروائح بالتدحرج من فوق بعضها نحو الأثير الكوني الذي يغمرها و يهدهدها فوق أمواجها الناعمة. راحت تستنشق العطور المُحَمَّلة بِ مؤثّرات تُدغْدِغُ العواطف، تُنَشِّطُ المشاعر و تثير الغرائز.

طَغَت الروائح على كيانها. صارت تتحرَّك و كَ أَنَّها ليست هي التي تُقَرِّرُ حركاتها. كانت و كَ أَنَّها امتصَّت الأرواح التي كانت هاجعة في بذورها، و كَ أَنَّ تلك الأرواح انسَلَّت إلى خلاياها و دخلت في دورتها الدموية. راحت أرواح الخشخاش تنزلق بين ثنيات دماغها، تتراقص فوق أهدابها. أخذَتْها في رحلة خيالية من وحْي جنّيات زهرة الأفيون الوردي الخماسي البتلات. هَرَبَ حرّاس الأحلام فور تغلغل عطر الخيال إلى معقل الدماغ المكبَّل بِ سلاسل العفاريت، هربَتِ الأشباح المنفلتة من جحيم الرمال الحارقة و الخزعبلات الغَيبية و الأساطير الخرافية.

مالَت بِ بطء و توسَّدَت غيمة قطنية طريّة، و راحت في خلوة كونية مغمضة العينين، مشرقة الوجه، منفرجة المبسم.

-3-

حكايات الذاكرة المشبَعة بِ عطر الخشخاش.

كانت فيرجين قد أَخَذت وضعية الجنين في حضن الغيمة الفضية. هكذا تكون أحلامها أجمل و خيالاتها أصدق. رأَتْ نفسها بين صديقاتها و أهلها و ملاعب طفولتها. هي فيرجين نفسها، لكنّها في هذه الدورة، هي ممتلئة بِ نعمة العطور والخشخاش الوردي. كانت تسمع الأحاديث التي تدور بين الصبايا، و كانت تشاركهنَّ في سَرْدِ القصص و الحكايات المرحة. كنَّ يجلسن على عتبات منازلهنَّ، و على كراس صغيرة من القش المَجْدول. يفعلنَ ذلك بُعيد الغروب في أغلب أيام الربيع و الصيف. كانت منازل البلدة متلاصقة بعضها بِ بعضها الآخر. إنها عبارة عن أحواش فيها بئر ماء زلال، و دالية عنب و شجرة توت أبيض، و بعض البيوت كان فيها شجرة توت أسود. طبعا معظم البيوت كان فيها شبه جنينة فيها أنواع مختلفة من النباتات العطرية و نباتات الزينة. كانت الجنينة تحتوي، بِ التأكيد، على الريحان و الياسمين و العسلية و الورد الجوري و نباتات و شُجيرات أُخرى. أغلب الأحواش كانت متصلة مع جيرانها بِ جدار ترابي على ارتفاعات متوسطة، بِ حيث كان بِ إمكان الجار التحدُّث مع جاره من خلال هذا الحائط الترابي. و إذا صَعَدَ على مكعبة من خشب أو حجر كان بِ إمكانه رؤية جاره و كلّ الذين يكونون في الحوش. حين كان أحد الجيران يأتي إلى منزله و يكون الباب الخارجي مقفلا، و لم يكن أحد أفراد الأسرة موجودا في المنزل، كان يذهب إلى منزل جاره الذي يفصل بينهما ذلك الحائط الترابي، و كان يقفز من فوقه إلى بيته. كانت الشوارع تقطع المنازل المتلاصقة كلّ مائة متر تقريبا.

في نهايات فصل الربيع وفي الصيف كان بعض العائلات من أهالي البلدة ينامون في الحوش على تخوت خشبية، و قسم آخر على أسطح منازلهم، و أحيانا كان بعضا من أفراد العائلة الواحدة ينام على السطح، والبعض الآخر في الحوش. و لِكَون البيوت متلاصقة بِ بعضها، فكان بِ إمكان أيّ فرد، إذا صعد إلى سطح منزل ما، أن يذهب من فوق الأساطيح إلى البيت الأخير و ينزل إلى الحوش، و من ثمَّ يخرج إلى الشارع.

وكان بِإمكان الجيران التحدُّث مع بعضهم من فوق أساطيحهم، و في أحيان كثيرة كانوا يسمعون وشوشات وهمسات بعضهم، و خاصة همهمات الأزواج. كان المجمَّع الربوبي قد كلَّفَ واحدا من بينهم لِمتابعة كلّ المجريات الأرضية التي تحدث مع فيرجين، وذلك من خلال انعكاس الحياة الأرضية، بِ الصوت والصورة، إلى حيث هي مضطجعة في الغيمة الفضية هناك في السماء. كان عفرُايل يدوّن كلَّ شاردة و واردة، حتى أنفاسها، في مَلَفٍّ خاصّ بها. كان يكتب على صفحات الغيوم و أحجار النيازك، بِ الإضافة إلى إرسال شرائط مسجَّلة على ذرات الكوارتز القمري، كَ تلك المفعمة بِ الحيوية، و التي تُعْرَضُ على الشاشات الصغيرة و الكبيرة، هناك، على الأرض.

كانت فيرجين قد امتلكت القدرة الفائقة، بِ فضل المعونة و النعمة التي حصلتْ عليها من المسك و العنبر و الأفيون الزهري. كان بِ إمكانها الغوص في أعماق صديقاتها، و أيّ إنسان آخر، والسفر، بِ سرعة الومضة، إلى مجاهل التاريخ والأصقاع المختلفة. وكانت تلك العطور قد ملأت نفسها و روحها بِ الخَدَر السديمي و النشوة الكلية. دَوَّنَ عفرُايل أحاديث الصبايا، اللاتي كانت فيرجين تجمع معهنَّ الأعشاب في المياه العذبة، حول اختفائها في ذلك اليوم. قالت لوسين، و هي ابنة خالتها، عن الحدث العجائبي الذي حصل مع فيرجين:"في ذلك اليوم الجميل، حيث كانت مياه النهر تُشعشع مع تموّجاتها الخفيفة، و كان الطقس ربيعيا إذْ كنّا في نهاية شهر نيسان. كنّا نجمع الأعشاب عند حافة النهر. نثرثر، نَقصُّ حكايات العشاق على مسامع بعضنا، و بعض الفتيات كُنّ يُدَنْدِنَّ أغاني الحُبِّ و اللوعة و الحرمان. كانت فيرجين تشاركنا في كلِّ شيء. لا أدري منذ كم من الوقت انقطعت فيرجين عن مشاركتنا في لهونا. إلاّ أنَّني انتبهت، فيما بعد، إلى أشياء غريبة تحدثُ بِ القربِ منّي. سمعتها تتحدّث بِ لغة لم أفهمها، ولم أرَ هؤلاء الذين تتحدَّث معهم. كانت تهمس و هي مغمضة العينين. بعد لحظات، فَتَحت عينيها ونظرَت إلى الأعلى. كانت الدهشة والرهبة ترسم سيماءها. في الأثناء سَقَطَت دمعتين من عينيها و انتشرَ نور من حولها، و راحت تختفي رويدا رويدا. حاولتُ الاقتراب منها لِ آآخذَ بِ يدها، إلاّ أنَّني لم أرَ سوى هالة من النور ترتفع إلى السماء، و لم أجدْها في المكان الذي كانت هي بِ قربي. ناديتها و صرتُ أُشير لِ الصبايا إلى كتلة النور المتصاعدة إلى السماء. أقول لهنَّ، و أنا بين البكاء و الدهشة، والخوف كان يربط لساني:"لقد طارت فيرجين! انظروا إنها تصعد إلى السماء! إنها موجودة في تلك الهالة النورانية. إنها تختفي عن أنظارنا. ها هي تختفي... لقد ضاعت في السماء... لقد اختفت!"

كانت الصبايا حائرات بين ما تقوله لوسين، و بين اختفاء فيرجين. رفَعْنَ أنظارهنَّ نحو

السماء لِ رؤيتها و هي تصعد، كما تقول لوسين، فَ لم يرين سوى لمعة الشمس فوق رؤسهنَّ. صرْنَ ينظرنَ إلى بعضهنَّ و علامات الدهشة و السؤال على وجوههنَّ. راحت لوسين تُلَملمُ فستانها و أغراضها الشخصية استعدادا لِ العودة إلى البيت. كانت تبكي بِ مرارة و تُرَدِّدَ اسم ابنة خالتها، وبين الفَينة و الأُخرى كانت تنظر إلى السماء حيث اختفت فيرجين. في الأثناء، راحت صديقاتها يهدِّئنها، و طلبنَ منها أنْ تنتظرهنَّ لِ مرافقتها إلى بيوتهنَّ. أَخذّ الوقت منهنَّ قرابة الساعة و ربع الساعة، بين تجميع حاجاتهنَّ و ضَبْضَبة سلالهنَّ، لِ الوصول إلى البلدة. حين عدْنَ إلى بيوتهنَّ، كانت أخبار الحدث قد سبقتهنَّ إلى البلدة. لكن الذي حصل هو أنَّ فيرجين أمْضَت قرابة ثلاث ثوان من الزمن الفلكي هناك، في فراغات الكون اللامتناه، و أنَّها عادت إلى بيتها قبل عودة الصبايا من النهر إلى بيوتهنّ. أسرَعَت لوسين إلى خالتها، و هي بين البكاء والفزع، لِ تخبرها عمّا حدثَ مع فيرجين. عند باب الدار استقبلتها فيرجين، وفي الحال أَظْلَمَتِ الدنيا و راحت لوسين تميل، فاقدة قواها. في الأثناء لَحقتها ابنة خالتها، قبل أن يَغمى عليها. أَمسكَت بها واَجْلَسَتها، بِ رفقٍ، على الأرض أمام باب الدار. طلبت من أمها أن تأتي و معها كوبا من الماء، و في الحال راحت أمها ترشُّ الماء على وجه لوسين و تُكَفْكِفُ على وجهها إلى أن عادت إلى وعيها. نَظَرَت لوسين إلى فيرجين بِ دهشة، و أخذتها حالة من الهستيريا. راحت تبكي و تضحك. تعانق ابنة خالتها، تقبّلها، تَضمّها إلى صدرها، تَنظر إلى وجهها و عيونها و تُعاود تقبيلها. هكذا إلى أنْ هَدَأت.

– ما بكِ يا لوسي(لوسين)؟ تعالي يا ابنتي إلى الداخل! قالت خالتها.
دخلوا إلى الدار. جلسوا على كراسٍ دون ظهر، مصنوعة من جدايل القصب النهري. استفاقت لوسي من الغيبوبة، لكنها لم تَزَلْ مصدومة من الحدث الذي شهدته هناك في النهر. مظاهر الدهشة و الصدمة لا زالتْ مرسومة، بِ وضوح، على وجهها. راحَت تنظر، مُجَدَّدا، إلى ابنة خالتها، و في هذه المرة أَخّذت يدها بين يديها.

– ماذا حصلَ معكِ يا فيرجين حين كُنّا نجمع الأعشاب، معا، في النهر؟
لقد سمعتكِ تتحدَّثين مع قومٍ لم أرَهم. ثمَّ رأيتكِ تصعدين إلى الأعلى، و حين ارتفعتِ فوقنا، ما عدْتُ رأيتُ سوى كتلة من النور ترتفع إلى السماء. تأكَّدتُ من ذلك، لأنَّكِ اختفيتِ من المكان أختفاءا تامّا.
ضحكتْ فيرجين من حكاية ابنة خالتها، و قالتْ في استغراب: ماذا تقولين يا لوسي؟! أنا كنتُ معكم. كنتُ بِ جِواركم ألتقط الأعشاب مثلكم. لكنني سبقتكم في الذهاب إلى

البيت. هذا الذي حصلَ. إنَّها لم تكذب، كما أنَّها لم تنفِ رواية ابنة خالتها. لم تُعَلِّق لوسين على كلامها. يبدو أنَّ الأمرَ قد اختلط عليها.

تركتهما أُمُّ فيرجين لِ وحدهما بِ سبب انشغالها بِ أمور المنزل. دخلتْ فيرجين إلى غرفتها عَدَّلت من هندامها و شعرها و أخذت حقيبتها الأثيرة على قلبها. كانت تُحِبُّها رغمَ بساطتها، فَ هي من قماش الكتّان الأسود، عليها نقشة لِ وردة حمراء تخرج من أرضية خضراء فيها براعم صفراء محاطة بِ بتلات بيضاء ناعمة. و على الجانب الآخر نقشة فراشتين متقابلتين تطيران فوق شِفاه زنابق بيضاء تحت زرقة السماء الصافية. جلَسَت بِ جانب ابنة خالتها و لَكَزَتْ كتفها قائلة:

– تعالي يا لوسي لِ نتحدَّث عن أحلامنا، ذكرياتنا، لقاءاتنا السريّة بِ الشباب وعن مغامراتنا العاطفية! هيّا إلى الأسرار، إلى الأحلام و الذكريات!

ابتسمت لوسي و أَخْفَضَت رأسها قليلا. ظهرت علامات الخجل على وجهها. اكتفت بِ الدمدمة مع ابتسامة جميلة وكأنَّها كانت ترغب في الدخول إلى عوالم الغرام و المراهقة الوردية. أَخَذَت فيرجين المبادرة ومَضَتْ في التَحَدُّث عن المغامرات، أو بِالأحرى، عن اللهو الصبياني بين الفتيان و الفتيات في أزقَّة الحارات و الزوايا الداخلية في الأحواش و الغرف الطرفية في البيوت الكبيرة. كانتا تبتسمان عند نهاية سَرْدِ كلِّ مغامرة بريئة جَرَتْ معهما في الأيام الخوالي. كانت خدودهما تتورَّد و السعادة تَشعُّ من عيونهما. كانتا تتحدَّثان عن المواقف العفوية التي كانت الواحدة منهنَّ قد تعرَّضَت لها، و كانت تتقصَّد الدخول في تفاصيل الحدث. أتَذَكَّر، قالت فيرجين، لعبة الغمّيضة التي كُنّا نلعبها من ضمن ألعاب طفولتنا. في هذه اللعبة يضعُ أحدهم جبهته و وجهه على ساعده المُسْنَد إلى الحائط بِ حيث لا يرى أحدا من الآخرين، أيْ يكون قد أغمض عينيه و يبدأ يَعدُّ إلى رقم يُتَّفَقُ عليه مثلا (مِنْ واحد إلى 20أو 30 ..) يكون ذلك بِ قَصْد إفساح المجال لِ اختباء الآخرين. الحائط الذي أسندَ جبهته عليه هو الهدف (الحَلّة) الذي عليه أنْ يحميه و يمنع وصول أيّ أحدٍ من هؤلاء إليه و ملامسته. إنَّه حارس الحَلّة (الهدف). خلال الزمن الذي يستغرق العَد يكون الآخرون قد تفرَّقوا و اختبأوا في أماكن مختلفة. عند انتهاء العَد يَفْتَحُ عينيه و يبدأ بِ البحث عنهم و بِ حماية الحلّة (الهدف)، في الوقت نفسه. وإذا أمسكَ بأحد هؤلاء المختبئين، حينها يتحَرَّر هو من حِراسة الحلَّة، وتنتقل الحراسة إلى الذي تَمَّ الإمساك به.

فَ في إحدى الأمسيات الصيفية، تقول فيرجين، حيث كنّا، نحن و الأولاد الذكور، نلعب لعبة الغمّيضة في الحارة و كان الوقت بعد الغروب بِ قليل. كان غوكاس هو حارس الحلّة، و كُنّا قد اختبأنا أثناء العَد. كنتُ قد اختبأتُ في البيت المقابل لِ الحلّة،

إلى يمينها بِ مترين أو ثلاثة أمتار، اختبأتُ خلف الباب الخشبي لِ المدخل الرئيس لِ الحوش. الآخرون، هم أيضا، كانوا قد لجأوا إلى البيوت المجاورة و إلى عَوْجات الشوارع و خلف العربيات و كومات الآتربة الموضوعة بِ جانب أبواب المنازل. بعد الانتهاء من العَدّ، شَرَع غوكاس في البحث عنّا. كان حَذِرا أثناء بحثه، لم يبتعد كثيرا عن الحلّة. أمّا إذا تأكَّدَ من مكمن أحدنا، فكان يركض إليه لِ الإمساك به. رأيته من فرْجة الباب و هو ينظر إلى البيت المقابل لِ البيت الذي أختبئ فيه، البيت الذي تقع الحلّة على حائطه. ألقى نظرة سريعة إلى الحوش و عاد إلى مكانه. مشى إلى يسار الحلّة، إلى ناصية الشارع مَدَّ رأسه إلى زاوية الشارع مستكشفا جهتيّ الشارع. تقدَّمَ إلى البيت الذي أختبئ فيه. وقفَ أمام الباب لِ الدخول و التفتيش، إلاّ أنَّه سمعَ صوت أحدهم فَ أسرع إلى حماية الحلّة. في الأثناء غيَّرْتُ مكاني و ذهبتُ إلى يسار البئر، حيث فسحة طَرَفيّة خلف حظيرة الأبقار، فيها تنقر الدجاجات لِ التقاط الحبوب و الديدان. خافَتِ الدجاجات حين فاجأتها و بدأت بِ النقنقة و تغيير أماكنها بِ شكل فوضوي. أسنَدتُ ظهري إلى الحائط و كتمتُ نَفَسي. بقيتُ هكذا لِ دقائق معدودات، و فجأة رأيت غوكاس يمشي بِ بطء إلى يمين البئر و ينظر إلى خلف شجرة التوت المواجهة لِ المكان الذي أختبئ فيه. في الأثناء قَرْفَصتُ بِ هدوء و أصبحت خلف البئر تماما. أمّا غوكاس، فَ اتجه نحوي دون أنْ يعرف مكاني، لكنَّه كان قد شَكَّ بِ وجود أحدنا هنا في هذا المنزل، وأعتقد أنَّ ضجيج الدجاجات ونقيقها كانت هي السبب في اكتشافه لِ مخبأي. صار يمشي إلى البئر و هو يقول، بِ صوت مسموع كَ نوع من الخدعة، يَلاّ اطلَعْ شفْتُك (رأيتك) يَلاّ... يَلاّ اطلَعْ. أمّا أنا فَ رحتُ أُلْصِقُ نفسي بِ الحائط. تجاوز البئر بِ اتجاه الحظيرة، أصبَحَ في حدودي مما جعلَ الدجاجات تقفزُ و تهرب من أمامه، و حين التفت إلى الدجاجات الهاربة منه، وقَعَ بَصَره عليَّ و في الحال ركضَ و هو يصرخ ضاحكا مَسَكْتُكِ... أين سَتهربين!؟ و لمّا حاولت الهرب منه إلى الحلّة، كان هو أَسْرَع منّي و هجمَ عليَّ ليمسكني، إلاّ أنَّنا وقعنا معا على الأرض. وقَعْتُ على ظهري وهو وقعَ على بطني مباشرة. لامَسَت شفتيَّ خَدَّه الأيمن. كان طريّا ناعما. أدار وجهه لِ ينظر في عينيَّ، و في هذه اللحظة تلامست شفاهنا و هدأتْ حركاتنا. شَعَرتُ بِ إحساس غريب، شعرتُ و كأنّي مستلقية في حديقة مزدانة بِ الورود و الأزهار، و أطياف الألوان تُزَيّن أعناق الوردات و الشجيرات الملوَّنة. كنتُ أرى النجوم تشعشعُ و تتراقص في السماء فوق رأسي. ولا أدري كيف تشابكت شفاهنا، وكيف علقتْ بِ بعضها. كانت أنفاسه منعشة و طعم شفاهه لذيذ لا يشبه أيّ طعم في الوجود. فجأة دفعته من فوق صدري. كنتُ أرتجف خجَلا، أو ربَّما خوفا. كان، هو

الآخر ،مرتبكا لكنه لم ينسَ بأنْه قد أمسكني وأنَّ حِراسة الحلّة قد انتقلت إليَّ. خرجنا إلى الشارع وهو يمسكني من يدي ويعلن لِلأولاد بِ أنَّ حِراسة الحَلّة أصبحت على فيرجين. كُنّا صِغارا يا لوسي. لم أكن أتجاوز العاشرة من عمري. كُنّا أنا و أنتِ قد انتقلنا إلى الصف الخامس في الموسم الدراسي الجديد في نفس السنة التي اتحدَّث عن الذي حصل، بِ الصدفة، بيني و بين غوكاس. إنكِ تعرفينه! ذلك الولد الذي كان في صفِّنا. كان يجلس في المقعد المحاذي لِ مقعدنا. أَلا تتذكَّرينه؟ كان كل مقعد يَتَّسِعْ لِ ثلاثة تلاميذ، هو كان يجلس في رأس المقعد من طَرَفنا. غوكاس الذي كنّا قد حَوَّرنا اسمه إلى لوكاس وكُنّا نناديه بهذا الاسم لوكاس. كانت لوسي تستمع إليها بِ كلِّ جوارحها، و ظَهَرَتْ عليها علامات الإثارة و الشوق لِ تلك اللحظات العاطفية الحميمية البريئة التي كانت تواجههم من غير تخطيط أو تبييت لها. كانت تلك اللقاءات القَدَرية تشعل حواسهم، عواطفهم و غرائزهم السطحية البسيطة. كان الأولاد الذكور يستعرضون كلَّ إمكاناتهم الجسدية و مهاراتهم الفنية و العاطفية لِ لَفْتِ انتباه البنات إليهم. كان الولد يسعى لِأنْ يكون مثار إعجاب و اهتمام البنات. كَ أنْ يتسلَّق الأشجار أو يقوم بِ أداء حركات بهلوانية أو يصطاد أفاعي من النهر القريب، والتي أغلبها تكون غير سامّة، و يستعرضها في تجمُّعاتهم، وخاصة عندما تكون البنات موجودات بينهم. وعلى الأغلب يكون الولد مأخوذا بِ سحْرِ إحداهنَّ. كان قلَّة من الأولاد يتمتَّعون بِ مواهب أرقى، كَ موهبة الغناء، أو العزف على آلة موسيقية، أو حفظ الشعر و إلقائه. كان الولد الذي يتمتَّع بِ تلك المواهب، تراه يقوم بِ استعراض مهارة الغناء، أو إلقاء الشعر على مسامعهم، طبعا كان ذلك مشروطا بِ وجود الفتاة، التي في باله، بينهم.

– و هل استمرَّت علاقتكما، أقصد حبّكما أنتِ و لوكاس، طويلا؟ قالت لوسي

– في ذلك الزمان، أي في أعمارنا الصغيرة تلك، لم نكن نعرف ماذا يعني الحُبّ. أمّا في حالتنا، أنا ولوكاس، فَ كانت هناك أعراض واختلاجات تنتابني في غياب لوكاس و أيضا في حضوره. كنتُ أشتاق إليه، إلى خدوده التي كانت تتوَرَّد بعد اللعب. أشتاق إلى عيونه الكحلى التي يشعُّ الحنان و الجمال منها، إلى شفتيه الخمريتين و ضحكته الجميلة. كان يأتي إلى شارعنا، حيث نكون مجتمعين عند ناصيته قُرْبَ حيطان البيوت. عندئذ كنتُ أنجذبُ إليه، و دون أنْ أنتبه لِ أيِّ شيء أو أيِّ أحد، كنتُ أجد نفسي بِ جانبه. و إذا ما بدأنا في اللعب، كنتُ ألعب معه و قلبي ممتلئ بِ الفرح. كنتُ أرى كلَّ شيء جميلا و كلّ الأولاد طيّبين. لم أكن أعرف من الحزن شيئا، أو الزعل أو الغضب. فَ الحياة بِ كلِّ مفرداتها كانت ملوَّنة أمام عيوني و في روحي.

كنتُ أشعر بِ قشعريرة تجتاح كياني عندما كنتُ أراه و عندما كنتُ أتكلَّم معه. كنّا نتقصَّد، أثناء اللعب، أنْ نمسكَ أيدي بعضنا، و أنْ نلمس خدود بعضنا. و حين يكون الآخرون بعيدين، كنّا نتعانق، أو كُنّا نضعُ سواعدنا على أكتاف بعضنا، و أحيانا كان يَضمّني إلى حضنه. كنتُ أشعر بِ سعادة غامرة و كَ انَّني أطير كما الفراشات. في المساءات التي لم يكن موجودا بيننا، كنتُ أتَقَصَد ذكر اسمه في أحاديثنا و كان ذلك كافيا لِ أنْ يتغيَّر مجرى الأحاديث، ويبدأ الحديث يدور حوله. و كلَّما كان يُذكرُ اسمه، كنتُ أطير من الفرح و كانت روحي ترقص بين ضلوعي. لقد غاب عن البلدة بُعيد نموِّ الزغب في ذقنه وتَغيُّر رنين صوته نحو الخشونة. كان قد بدأ بالخجل و الارتباك عند رؤيتي في الحارة. كانت أنظارنا تتراقص فيما بيننا عند اللقاء، و كنّا قد تناولنا القربان المقدَّس من بين شفاهنا الملتهبة .

– كنتُ أَشكُّ في لقاءاتكما في الحارة، قالت لوسي و هي تغمز من طرف عينها. لقد رأيتكِ، ذات مَرَّة، تأخذين قُصاصات من الأوراق منه. هل كانت رسائل غرامية يا فيرجين؟

– كان لوكاس ينظر إلى عيوني مطوَّلا. أمّا أنا فَ كنتُ أتجَذَّرُ في مكاني ناظرا إلى عينيه، خدَّيه، فمه و شحمة أذنيه. كان يُبحِرُ في عيوني، كنتُ أشعر بِ اختراق إشعاعات ملوَّنة في كياني. كانت الابتسامة تَسيلُ من شفتيَّ. يذهب في أعماق عيوني و كَ أنَّه يغوص في محيط ازرق هادئ. يأخذ جفوني شراعا في إبحاره إلى أقاصي المياه. كان يبحرُ إلى أنْ يَفْلَتَ من القيود و الجاذبيات في ذروة وَجْدِه، و يصير جزءا من موجات الأعماق حيث تَعْكسُ ألوان أخْيلة الشمس إلى الفضاءات المائية و فراغات السديم الكوني. في الأثناء، كان يتمتمُ كلمات لا تنتمي إلى لغات الأرض. بعدَ بضْع دقائق من تواصله مع الأرواح الكونية، كان يبدأ بِ الحديث، و هو غارق في الطيف الصادر من عيوني، و كَ انَّه يُلقي كلمة على مسامع جمهور حاشد. كان يتلو كلماته، و كأنَّه يلقي أبيات شعر إليَّ. اسمعي بعضا من التي حفظتها عنه في ذلك الزمان:!

مبتدأ الحُبِّ أنتِ يا عشق الروح، و نبض القلب

من البحر صَعَدْتِ كَ طيف الله–

في بدايات الخلق

كنتِ الهواءَ الذي داعب أديمَ الأرض

امممم.....مممم.... لم تَعُدْ تتذكَر الأبيات التالية. فتحت الحقيبة التي كانت في حِجْرها و أخْرَجَت بعض الأوراق منها. التفتت إلى ابنة خالتها و طلبت منها الاستماع إليها، و راحت تقرأ من تلك الأوراق التي صارت في يدها

------ ------ ------.

أخْرَجتِ الحياة من القاع

نَفَختِ في اليَباب من روحك–

لِ يرقصَ العشبُ فوق جذره

و يشرئبَّ الصنوبرُ فوق جذعه

وضَعْتِ لحنا جميلا فوق سلالمَ من حرير

علامة تحتضن علامة، و علامة ترفع علامة

رحتِ عميقا في ترتيلة الحبِّ

كنتِ الهواءَ و ضوءَ الشمس في ظلمة الكهوف

كنتِ الكلمة الأولى في التكوين

انصهرتِ في آتون الكواكب المتصادمة–

في جوف الله و مآقيه الدامعة.

طنين الله أنتِ في فضاءاتنا الملتهبة

الوتر السابع في آلته الكونية

أنتِ السلَّم الذي يقرأه في معزوفاته الليلية

قيثارته أنتِ، و كلُّ آلاته الموسيقية

لا بل أنتِ موسيقاه و ألحانه الرقيقة

أنتِ الكلمة التي أبحث عنها

الصورة المختزنة في خيالي

معاً حَدَّدنا تضاريس أجسادنا الطرية ....

....

– ما أجملَ هذا الكلام! إنَّه، حقيقةً، كان شاعرا يا ابنة خالتي! قالت لوسي، ثمَّ تابعت الحديث عن الشعر الذي سَمِعَتْه من فيرجين: واضح من هذه اللوحات البديعة بِ اَنَّه كان شَغَّافا فنّانا مبدعا. إنَّه يرسم الطبيعة و الحُبَّ و الأنثى بِ كلمات متشابكة مدروزة في مشاهد خَلاّبة تبعث القشعريرة في الأبدان و الارتعاش في الأرواح.

– بعدَ المرحلة الابتدائية، صار يتردَّدُ على مكتبة المدرسة، و من ثمَّ مكتبة الدَيْر. لم يكتفِ بهما، فَ راحَ ينهلُ الشعر و الفلسفة و اللاهوت من حكيم البلدة. لوكاس كان كتلة من الأحاسيس المرهفة، خجولا، غريبا، أو بِ الأحرى، كان مختلفا في كلِّ شيء. في العلم، في الأدب، في الحُبِّ، في التراث، العادات، العِبادات و اللاهوت. كان يتابع ابداعات الشعراء و الكتّاب و الفنانين. كان يكتشف المبدعين الأُميين، أو بِ الأحرى، الحالمين الأنقياء الفلاسفة المَرْميين المهمَلين، يكتشف هؤلاء بِ فراسته، يدخل إلى أعماقهم، يتابعهم في الشوارع، في الحارات، في الأسواق و على نواصي الطرقات. حَدَّثني أكثر من مرة عن نماذج بسيطة لم تلفت انتباه الآخرين، شخصيات دائمة الحضور في أرجاء البلدة، يمرُّ المرء بهم، بِ جوارهم، من أمامهم، يوميا دون أن يلفتوا انتباهه إليهم. هؤلاء كانوا من مفردات البلدة، كأشجارها،أبقارها، حناتيرها ومنازلها، كما كان يقول لوكاس. من بين هؤلاء كان يأتي على ذكر اسم شاوول الآشوري، سليمان خانمِ المحلَّمي، أحمدكِ الدرويش الكردي و آخرين غيرهم. القاسم المشترك بين هؤلاء كان عَرَق البطة البيضا، و أحاديثهم الغريبة وشخصياتهم المسالمة. كان شاوول قد رسمَ له تخوما واضحة في البلدة، إذْ أنَّه كان يَلفُّ في أزقّة السوق الصناعية بين السيارات، الشاحنات، الجرارات و الديسكات الزراعية. كانت بطحة العرق في الجيب الخلفي لِ بنطاله، أمّا عندما يكون الطقس باردا و يكون مرتديا الجاكيت فَ كانت البطحة في جيب الجاكيت من الداخل. لم يكن يتحدَّث مع أحد من الموجودين في السوق، المعلّمين، الأجراء، الزبائن، أصحاب الدكاكين و الباعة المتجوّلين. ملامح وجهه كانت قاسية، كانت تعكس الحزن المخزون في داخله، أو كانت تُعَبِّر عن تمرُّده و رفضه لِ القِيَم الاجتماعية و لِ الميزان السماوي. نادرا ما كان يردُّ السلام على الأشخاص الذين يُسلِّمون عليه. شاوول هذا كان اسمرا، و سماره كان غامقا مشوبّا تحت حرارة الشمس. كان طوله معتدلا يميل إلى النحافة، ربَّما يكون بِ سبب نظامه الغذائي غير الصحّي. إنَّه من آشوريي أُروك الذين نجوا من المجازر التي تعرَّضوا لها

على أيدي هؤلاء الهمج المخالفين لهم في العقيدة و القومية. كان يحمل مستلزمات العَرَق في جيوبه. كان يُفَكِّر بِ صوت مرتفع، و مونولوجه، أيضا، كان يتمُّ بِ صوت مرتفع. لم يكن يلتفت إلى أحد حين كان يتحدَّث مع نفسه. من جملة ما سمعته، يقول لوكاس، إنَّه كان يقول:"أنا هو زوجكِ يا سيدوري، أنا هو الإله المطرود من عرشه. إنَّ الشيطان يلاحقني يمنعني من الوصول إليكِ، يريد قتلي كما قتلَ أولادنا، لكنَّني أنا هو الإله، زوجكِ، الذي سَ يُخرِجُ العشبة من جوف الأفعى. انتظريني يا حبيبتي أنا قادم إليكِ لا مَحال." كان يلقي كلماته بِ أسلوب خطابيّ فخم و هو ينظر إلى البعيد، و كان يُدندنُ كلمات أغنية آشورية حزينة، وكان ينزوي خلف دكان أو آلة زراعية و يبكي بِمرارة دون صوت، يبكي بكاءا مختنقا. كان يلقي أشعارا بِ العربية و الآشورية، و في كثير من الأحيان كان يلقي خطابات، أو ما يشبه محاضرات فلسفية و لاهوتية. أهل السوق لم يكونوا يفهمون ما يقوله شاوول. كانوا يعتبرونه نصف مجنون سكّير، و كان قد أصبح لوحة جوّالة متنقِّلة في السوق. ذات مرّة كنتُ أمشي بطيئا إلى جانبه، و من حُسْنِ حظّي أنَّه لم يهتم لِ أمري، أو لِ وجودي إلى جانبه، و أعتقد بِ أنَّ السبب كان يكمن في أنَّني كنتُ فتا، و ربَّما لأنّني، كنتُ أبدو صغيرا في نظره، لذلك لم يتأثر من وجودي بقُرْبه. سمعتُه يقول:"لماذا قتلتَ استير يا آشور؟!... قلتُ لكَ اتركهم هناك في بلادهم، قلتُ لكَ لا تجلبهم إلى دارك، لا تُدْخلهم إلى بيتكَ،لا تعطِهم أسرار إلهكَ ... أنتَ أحمق يا آشور!" أَخرجَ بطحة العرق من جيبه الخلفي و مَجَّ رشفة منها ثمَّ سَدَّها بِ الفلينة و أعادها إلى جيبه و مسَحَ عينيه. كنتُ أُلاحظ تعابير وجهه، بعد الشفّة التي يأخذها من البطحة، كيف كانت تتجعلك، كان كَ مَن ذاق شيئا مرّا، لكن كانت تعابيره تعود إلى حالتها الطبيعية بعد أن يُخرجَ شيئا من جيبه الجانبي و يضعه في فمه، ربَّما يكون حبَّة فستق عَبيد أو حَبّة لوزيّة خضراء. كنتُ أتَقصَّدُ السير إلى جانبه، أي بِ مقربة منه، و كنتُ قد حصلتُ على الأمان من رَدَّة فعله تجاه وجودي في حدوده، و يبدو أنَّه ألفَ حضوري في عالمه الروحي، طبعا كان ذلك مدعاة لِ سروري. و في أحد أيام الربيع كنتُ أمشي مع ظلِّه، كنتُ أَبدو كَ جنديّ يمشي خلف قائده. كان يمشي كما الجنود، كما ضابط أركان حرب. كان مشدود الظهر في مشيته، مرفوع الهامة، نظراته قاسية كنظرات النسور، كنظرات أخيل، تخترق السُحب الربيعية. كان الوقت قبل الظهيرة بثلاثين درجة شمسية. مَرَرْنا بِ عدَّة دكاكين ذات مهن مختلفة و فجأة توقَّفَ أمام دكان كان المعلّم قد وضع قضيبا مكعبا من الحديد في الكير، حيث النار تتوهَّج جرّاء النفخ عليها بواسطة منفاخ يدويّ يشغِّله أجير دخلَ المراهقة حديثا، كما هو واضح من الزغب التي أخذت اللون الأسود على ذقنه. راح يتأمَّل ألسنة النيران

المتوهّجة، و مضى في غيبوبة و عيناه مثبتتان في النار المستعرة في الكير. سمعته يقول: "اظهرْ من قلب النار يا جبان! إنَّني أراك داخل ثوبك الملتهب، اخلعْ عنكَ عباءتكَ المتوهّجة و اعتمر كوفيَّتك الدائريّة، فَ أنا أريد التحدُّثَ معكَ! أنا من سلالة هؤلاء الذين حاولوا إطفاءكَ، هؤلاء الذين أحرقتَ بلادهم، هَدَمْتَ منازلهم، بيوتهم، قصورهم، معابدهم و آلهتهم. قُلْ لي! هل كنتَ تريد عشتار زوجة لكَ؟ سَ أُطفِؤكَ كما أطفأتَ النور في عيون أطفال أوروك!" كان المعلّم، صاحب الدكان، ينظر إليه و الابتسامة بادية على وجهه، طبعا دون أن يفهم ما كان يقوله. كان يعتبر هذا المشهد واحدا من فصوله المسلّية، و راح يتحدَّث معه، طبعا كان يعتبره مهبولا نصف مجنون، قائلا: يبدو أنَّكَ تحبُّ النار يا شاوول! أراك تتحدَّثَ معها، و هل حصلتَ على إجابة منها على كلامكَ؟ أجابه شاوول، دون أنْ ينظر إليه، قائلا: لقد طلبَ منّي شَفَّة عرق، و أخرجَ البطحة من جيبه و تقدَّم نحو الكير، سكبَ قليلا من العرق على النار و أَخذَ هو أيضا شَفَّة منه، ثمَّ أضاف قائلا:"سَيكون عملكَ ناجحا بعد أن يسكر الإله الجالس داخل النار لأنَّه سَ يجعل الحديد مطواعا يأخذ الشكل الذي تريده". هنا انفجر المعلّم ضاحكا و شكره على نبؤته بِ خصوص عمله. كان لوكاس، بعد أن يعودَ إلى البيت، يُسَجِّل الجُمَلَ التي فيها أسماء وعبارات غامضة، والصوَر التي تحمل في طيّاتها ألغازا لا يعرف مضامينها أو حلولها سوى قائلها. كان يفعل ذلك مع ما كان يسمعه من هؤلاء المجانين(الحالمين). كان يكتب و يراجع ما يقولونه. كان يفعل ذلك مع أَحْمَدْكِه أيضا، يُسجِّلُ ما يتلقَّفه منه، من أَحمدكِ (Ahmdke) الدرويش. إنَّه أحمد الإنسان المسالم الملاك. أحمد الذي اكتسب هذه الصفة (الدرويش) من الأهالي، و التي كانت تعني، في وجدانهم، الطيِّب المحبوب المسالم الشريف النزيه. رأه لوكاس، لِلمرَّة الأولى، على ناصية خمّارة ميشو الكلداني حين كان في جولة استكشافية إلى السوق، إلى منطقة السينمات و السوق الصناعية–مملكة شاوول–، حيث الناس هناك تَعْرِضُ مواهبها و بعضا منهم يطرح ما بداخله إلى العلن، هكذا من دون مقدِّمات، أو من دون طلب من أحد. هناك تجد المعتوه، نصف المجنون، المحتال، المحشِّش، المجرم، الصوفي، الفيلسوف و الأديب...إلخ.

عند خمّارة ميشو، يقول لوكاس، سمعت أحدهم يقول:"لا تنقل كلاما سمعتَه من صديقك بِ حَقّ قريبكَ. تخلَّص من خيالكَ (ظلّكَ)، فَ الشرُّ كامن فيه. اشربْ ماء الحياة، فَ هو طريق الحبِّ و الخير". أبطأتُ السير حين سمعتُ الجملة الأُلى التي نطقَ بها، و صرت أمشي بِ تَمهُّل، و على ناصية الشارع المقابل له وقفتُ و التفتُّ بِ اتجاهه. رأيتُ شابا في العقد الثالث من عمره. كان جالسا على الرصيف مسندا

ظهره إلى حائط خمّارة الكلداني ميشو، و كان قد فرشَ بضع جرائد أمامه، و وضعَ فوقها كمشة من الموالح وعددا من أوراق الخَسِّ البلدي الطازج و نصفُ ليمونة صفراء مع أربع شرائح من الجزر الكحلي. و كانت سندويشة مكشوفة المحتويات على وجه الخبز الحلبي، على الأغلب كانت شرائح من الطحالات و بهلول من الكباب، و بِ التأكيد تكون هدية من المعلّم ميشو صاحب الخمّارة الرائعة، و ميشو نفسه كان إنسانا مُحلِّقا، كان نديم أحمدكِه الدرويش و مصدر المازيات و العرق. كان ميشو نقيّا، أمينا و كريما في تقديم طلبات زبائنه، و كان لطيفا و كريما مع أحمدكِه الدرويش. علقتْ صورته في خيالي و انطبعت كلماته في ذهني. تابعت طريقي، بعد هذه المفاجأة، دون هدف محدَّد. ودَدْتُ التعرَّف إليه، التحدُّثَ معه. في اليوم التالي، و تقريبا في نفس التوقيت، مرَررْتُ من هناك، من جانب خمّارة ميشو على أمل أنْ ألتقي، أو بِالأحرى، أن أراه في مكانه الذي كانه بِ الأمس، و كنتُ قد وضعتُ أو رسمتُ خطَّة مُحْكَمة لِ اللقاء به و ثمَّ الدخول معه في أحاديث ودردشات كلام و ما إلى ذلك. عند اقترابي من المكان، بدأتُ بِ التمهُّل و صرتُ أمشي بِ بطء، و عند ناصية الشارع الذي يجلس (في عَوْجَته اليمنى) إلى يمينه أعطيتُه حاسة السمع بِ الكامل، و عندها تناهى صوته إلى مسامعي، سمعته، و أنا أَجتاز الشارع بِ بطء شديد، يقول:"لا تهرب من أحلامكَ (مناماتكَ)! لا تغلق على نفسك حين تنام! اترك الشبّاك مفتوحا لأنَّ حلمكَ سَ يأخذكَ إلى الخارج". وقفتُ على ناصية الشارع، كما في المرّة السابقة، أنظر إليه. رأيته منشغلا بِ ترتيب طاولته البسيطة، و في هذه المرَّة رأيته يرشف العرق من بطحته الحليبية. إنَّه يُجَهِّزُ العرق في البطحة و ذلك بِ مَزْجه مع الماء البارد الذي يحوِّلُ العرق إلى اللون الأبيض الحليبي. تابعتُ طريقي بِ اتجاه سينما حَدّاد و من ثمَّ واصلتُ السير بِ اتجاه سينما شهرزاد الصيفي المكشوف (دون سقف) و التي تقع فوق المركز الثقافي. لم أُضَيِّع الوقت كثيرا. عدتُ أدراجي حيث أحمدكِ الدرويش. ذهبتُ إليه مباشرة، لكن بِ بطء، وقفتُ إلى جانبه. رفع رأسه و نظر إليَّ بابتسامة رقيقة وأَشَّرَ لي بِ الجلوس، أو بِ الأحرى القعود، إلى جانبه مع ترحيبه بِ الجملة المعهودة "أهلين خالو". كان أحمد يقول لِ الجميع، الصغير و الكبير، خالو.

– صباح الخير أحمد. ألقَيتُ عليه سلام الصباح.

– أهلين خالو، سَرْ سَرِمن (على راسي، بِ الكردية).

قعدتُ على الرصيف بِ القرب منه. قَدَّمَ البطحة إليَّ و طلب منّي أنْ أشرب منها، و كان قد جَهَّزَ، في يده اليسرى، حبتين من الفستق وشريحة من الجزر الكحلي لِ يُقدِّمها

لي بعد أن أرتشف من ماء الحياة، كما كان يقول عن العرق. كانت تلك قعدة التعارف التي أَسَّسَتْ لِ الصداقة العميقة التي ربطتني به. كان أحمدكِه إنسانا كونيّا. كان قد تجاوز الانتماءات، الولاءات، العقائد و الأديان. أَذكرُ ذات مرَّة حين كنّا قاعدين على رصيفه مسندين ظهورنا إلى حائط الخمّارة المقدَّسة، خمّارة ميشو الكلداني، و لا أدري كيف ذهب الكلام، أو بِ الأحرى كيف انفلتَ الكلام، إلى مسألة الدين والقومية، أذكر تماما كلامه بِهذا الخصوص إذْ قال:" خالو أنا لا أرى زوائد مُعلَّقة في وجهك، يديك، رجليك و جسدكَ. لا أرى في شكلك شيئا زائدا أو ناقصا عن شكلي. أراك من خلال عيونك، كلامك، أخلاقك و تصرّفاتك مع الناس. أمّا تلك الشراشيب و الزوائد فَ أنا لا أراها. ياخالو هذا المبارك(أشار إلى بطحة العرق) يغسل العيون و يُنَظِّف الجَوّ و يرمي بِالزوائد العالقة بنا في التنّور"وفي الأثناء قَدَّمَ البطحة إليَّ قائلا:"اشربْ ياخالو بصحّتنا" هذه كانت رؤيته لِ تلك المسائل. إنَّه لم يكن يحسبُ حسابا لِ الزوائد (الشراشيب) المعلَّقة بِ الإنسان، طبعا كان يقصد بِ الزوائد الانتماء القومي، العشائري و الديني. كنّا نتحدَّث في مسائل متعدِّدة، هكذا بِعفوية تامة، و كنّا في منتهى الصدق و الشفافية حتى أنَّنا صرنا نعرف أفكار و عواطف و أمزجة بعضنا دون كلام. ذات مرّة تطرَّقتُ إلى موضوع الأحلام (المنامات)، مذكِّرا إيّاه ما كان قد قال في زمن ما عن الأحلام، كان رأيي أنَّ الحلم يزور دواخل الإنسان، أعماقه و هو يُضَوّي على زوايا معتمة منسية في أعماق نفسه، و هو يأخذ بِ يده إلى ملاعبه، مغامراته الفاشلة، أو بِ الأحرى غير المكتملة، يأخذه في أغلب الأحيان إلى طفولته المبكِّرة، و أحيانا إلى بدايات الإنسانية و قد يرى حلقات من مراحل تطوّرها. خالو، قال صديقي أحمدكِ، الحلم له طبيعة هلوسية، أيضا، لا تختلف عن هلوسات المجنون، و الكشف عن طبيعة الحلم يعني الكشف عن طبيعة العقل و الجنون. الحلم يُبْعَثُ من تحت أعمق الطبقات المنهدمة و اَشدّها كثافة، خبراتنا الطفولية، صور متفرّقة لِ أماكن و أشياء و أناس ظلَّت سليمة لم تُمَسّ و ما تزال باقية على نضارتها الأولى. في الحلم نعيش في صورة ذكريات صادقة قد يُسرُّ لها الشعور المستيقظ، و الأصدق هو أَنَّ ذاكرة الحلم تشتمل في العمق، كما قلتَ، على صور لِ أشخاص و أشياء و أماكن و أحداث ترجع إلى الزمن الأول، إمّا أنَّها لم تَنَلْ من الشعور إلّا حظّا ضيئلا، أو أنّها لم تنل من الأهمية حظّا ما، أو فقدت كليهما منذ زمن طويل حتى لَتبدو في الحلم، ولِعَين المستيقظ، غريبة كلّ الغرابة. الحلم يستحضر أقدم الانطباعات أثناء النوم العميق، بينما يستحضر أحدثها قُرْبَ الصباح. كان لوكاس محبوبا، أو مقبولا، من قِبَل هؤلاء. كان أصدقاءه(الفتية) يغمزون إلى علاقاته معهم، و كأنَّهم كانوا يعتبرونه مضروبا مثلهم. كان يعرف و يحسُّ بِ الغمز و

اللمز الصادر من قِبَل أهل البلدة، و خاصة القريبين منه.

كان يقول لِأصدقائه، لِ الشباب والبنات، بل راح يقول لِأهالي البلدة، لِلكبير والصغير، آراءه عن أمور الحياة كلِّها. لم يأبه لِ ردود أفعالهم، و لم يخشَ مجلس إدارة البلدة و لا المؤسسة الدينية فيها. كان يقول:

"لا تصدِّقوا، أو بِالأحرى لا تؤمنوا بِشيء لأنكم سمعتموه، و لا تؤمنوا بشيء لأنه يُقال، أو يُشاع على ألسنة الكثيرين.لا تؤمنوا بِشيء بناء على سلْطة معلِّميكم و شيوخكم. لا تؤمنوا بِ العادات و الأحاديث لِ أنَّها منقولة إليكم عبر الأجيال، و لا تؤمنوا بشيء لأنه مكتوب في كتبكم المقدسة". كان لوكاس مثار جدل بين أهالي البلدة. قسم منهم يتقبَّل آراءه، و قسم آخر يبدي امتعاضه عمّا يُصرّح به. أمّا القائمون على إدارة شؤن البلدة الاجتماعية، المدنية و الدينية، فَ كانوا يرفضون آراءه و يتوّعدونه بِ عقاب إلهي سوف ينزل عليه لا محال.

– 4–

قُبَيْلَ اختفائه، كان قد تركَ دفاتره الصغيرة و أوراقه المليئة بِ الخربشات و الكتابات في هذه الحقيبة. و في طَقْسٍ مُهيب أقرب لِ الخشوع و القداسة، سَلَّمَ الحقيبة إليَّ و قبَّلني من شفتيَّ و راح يلمس خدودي بِ رقّة و نعومة مما أثار قشعريرة في جسدي. صارت أنفاسي تتقطَّع ودقّات قلبي تتسارع ولم أقوَ على الثبات واقفة. تَشَبَّثتُ بعنقه. وضعت رأسي على كتفه و رحتُ في غيبوبة عميقة. كنتُ أشعر بِ أنفاسه الدافئة و هو يلثم شفتيَّ، خدَّيَّ و ظهر عيوني المغمضة. كان يزيح شعري، المُسْدَل على عنقي، إلى خلف أذني بِ أصابعه الرقيقة، ويداعب شحمة اذني و نحري. و بطيئا انزلقت أصابعه داخل قميصي. في الأثناء قفز قلبي إلى فمي، كدتُ أختنق من شدّة انفعالي و دفء لمساته. انتابتني ارتعاشات ناعمة دفعتني لِ الالتصاق به و مناجاة الملائكة التي رايتها في مخيالي. كنتُ أتألَّمُ روحيا، بل أتألَّم من فائض اللذة التي اجتاحت كياني و روحي. كنتُ أُحَدِّثه من غير صوت، أو بالأحرى كانت روحي تتحدَّثُ مع روحه عبر موجات فوق كونية. سمعتُه يقول بِ صَمْتٍ، و هو يسند وجهه على صدري كما الوليد الخائف من الضياع:

"كنتُ قد رأيتكِ يا حبيبتي قبل دهورٍ! و تذكَّرْتُ بعد عقود من الزمان بِ أنني قد مررتُ من هناك حيث انفصَلَت أخيلتنا و صارت تلعب بين الأشجار، عند ضفاف الأنهار، خلف البيوت قُرْبَ الينابيع العذبة. و عندما نظرتُ إلى المكان– كنتُ قد غَيَّبتُ الشمس مرَّات و مرَّات. حرْتُ بيني و بين خيالي، إنْ كنتُ أنا الذي رآكِ– أم كان خيالي؟... إنْ كنتِ أنتِ التي رأيتها أَمْ كان خيالكِ؟ فخيالي يأخذني إلى كلِّ الأمكنة يخترق الحدود كالروح، و كالحلم يلفُّ حول الأرض و السماء. خلْتُكِ الملاك الذي كان يرفرف فوق مَهْدي، إلهة الحُبِّ التي كانت تُدَندِنُ قُرْبَ رأسي و تهزُّ أرجوحتي نحو مملكة النوم و الأحلام. كانت الأحلام تلعب على أوتار روحي. كنتُ أطير فرحا لِ ألوانها الجميلة. أمسيتُ الخارج على الأعراف. هكذا قال أبناء الرمال عَنّي، حين التقيتهم هناك. أعرفهم قبل جفاف الربيع هنا، و يعرفونني مُذْ كُنّا تلاميذا فوق التراب ذاته، و البيدر الذي كنّا نلعب فوق قماماته. لمْ نكن نلتفتُ إلى الأشواك وشظايا الأحجار والزجاج تحت أقدامنا. لكنَّني كنت أكره القمامة و أشْفَقْتُ على الذين كانوا يسخرون من روحي". وبعد اختفائه بِزمن قرأتُ في دفاتره كلاما و كأنَّه تكملة لِ ما كان قد وشوشَ به في مسامعي

"كنت قد رأيتك قبل دهور، نعم يا حبيبتي كنتِ أنتِ! أنتِ ال منى و الأمنيات. أنتِ الحُبُّ و لحنه الجميل، أنتِ سرُّ العشق و مفرداته الرهيفة. دعيني قريبا من روحكِ! فَ أنا نيزكٌ صغير في مداراتك، طفل يحبو إلى حضنك الدافئ. هارب أنا من الرعب إلى أمن ذراعيكِ، إلى وضاءة خدَّيك وبريق عينيكِ. سأبقى جزءا منكِ، وَشما في ملتقى شفتيك، اسماً لِ عيونكِ الجميلة يا كلَّ العيون، يا كلَّ الجمال. أَ لمْ تدركي، إلى الآن، بِ أنّي ظلُّكِ؟! أَ لمْ تري، أو تلاحظي وجودي ملاصقا لِخيالكِ؟! فَأنا هو الذي يتبعك من الفجر إلى الفجر. أنا الذي يحمل إليكِ كلَّ معزوفات الحبِّ والحياة و ورد الجنائن من قمم الجبال. أنا الذي يجمع الضباب لِ وسادتكِ الناعمة. أنا هو الذي يُشكِّل جدائل الغار لِعشقكِ الدائم و حبّكِ الصادق. أجمع أجزاءك الملوَّنة من خارج الطيف، فَ أنتِ اللون الذي لا ينتمي إلى ألوان الأرض لأنكِ من ألوان وشاح الله البهيّ. لونٌ باركه إله الحبِّ و الجمال، لونٌ تدْمع عيناي لِ مرآه.. لونٌ أسأتُ التعامل مع جوهره، قَسَوْتُ في تشكيله على لوحتي. أخفيته عنوة بين المنسيات من مقتنياتي. كابرت في هجرانه حتى أمسى أمنية– و رسالة غفران أتلوها مع كلِّ صحوة لِ القمر.. و كلِّ نسمة تهبُّ على أوراق الشجر.. و كلّ نأمة لِ حَبَّات الرمال و موجات البحر. كنا نجتاز عتبة الطفولة و نتخطَّى سياج العمر بهذه القفزة الملوَّنة. إنه السياج الذي كان يفصل بين هذيان الطفولة وعذوبة اللقاء، دفء الأنفاس و جنون اللمسات. خلفه تدحرجت حبَّات العرق البارد على وجنتيَّ. و خلفه تذوَّقت طعام السماء و لامَستُ حرارة الدم بكلِّ حسَّاسات جسدي الملتهب. و عرفتُ معنى العمر و معنى التحوّل."

غاب لوكاس نهائيا عن البلدة. كيف، لماذا، إلى أين و متى؟ ما عرفَ أحدٌ الأسباب التي كانت وراء تَرْكه البلدة، و لا الطريقة التي اتبعها، ول ا حتّى وجْهَة رحيله. كانت لوسي قد حصلَت على دفاتر و أوراق لوكاس التي كانت بِ حوزة ابنة خالتها. و كانت قد دَوَّنَتْ أحاديثها، أو مااستطاعت تدوينها من الأحاديث التي سمعتها منها. وكانت قد انتشرت في البلدة بعد أكثر من قرنين من ذلك التاريخ الذي فيه غاب لوكاس و فيرجين و لوسي عن البلدة. انتقلت تلك المدوَّنات إلى دار الكتب و المعارف في مركز البلدة. نُقِلَ،عن حَفَظَة السِّيَر و الأحاديث، حوادث و أخبار غريبة و مدهشة فيما يتعلَّق بِ لوكاس و فيرجين. و يُعْتَقد بِ أَنَّ الرواة كانوا قد تدخَّلوا في صلب الأحاديث، و كانوا قد حَرَّفوها و طَوَّعوها في كثير من المواضع لِ تتوافق مع آرائهم و أفكارهم، لِ مقاصد شخصية أو عصبوية أو لِ الأثنين معا. بِالإضافة إلى ذلك، كانت مفردات الأحاديث تتعرَّض لِ الزيادة و النقصان أثناء روايتها، و أيضا كانت تُسْتَبْدَل بعض الكلمات بِ مرادفات قد تعطي معانٍ مختلفة عن الأصل. و كانت تتغيَّر أحرف العطف و الجرّ و

أدوات التشبيه...إلخ. كل ذلك كان كفيلا في انتشار تفاسير متعدِّدة و مختلفة بعضها عن بعضها الآخر و بالتالي معان مختلفة، لا بل متضاربة، في فهم حديث بِ عينه. ربما كان الفاصل الزمني الطويل، بين التاريخ الذي قيلت فيه الروايات و التاريخ الذي رُويَت فيه تلك الأحاديث، أحد الأسباب في تلك المعضلة(اختلاف فهم جوهر القصص المروية). جاء في واحدة من تلك الأوراق التي أصبحت في خزانة لوسي بين أغراضها الشخصية، قصة، أو حدثا كما يلي: كان يوما جميلا. كان الشمس يلعب مع السُحُب الرقيقة المهاجرة باستمرار في الارتفاعات المنخفضة. و في أطراف السحب تلك، كانت الغيوم تتجمَّعُ و تزحف إلى الأمام بِ فعْلِ الرياح الخفيفة التي كانت تدفعها بِ رفْقٍ. كان الشمس يختفي حين كانت الغيوم تحجبه من الأسفل، وكان يَشعُّ بِ نوره و حرارته المنعشة، حين كانت الغيوم تبتعد عنه في زحْفها البطيء. كُنّا نستمتع بِ الدفء الخريفي بين الأشجار الملوَّنة، حيث أنَّها تدخل في مفردات اللوحات الخريفية الرائعة. زرقة السماء، الشمس المختبئ جزئيا فوق السحب و الغيوم، الأشجار ذات الأوراق الصفراء الذهبية و الحمراء و القرمزية، و قسم منها كانت قد تلوَّنَتْ بِ لون الحنّاء و لون القرفة، وقسم آخر بِلون النحاس الصدئ. كانت الطيور التي تحوم فوق الأشجار تنتقل من غصنٍ إلى غصن، و بعضا منها كانت تَحطُّ فوق أعلى الأغصان، فوق ذؤاباتها وكأنها تستطلع الأحوال الجوية من هناك. كانت هي الأُخرى تدخل في التكوين الفنّي لِ الخريف الذهبيّ المدهش. تركنا الغابة خلفنا و مضينا بِ اتجاه النهر. مَرَرْنا بين أشجار الحور والبلوط والصنوبر. كانت تبعد عن النهر مسافة تسعة أمتار تقريبا. كانت إشعاعات الشمس تخترق الأغصان، أو بِالأحرى الفراغات التي بين الأغصان، و تنعكس على صفحات أوراق الأشجار. صرنا نمشي على كتف النهر بِ محاذاة شجيرات التوت البرّي و أشجار الكينا و مستعمرات القصب النهري(الزلّ) المائل لونها إلى الأصفر مع تقليمة خضراء في قسم منها. كانت الأسماك ترعى عند جذوع تلك الأشجار و مستعمرات الزّلل، و الضفادع كانت تأخذ استراحتها عند حوافِّ النهر خارج المياه. و كانت أفاعي المياه العذبة تلتفُّ على سيقان الزّلل، ربّما كانت هي الأُخرى، تأخذ حمّام شمس، أو كانت تراقب الضفادع لِ اصطيادها. رحنا نمشي مع النهر جنوبا. كنّا نستمتع بِ منظر الشلالات المتدلّية كَ شبكات طويلة، و هي تسقط على جذوع لامعة من أشجار جميلة متناثرة دون ترتيب منتصبة أو مختبئة بين شظايا من صخور زَلقة، ثمّ نستريح بِ تأمّل اللوحات الضاحكة التي تقدِّمها هِضاب البلدة المنخفضة حيث تتسامق أغنى نباتات الأنهار على شكل فصائل، و بِ أعداد لا تحصى. هنا البتولا اللطيفة الفاتنة مثل الصبايا المتمايلة، و هناك أرتال أعمدة من

أشجار الزان بِ جذوعها المعمّرة المكسوة بِ الطحالب. كل التباينات بِ مختلف ضروب الخضرة، و السُحُب البيضاء تتخلّل بين أشجار التنوب القاتمة و الأراضي البراح تَعجُّ بِ الخلنج الأرجوانية المتلوّنة إلى ما لا نهاية، و جميع الألوان و جميع العطور لِ ذلك الثَراء النباتي ذي الأعاجيب المجهولة. كان سطح المياه، بِ القُرْبِ منَّنا، يأخذ انحناءات متناغمة مع تدفقها في مجراها. أمّا في البُعْد، فَ كان السطح يرتعش تماما بِفعل انعكاس أشعة الشمس عليه. كانت تتشَكَّل أحواض كبيرة–كولات– في خلجان النهر. وصلَ لوكاس إلى كولة (GOLET) سيتراك، حيث عثر الأهالي، في زمنٍ مجهول، على جثته وهو منكبٌّ على وجهه في هذه الكوله. و من ذلك التاريخ سُمِّيَت بِ اسمه. أكملنا طريقنا على كتف النهر إلى أنْ حظينا بِ فسحة نهرية واسعة استهوت لوكاس لِ كِبَرِ الكولة و هدوء مائها. نزلَ لوكاس إلى النهر و راح يسبح مع اتجاه جريان مياه النهر. كان لوكاس يطلب مني الاقتراب من الكوله و الجلوس على كتف النهر و وَضْعِ رجلَيَّ في مياه الكوله حيث يسبح فيها. في الأثناء كانت الغيوم الفضية، البعيدة نسبيا، تأخذ بِ التكتُّل، و كان لونها يتغيَّر بِ بطء. و دون أنْ نلاحظ، صارت تأخذ اللون الرصاصي الداكن. تقدَّمَت نحونا بِ فعْلِ الرياح التي شَرَعَتْ في الهبوب. طلبتُ من لوكاس الخروج من النهر كي يتلافى البرد و العواقب المرافقة له. رأيتُ عمودا فضيّا ينزلق بِ اتجاهنا، شعَرْتُ بِ رذاذ ناعم يغسل وجهي. حينها كان لوكاس، تقريبا، في وسط الكوله. صار العمود تحت الغيمة الداكنة، و ما كان ذاك سوى دوّامة مائية متَّصلة بِ الغيوم. راح لوكاس يسبح بِاتجاهي و هو يقول: "انظري إلى هذه الدوّامة التي تتقدَّم من خلفي، إنّها المرَّة الأولى التي فيها أرى دوّامة في المياه". بِ الكاد كنتُ اسمع ما يقول. هيّا يا لوكاس أَسْرِع! و أشرتُ له بِ يدي، أيضا، أنْ يسرع لِ الخروج من النهر. كانت تفصلني عنه مسافة تُقَدَّر بِ خمسة أمتار حين صار على الحواف الخارجية لِ الدوّامة. دفعته حلقات الموجات، المتشكِّلة من تأثير الدوّامة، بِاتجاه الشاطئ، و راح يفرد ساعديه على وسعهما، في سباحته، مبتعدا عن محيط الدوّامة قدر الإمكان. في الأثناء رأيته يضرب المياه بِ أوسع قوس و أطول مسافة و كَ أنَّه في سباق مع الزمن، أو مع القدر. ارتفع مع الحلقة الخارجية لِ محيط الدوّامة. ضاع صوته، لم أعد أسمعه. رأيته ينحدر من فوق الموجة إلى الماء، و كَ أنَّه ينزلق من فوق منحدر مدهون بِ الزيت. اختفى تحت الماء لِأجزاء من الدقيقة و صعدَ ثانية على السطح. سُرِرْتُ لِرؤيته و صرخت بِ أعلى صوتي: هيّا يا لوكاس اسبح بِ قوّة إلى الشاطئ! إنَّك قريب منه، قريب منّي، هَيّا أسرع.. هيّا! نظرَ إليَّ من خلال المياه المتطايرة على وجهه و عيونه. كان يريد قَوْل شيء ما، لكنّه غاص، ثانية، في

المياه. في الأثناء كانت الدوّامة فوقه تمام. رأيتُه داخل الدوّامة يضرب المياه بِ يديه و رجليه لِ الخروج منها، لكنَّها كانت مثل اسطوانة شفّافة متصلة بِالغيوم، و كانت تفعل كما الشفّاط تسحب كلَّ شيء يقع في مداراتها. كان يسبح نحو جدران الدوّامة. لم ينجح في محاولاته المتكرّرة، فَ الدوّامة كانت تلفُّه وتُدَوِّره على محيطها و تسحبه شيئا فَ شيئا نحو الأعلى. أمّا هو، فَ كان يأخذ وضعية الغطس و يرمي نفسه في المياه حيث يسبح مجدَّدا نحو محيطها لِ الخروج من جوفها، لكنَّه لم يتمكَّن من الإفلات من قوة جذبها له. رأيته يرتفع في غمرة المياه داخل الدوّامة. كان يخبط الجدران المائية بِ يديه، و يلوّح بِ إشارات إلى الخارج متقصّدا إيّايَ. هو لم يَرَني و لم يكن يميّز الجهة التي كنتُ واقفة فيها بِانتظاره. كان يتخبَّط داخل مياه الدوّامة و كَ أنَّه قصبة، أو سمكة تسبح مع تيّار المياه الصاعدة بِاتجاه الغيوم. كنتُ أصرخ بِ أعلى صوتي، أطلب منه أنْ يخترق جدار الدوّامة، أنْ يبذل كلَّ طاقته لِ الإفلات من براثن هذا الوحش المائي المرعب. كنتُ أنظر إليه وهو يمسح عيونه بِ سرعة خاطفة و يجول بِ نظره في كلِّ الاتجاهات. كنت متأكدة من أنَّه يبحث عنّي، وأنَّه قد فقدَ السيطرة على حركاته. راحت المياه تسحبه لِ الأعلى، و الصورة الأخيرة التي رأيتها، كانت خمس أو ستّ فقاعات تخرج من فمه مع لمعة ناصعة من عيونه. انخطف لوكاس إلى الأعلى تاركا خلفه فقاعاته الأخيرة تتدحرج فوق مياه النهر، خارج الدوّامة، بِ اتجاه المكان الذي كنتُ جالسة على كتف النهر. امتزج لوكاس في بخار الغيوم و باتَ جزءا منها. نظرت إليه، أو بِ الأحرى، إلى الغيمة التي أخذته في رحلته الأبدية. في الأثناء سقطت خمس دمعات من عيوني فوق الفقاعات التي استقرَّت بِالقُرْبِ منّي. كانت الحكاية قد انتشرت بين أهالي البلدة، وكانوا قد بدأوا بِ إبداء آرائهم في جوهر القصة التي صارت اسطورة يفتخر بها أهل البلدة و كلّ البلدات المجاورة. قالوا عنهما أجمل ما يمكن أنْ يُقال عن عاشقين في ريعان شبابهما. كان الشباب و الصبايا يزورون الحوض الذي فيه اختفى العاشق بِ طريقة عجائبية، حيث أنَّه صار جزءا من غيمة كانت في رحلتها القَدَريَّة. نُقِلَ عن شهود عيان، في ذلك الزمان، بِ أنَّهم رأوا دوّامة مائية عملاقة تعانق غيمة فضية اللون. كان في داخلها شخص يلوّح، و هو يرتفع إلى الأعلى، لِ أحدٍ في الخارج . و رأوا عدّة فقاعات تتدحرج داخل الدوّامة من أسفل الغيمة إلى سطح النهر خارج الدوّامة، و راحت تتراقص فوق انحناءات الموجات الصاخبة لِ مياه النهر بِ اتجاه الحافّة حيث كان خيال فتاة هناك. كانت تصرخ متحدّثة مع الدوّامة. لم نسمع ما كانت تقول، ولم نتأكَّد حقيقة، إنْ كانت تتحدَّثُ مع الدوّامة أم تهيّأ لنا ذلك؟ في كلِّ الأحوال، رأينا الفقاعات تقفز إلى حيث كان الخيال واقفا، و أنَّ قطرات من الماء أنحدرت من

رأسها، أو وجهها، و كَ أَنّها كانت تبكي و أَنَّ القطرات لم تكن سوى دموعا سكبتها الفتاة، أو خيال الفتاة، على تلك الفقاعات التي تدحرجت من أسفل الغيمة داخل الدوّامة، و ما هي إلاّ لحظات حتى رأينا كتلة من الضباب تخفي الفتاة و الفقاعات و الدموع عن أنظارنا. في الأثناء شاهدنا هالة من النور ترتفع من داخل الضباب و كَ أَنُّها انبثقت من امتزاج مكوّنات المشهد على كتف النهر، من عناق الأرواح الكسيرة. كانت هالة بِلون قوس قزح صعدت بِ اتجاه الغيمة و سارا معا في السماء إلى حيث تدفعهما الرياح. بانَ المشهد و كأنَّ الهالة صارت تاجا لِ الغيمة، أو أنَّها استحالت إلى حاضنة واحتوتها تمام الاحتواء، وأضحت الغيمة كما الجنين في أحشاء الهالة الملوَّنة. صار الشباب والصبايا يمارسون طقوسا عذرية، ينشدون قصائد رومانسية، يتوسَّلون للغيمات التي تظهر فوق الحوض أنْ تُرسلَ فقاعات العاشق إلى حيث دمعات العاشقة التي أزهرت خمس وردات بخمسة ألوان.

في بداية فصل الخريف من كلِّ عام، يلتقي العشاق هناك على كتف كولة (GOLET) فيرجين ولوكاس، يُرَنّمون أشعار الحُبّ واللوعة. يستحضرون حكايا العشاق بِقصصهم المختلفة عن قصة فيرجين و لوكاس. أشعار حزينة تحكي قصص مأساوية لِ عُشّاق فَرَّقهم الجهل، العنف الإكليريكي، طواغيت الغَيْبِ، كُتُبُ السماء، مشعوذي الهياكل، مُهَرّجي الرسل و الأنبياء و عملاء السراب السماوي. يؤدّون أَدوارَ الحبيب والحبيبة في مسرحيات تحكي القصص الحزينة لِنهايات مفجعة لِ عشّاق قتلهم خَيال الألهة و داس على ورداتهم الطريّة. بعد ثلاثمائة عام من رحيل لوكاس عبر غيمة خريفية، أُقيمت على كتف النهر إيّاه حديقة جميلة فيها تشكيلة من الورود و الأزهار. و النرجس، و الريحان و الياسمين. تَمَيَّزَتِ الحديقة بِ مصطبتين متقابلتين فيهما باقات من زنابق حمراء وبيضاء في رَمْزية لِ العاشقيَن البائسيَن– فيرجين و لوكاس–. في عُمْق الحديقة انتصبَ تمثال بازلتيّ لِ لوكاس مُحاط بِ اسطوانة بللورية شفّافة تتصل بِغيمة فضية اللون، ويرى المرء من خلال البللور الفقاعات الستّ التي انبثقت من فمه أثناء محاولته التحدُّثَ مع حبيبته فيرجين. كان التمثال مثبتا على قاعدة غرانيتية مربّعة ثُبِّتَ عليها تمثال رخاميّ لِ فيرجين مقابل تمثال لوكاس خارج الاسطوانة البللورية، و الدمعات الخمس كانت معلَّقة بِ عينيها و التي كانت أولاها قد استقرَّت على محيط الاسطوانة البللورية التي تضمُّ لوكاس في داخلها. الرومانسيون أصرّوا على أنَّ الفقاعات الستّ هي حروف لِ اسم فيرجين، و الدمعات الخمس هي أحرف اسم لوكاس . كان الحدث قد غدا حافزا عاطفيا، بل، روحيا لِ الباحثين و المبدعين من الكتّاب و الشعراء و الفلاسفة لِ الغوص في المشاعر الإنسانية، و بخاصة في أحاسيس و لواعج العشّاق

المتيَّمين الغارقين في بحر الغرام إلى أعمق أعماقه. اكتشف الرواة في مدوَّنات لوكاس بِ أنَّ اللقاء الذي جمعه مع فيرجين كان قد تَمَّ قبل صعودها، عبْرَ رذاذ المياه العذبة، إلى الفضاءات البعيدة فوق سماوات البلدة، و عثروا على مقاطع، بل، فصول مطوَّلة من تلك الوثائق التي كانت في الحقيبة التي أهداها إلى فيرجين في طقس عاطفيّ مهيب. حينها انجذَبَت شفاههما الخمرية إلى بعضها وغابت أوراق الحُبِّ ودفاتر العُشْقِ و قصائد الغرام بين أنفاسهما العطرة. كانت الحقيبة بكلّ محتوياتها قد استقرَّت في متحف البلدة، ونسخة من حكاية لوكاس و فيرجين أهداها النسّاخ إلى دار المخطوطات الوطنية في حاضرة البلاد.

كان أبي يمشي كما الملوك و أبطال القصص و الملاحم الخيالية. مشدود الظهر، مرفوع الجبين. كان ظلّه يتجاوزني، بِ الإضافة إلى المسافة التي بيننا، بِ ثلاث خطوات. كان ارتفاع والدي يُقارِبُ الأربع خطوات، و كان يمتلك بنية ثابتة قوية. يضرب الأرض بِ عصاه الغليظة التي يحملها من مقبضها المحفور بِ نقشات و زخرفات مدهشة. كنتُ أحثُّ الخُطى كي أُحافظَ على المسافة التي بيننا. كنتُ أسمع صوته الجهوري الذي يَرنُّ فيه الصدى بِ حيث يجعل الصوت واضحا نقيّا مُشْبَعًا بِ الرجولة. كان يُحَدِّثني دون توقّف و دون الالتفات لِ الخلف حيث أمشي وراءه كَ ظلّه الذي لا يفارقه:" خُذْ ما استطعتَ من براعم السوسن و زهرات الاقحوان التي تُصادفكَ، و التقط ثمار النباتات الربيعية الطرية. كُنْ حريصا على سلامة الفراشات من حولكَ. لا تُفزع العصافير المغرِّدة في طريقك. اغتسل بِ قطرات الندى وأنتَ تسير نحو كهف الآلهة. يجب أنْ تدخل الكهف و أنتَ مُحَمَّل بِ عناصر الحياة المبهجة".

كنتُ أَسمعه جيدا. كانت كلماته تبعث الراحة و الكبرياء في نفسي، و كنتُ في بعض الأحيان أدخل بين الأعشاب الندية التي لازالت تحتفظ بِ قطرات الندى فوق شفاهها، عند ذاك كنتُ أُلَملِمُ حَبّات الندى بِ يديَّ الصغيرتين و أغسل وجهي بها. كنتُ أشعر بِ البهجة و أنا أفعل ذلك في هذا المرج الأخضر الذي يعكس أشعة الشمس من فوق الأعشاب الحاملة لِ لألئ الربيع. كنتُ أضطر لِ الركض خلف ظلّه بِ سببِ اتساع المسافة بيننا. كان الشمس قد ارتفع بِ مقدار ثلْث القوس فوق رؤسنا، حين انتحى أبي عن الطريق إلى أشجار الظل واختار منها البتولا لكونها أفضلها، فَهي من الإضافات الجميلة لِ المناظر الطبيعية إذْ أنّها تنمو إلى ارتفاعات شاهقة كما أنّها تمتد عرضيا لِ عدّة أمتار و هي أكثر مقاومة لِ الآفات. كان لدى الأهالي خبرة جيدة في موضوع آفات الأشجار و ذلك لِ كثرة التجارب التي خاضوها في هذا المجال، و كانوا يقولون عن صحة شجرة البتولا: "إذا ظهرتْ عليها أوراق صفراء فهي بِ مثابة إنذار و مؤشّر على مهاجمة آفة ما". لذلك كانوا يلجأون إلى إزالة الفرع الذي يحتوي على هذه الأوراق فورا. و كانت توجد بين تلك الأشجار شجرة زنبق الحور التي تتميّز بِ لحائها المجعَّد و براعمها ذات الأشكال المميَّزة، و هذه الشجرة تنتج زهورا رائعة في شهري أيار و حزيران، و تتميَّز أوراقها بِ اللون الأصفر و هي تتغيَّر لِ تصبحَ خضراء مع تقدُّم الشجرة بِ العمر. وإلى جانبها هناك شجرة السرو الأصلع والكينا والزيزفون و السنديان

و التوت الأحمر. و تحدَّثَ الأهالي عن شجرة موجودة في بلاد الأرمن عمرها/2037/ ربيعا. قال أحدهم بِ أَنَّه سمعَ أخبارها من جَدِّه، وأضاف بِأَنَّه التقى مع شيخ من البلدة المجاورة، قرأ له من كتاب عتيق معلومات تتعلَّق بِ هذه الشجرة و أَنَّها تقع في بلدٍ اسمه آرتساخ الجبلية بِ القُرْبِ من قرية ستوراشين و اسم الشجرة .(Dntjry) و ذكرَ قياساتها، حسبما كان يقرأ من الكتاب، وقال أنَّ جذعها يحتاج إلى تكاتف أكثر من /40/ رجلا من أجل احتضانها و يتسع هذا الجذع لِ أكثر من/100/ إنسان بالغ. ارتفاعها يتجاوز/54/ مترا و تقع على واد ليس بِ بعيد عن القرية و تقف بِ القُرب من ينابيع طبيعية و التي تعتبر المصدر الرئيس لِ الري هناك. و لمّا عرفوا بِ أنَّ آرتساخ تعني غابة الإله"آرا"، فَ ما كان الأمر، في هذه الحال، مدعاة لِ الدهشة، أي وجود شجرة بِ هذا العمر و بِ هذه الضخامة في غابة الإله نفسه. قعدنا على الأرض العشبية تحت ظلال الأشجار التي تحتضن الطيور كما الأم الحنون، فَ هي توفِّر لها الملجأ الآمن و الطعام الوافر. طلبَ منّي أن أتناول الطعام الذي كان قد حَمَّلني إيّاه في زوّادتي، في نفس الوقت الذي بدأ هو في تناول طعامه، حينها سمعته يقول:"كُلْ جيّدا يا ولدي! فَالطعام هو وقود الجسد كما أنَّ الموسيقى هي وقود الروح. لكن يجب أنْ تعرف الفرق بينهما، الفرق بين مهامهما، وظائفهما و بالتالي الفرق بين نتائجهما على الإنسان. سَ أتركَكَ تبحث في هذه المسألة المضنية بِ نفسكَ، سوف تتعب كثيرا في البحث لِلوصول إلى معرفة جوهر هذه المسألة". جالَ بِنظره في الطبيعة المحيطة بنا. داعبَ العشبَ بِأصابعه الطويلة. أخذَ نَفَسا عميقا وتابع كلامه: "كُلْ جيّدا يا ولدي! فَالطعام هو الساحر، أو قُلْ المارد، المجرّد من الضمير و الأخلاق، القادر على تدمير كلِّ شيء، تدمير مصادر غذائك، شرابك وهوائك. إنه ذلك المارد الذي يمكنك السيطرة عليه إذا عرفت لُغْزَ سطوته على الإنسان، في هذه المسألة أيضا، سَ أتركَكَ وحيدا تبحث عن مفتاح حَلِّ اللغز".

أضافَ والدي مواضيع جديدة إلى تلك المختزنة في ذاكرتي الطرية. تباطأتُ في التقام طعامي بعد سماعي لِ النصائح التي لم أفهم مغزاها كما يجب، لكنَّني رَكَنْتُها بين المحفوظات في زاوية من دماغي ريثما يأتي الوقت المناسب لِ البحث في معانيها.

عاودنا المسير إلى أنْ وصلنا إلى الكهف الذي كان والدي يتجه إليه، و عند مدخله أمسكَ بِ يدي؛ أَوقفني إلى يساره، و كانت يده اليمنى تمسك بِ العصا المزخرفة من مقبضها. كان الصمت يطبق على المكان. اختلستُ النظر، من جانب عيوني، إلى والدي. رأيته يتمتم و هو مغمض العينين. كانت وجوهنا بِ اتجاه الداخل. رحتُ أنقل نظري من وجهه إلى عمق الكهف و منه إلى وجهه دون أنْ يلحظَ ما أفعله، أولا لأنّه

كان مغمض العينين، وثانيا لأنّني كنتُ أفعلُ ذلك بِ منتهى الخفّة والحرص، حتى أنّي كنتُ أحبس أنفاسي لِ ألاّ أعبث بِ هواء الكهف و بِ الصمت المهيب فيه. بعد بعض الوقت من التواصل الخَفي بين والدي والعناصر المجهولة، توقَّفَ عن التمتمة و سَحبَ نفَسا عميقا و هو مُغمض العينين. في الأثناء رأيتُ دخانا أبيضا، فيه حُزَم مائلة إلى اللون الفضّي، ينبعث من أعماق الكهف، و في اللحظة ذاتها فتحَ والدي عينيه و راح ينظر، دون أنْ يرفَّ أجفانه، إلى مصدر الدخان. بقي ممسكا بِ يدي دون أن نأتي بِ أيّة حركة، حتى ملأ الدخان حَيّزَ الكهف و غَمَرنا في كتلته الفضية. رأيتُ كائنا غريبا متحوّلا يتجه نحونا من خلال الغيمة التي تشكَّلَت من الدخان المنبعث من فجوج الكهف. لم أرَ أرجله و لا أقدامه، كان و كأنّه يولد من الدخان باستمرار. كان يحمل بِيده اليمنى مبخرة نحاسيّة اللون، غالبا ما كانت تُصنَعُ من الذهب الخالص أو الفضة ولطالما لونها نحاسيّ، فهي إذن مصنوعة من الذهب الخالص أو ربَّما تكون مطلية بِ ماء الذهب، يشدّها ثلاث سلاسل فضية من ثلاث نقاط متوضّعة على رؤس مثلث تخيّلي، على محيط المجمرة، متصلة بِرأس الخطّاف، و هي تشير إلى الثالوث المقدَّس (أَيّ ثالوث، فرعوني، بابلي، سومري، مسيحي، إسلامي...) و ارتباطها معا هو دلالة على الوحدانية، وكانت السلاسل مزوَّدة بِ جلاجل تصدر أصواتا عند تحريك المجمرة وذلك لِتنبيه المؤمنين إلى عمل الخير واليقظة أثناء الصلاة، ربّما يكون هذا الرأي فيه شيء من الصحّة، لكن رمزية جلاجل المبخرة الأكثر واقعية و الأكثر قربا من الحقيقة هي في أنّها ترمز لِ الزلزلة التي حدثت عند موت المسيح على الصليب. كان يهزّها بِحركات مدروسة بحيث تخرج منها دوائر متواترة من مزيج دخان البخور و الصندل. دوائر تبدأ صغيرة عند انطلاقها و تأخذ بِ التوسُّع كلما ابتعدت من المصدر. راح المكان يمتلئ بِ روائح تدغدغ الحواس فوق الأرضية، تداعب أهداب الروح التي شرعت في التمايل مع انحناءات الدوائر السحرية المنبعثة من غريل المبخرة. كانت عيناه، بِ لون السماء صافيتان، تضحكان من غير أن يضحك. هذا اللون كان نادرا في عيون أبناء و بنات البلدة، إذْ أَنَّ اللون الأسود الفحمي لِ عيوننا هو السائد. كان يزقزق ويهدل ويُغَرِّد. لم يصدر منّي أي ردّة فعل، و كأنّي لم أفهم شيئا سوى أَنَّني كنتُ أسمع الأصوات لا أكثر، و أبي أيضا لم يفهم شيئا ممّا يسمعه. هَزَّ، الكائن المتحوّل، القصبة التي في يده اليسرى فوق هاماتنا بِطريقة غريبة. وفي الأثناء انتشر رذاذ ناعم جدا فوق رؤسنا، وحين تحسَّسْنا نداوتها تبيَّن أَنَّ جزيئاتها لها ملمس زيتي ورائحة مثيرة لِ الحواس الأرضية أكثر من إثارتها لِ الخيالات و الأحلام الرومانسية. رسمَ أشارات غريبة فوق رؤسنا و برطمَ بِ كلمات لم نفهمها، و عند انتهائه من أَداء طقوسه تلاشى

في المكان اندمج في الدخان و دوائر البخور و الصندل. كان أبي قد لاحظَ من خلال حركاته إيماءات تدعوه لِ التقدُّم إلى داخل الكهف .كان آداي قد دَوَّنَ ملاحظة بين هلالين في هذه الصفحة قائلا:" كنتُ أفهم ما كان يقوله هذا الكائن المتحوِّل، لكنني تظاهرتُ بِ أنَّني لا أفهم شيئا مما يقوله. و استنتاج والدي لِ إيماءاته كان صحيحا لأنَّه كان قد قالها من خلال تغريدته و زقزقته. أمّا بِ النسبة لِ الرذاذ الناعم الذي نشره في الهواء و الدخان فوق رؤسنا، فَ كان مصدرا لِ رائحة المسك النادرة. فَ الرائحة التي انبعثتْ منها كانت مثيرة لِ الحواس المادية، أو بِ الأحرى مثيرة لِ الغرائز، و شعرتُ بِ نشوة و نشاط في رغباتي و غرائزي الأرضية. و المسك، كما يؤكِّد أهل الكار، كلمة مشتقة من الكلمة المرادفة لِ الخصية في اللغة السنسكريتية، كما أَنَّ التحاليل التي جاءت من الشرق الأسيوي، و التي حصلتُ عليها فيما بعد، هي الأخرى تؤكِّد على اشتقاق كلمة المسك من الكلمة المرادفة لِ الخصية، و تشير إلى المنتجات المستخرجة من غدد ذكر الغزال الآسيوي الصغير. و كانت هذه الأكياس الصغيرة التي تحوي العصارة الحيوانية تُجْمَع من أجسام الغزلان (الذكور) المذبوحة و تُترك لِ تجفَّ تحت الشمس. و في شكلها الخام، تشبه رائحة المسك رائحة البول، إذ تكون نفاذة و حادة، لكن بعد تركه ليجف تصبح رائحة المسك أقل حدة، ثم تتلاشى رائحة النشادر، لتصبح أقل حدة وأشبه برائحة الجلود، وتتوقف رائحة البول عن الانبعاث منها، وتصبح مثل رائحة العرق الطازج، أو مثل رائحة الشعر الناعم الذي يزين رأس الطفل. واشتهر المسك بأنه منشط جنسي طبيعي؛ فَ وفْقاً لبعض الأساطير التي انتشرت في بلاد الأقباط "أنَّ كليوباترا استخدمت زيوت المسك لإغواء مارك أنتونيو". كانت لِ العطور قيمة نفسية و روحية في العالم القديم، و عرفت من خلال تجوالي– بحثا عن الأسرار– في بلدان مختلفة أنَّ الملوك و الأباطرة كانوا مهتمين جدّا بِ العطور و خصائصها و جودتها و تأثيرها السحريّ في مشاعر الإنسان. فَ حين كنتُ أَبحث عن الرموز و أسرارها في بلاد الإغريق، حَدَّثني زخريادس– الباحث عن أسرار السماء و أشباحها– عن العطور وتاريخ تصنيعها وإنتاجها في اليونان القديمة أثناء و قبل تاريخ امبراطورية المقدوني، كان يقصد الاسكندر المقدوني، و ذكر لي أيضا عن الكثير من الأدلة المتوفرة حول عطور مصر القديمة و بلاد فارس و روما. و أكَّدَ على اكتشاف علماء الآثار لِ أقدم مصنع لِ العطور في قبرص. و يرى علماء الآثار، كما يقول زخريادس، أنَّ هذا المبنى المصنوع من الطوب والطين، والعطور التي صُنِعَت فيه كانت لِ رغبة المتعَبِّدين اليونانيين في ربط الجزيرة بِ أفروديت، إلهة الجنس و الحب. و أضاف معلومات، أو آراء من الأساطير اليونانية التي تقول بِ أَنَّ أفروديت ولِدَتْ من بقايا

خصيتي إله السماء، اللتين فصلهما كرونوس عن جسده وألقى بهما في البحر. ويُعتقَد أنها خرجت من مياه البحر الرغوية على الشاطئ الجنوبي لِ جزيرة قبرص في بافوس. كانت هذه العطور تستأثر بِاهتمام المتعبّدين و النسّاك، إلى جانب الملوك و القياصرة وكبار الكهنة وسَدَنَة الهياكل. ولمّا كان هؤلاء يهتمون، إلى جانب عباداتهم، بِالطبيعة والفلك و الفلسفة، فَ توصَّل البعض منهم من خلال تحليل المواد الموجودة في المواقع التي كانت تتمّ صناعة تلك العطور، إلى أنَّ هذه العطور القديمة دخل في تصنيعها مكونات نباتية مثل الصنوبر والكزبرة والليمون العطري واللوز والنعناع وغيرها. و كانوا يعتقدون بِأَنَّ النمل الأشقر يفرز مادة جيلية نزولا عند رغبة الله الذي طلب من النملات ذلك، فَهذه المادة هي العنصر الرئيس في تركيب العطر الحيوي، العطر السحري الذي يسحب الشريك الجنسي إلى الأحضان الدافئة. لقد أمرَ الله ملائكته بِ تجميع مفرزات النمل تلك وعصارة بيض السمك السليماني و قطرات من ندى شقائق النعمان، و مواد أُخرى مستخرجة من زهرة الخشخاش، والبدء بِتصنيع العطر السحريّ المدوّخ و تقديمه –فقط– لِ هؤلاء الذين سَ يرسلهم إلى شعوبهم في أماكن مختلفة لكي يكونوا مسلَّحين بِ أعضاء فعَّالة نشِطة ذات طاقة متعاظمة، لا تنضب و لا تفتر. فَ رسل الله، كما قال زخريادس، بِ حاجة إلى عدد غير محَدَّد من الإناث لِ إشباع غرائزهم الجنسية، لأنَّهم بِ دون الجنس المباح لا يقوَون على أداء مهمَّتهم كَ أنبياء.

– هل هذه المعلومات هي تكهّنات وآراء النسّاك و الحكماء، أم أنَّ هناك ما يدعم هذه الآراء؟ سألتُ زخريادس عن هذه المسألة الخطيرة. التفتَ إليَّ و مسدَ لحيته البيضاء المخطَّطة بِ عروق سوداء أضْفَت جمالية و هيبة لِ شخصه. لِ المرَّة الأولى انتبهتُ إلى عيونه الزرقاء كَ زرقة مياه البحر، و سمرته القريبة لِ لون البرونز.

– بِ التأكيد المسألة ليست مجرَّد تكهنات، وإنَّما هناك مخطوطات و مدوَّنات مكتوبة على أوراق البردي و الجلود المعالجة في مدابغ جزيرة هيدرا القريبة من الأكروبوليس مقر رأس بانثيون الآلهة، ولوحات حجرية منقوش عليها عدد زوجات ومحظيات الآلهة بدءا من كبيرهم زيوس. لقد قرأت في بعض صحف هؤلاء المرسلين من عند الله و الذين يسمّون أنفسهم"أنبياء" أو أنبياء الله " يتابع آداي وَصْفَ المشهد قائلا:"مشينا إلى الداخل عبْر غيمة الدخان والروائح العطرية التي تنتمي إلى تلك التي تُنشَرُ في الهياكل والمعابد حيث تؤدّى طقوس مقدَّسة في أجواء من الخشوع و الطاعة و التعَبُّد. وقفنا تحت القنطرة الرئيسة لِ الكهف– من الداخل– كانت أشعاعات مختلفة الألوان تتقاطع خلف القوس الكبير، و كانت تمتزج بِ بعضها و تعطي ألوان دولاب نيوتن كلِّها، من

البنفسجي الغامق و الليلكي إلى الأحمر الفاهي، و كانت ذرات الدخان تلعب في أحضان تلك الألوان و تُحَدِّدُ مساراتها. عرفتُ حينها أَنَّ هناك منافذ تأخذ إلى طاقات متَّصلة بِالخارج، وعرفتُ، أيضا، أَنَّ هناك أنفاقا تذهب في اتجاهات عدّة. رأيتُ شبحا، من خلال الضباب الشفيف الذي تَشَكَّل من امتزاج الذرّات مع ألوان الطيف، يتقدَّمُ نحونا من عمق الكهف. و حين اقترب من مرمى نظري، رأيته يرتدي معطفا طويلا أسود اللون، يرتخي على الأرض مغطيا قدميه، مفتوحا غير مزرَّر. يلبس تحته قميصا أبيض يَشدُّ عليه عند الخصر، و ما فوقه بِ قليل، كمرا عريضا من الحرير البنفسجي تاركا طرفه الأيمن متدلّيا لِ الأسفل إلى ركبته تقريبا. يضع بطرشيلا زهريَّ اللون على كتفه الأيسر و يعتمرُ طربوشا أسودَ مخروطي الشكل على هيئة قمة جبل أُورارتو. هذه الملابس الطقسية لا يلبسها إلاّ في المناسبات الهامَّة. كانت لحيته البيضاء مرسلة على صدره مغطية نحره. كانت خدوده وردية، حتى أنَّ المرء كان يلاحظ الشرايين الدقيقة الحمراء فيها، تعلوها عيون فيها إشراقة مبهجة من خلال التناسق الجميل بين وسعهما ولون البؤبؤ الأسود اللامع. يحمل بِيده اليمنى صولجانا بنِّيَ اللون مشغولا، من مقبضه المكلَّل بِ قوس دائريّة غير مكتملة، بِنقشاتٍ و أشكال لها علاقة بِ طلاسم و أساطير خرافية. أَمّا يده اليسرى فَكانت تقبض على صحائف بِ لون الطحين فيها بُقَع صفراء فاتحة مائلة إلى اللون البرتقالي. كانت تلك الصحائف مشدودة من طرفيها الرأسيين بِ ريبان أزرق اللون غامقه. عند رؤيتي لِ تلك الكتب، بل المخطوطات، أخذتني رهبة و احترام لِ الموقف بِ كلِّ مكوّناته. شيخ وقور في كهف يمور بِ عبق أرواح الأشياء الخالدة، يحمل المقدَّسات والطلاسم و الرموز بِ يده. و ربَّما بِمقدار تلك المدوّنات من العلوم والفلسفة واللاهوت يحملها في دماغه أيضا. ألقى السلام علينا مع حركة من يده اليمنى، بعد أن نقل الصولجان إلى اليسرى، راسما أشكال طقوسية، لها دلالات إيمانية محدَّدة، فوق رؤسنا. طبعا قرأ، أثناء ذلك، بضع دعوات، تَخصُّ الصحة و السلامة، من ذاكرته التي تحفظ أسفارا كاملة لِسعة اضطلاعه على العقائد و الثقافات و بِ فعل الترداد والتكرار لِ سنين عديدة. انحنى أبي أمامه دلالة على خضوعه له، أو بِالأحرى لِ مَن و ما يمثِّله. دفعني بِ رفق إليه، قاصدا تقبيل يده. لكنني تجاهلتُ ذلك مما دعاه إلى وَضْعِ يده، التي كان قد مَدَّها تجاهي لِتقبيلها، فوق رأسي وتلاوة بضعَ جمل يترجّى فيها من السيد الأعلى لِ مباركة حياتي و السير في طريق الإيمان والمؤمنين، متجاوزا موضوع تقبيل يده. دعانا إلى الداخل، إلى الكهف الأول. مشينا معا إلى حيث أشار. و هناك جلسنا على مصاطب، بعضها مصنوع من طين الصلصال مُضافا إليه القسل الأصفر الذهبي و بعضها من حجر مقدود من صخور البازلت. اضطررتُ، من أجل

الجلوس، أن أقفز و أتعربش مرات عديدة إلى أن تمكَّنتُ أخيرا من الجلوس على مصطبة بِجوار أبي، حيث كان يجلس هو بِجانب رجل الدين الوقور بِ شيبته المهيبة. لا أحد يعرف إلى أَيّ جنس ينتمي، هل هو من كائنات الفضاء متجسِّدا على هيئة إنسان؟ أم هو من جنس الملائكة أو جنس اللامرئيين؟ في كلِّ الأحوال، كانت المعلومات التي وصلت عنه إلى مجلس إدارة البلدة، تقول بِ أَنَّه ابن البلدة ذاتها، فقط الكبار هم الذين عرفوا، عن طريق مجلس البلدة، هذه المعلومات. أَمّا مصدر المعلومات ومدى صحّتها و صدقيتها فَ هي في علم الغيب. و كان قسم من الأهالي يقولون، في السر، بِ أنَّهم سمعوا من حكيم قد مَرَّ من البلدة في زمنٍ غير معلوم، بِأَنَّه سمعَ من رواة استقوا معلوماتهم من الكتب الآرامية، تشير هذه المعلومات إلى أنّه في زمنٍ مجهول قد انتقل شاب عبْرَ دوّامة مائية إلى داخل غيمة معلَّقة بها، و أنَّه امتزج بِذرات البخار وتحوَّل إلى جنين تحمله الغيمة في ترحالها الأبدي. وقالوا بِأنَّه سَ يهطل مع الضفادع الصغيرة عندما يكون الناس نياما،لأنَّ ساعة سقوطها غير معلومة و لأنَّه لا يمكن لِأحد رؤية هطولها من الغيمة الفضية، تلك الغيمة التي تجوب أطراف الكون في ترحال أَبَديّ. سوف يستيقظون و يشاهدون الضفادع قد هطلت مع المطر في الشوارع و الحقول و البساتين، كما هو مكتوب في الكتاب الآرامي. مع مرور الزمن على اكتشافه و اكتشاف الكهف العجائبي الذي اتخذه مقرّا و مسكنا و معبدا له و لِ خدمته السماوية، و مع رسوخ تلك المعلومات في عقولهم، تَشكَّلَت قناعة تامة شبه يقينية لديهم بِ أنَّه فعلا من أبناء البلدة. و اكثر من ذلك، راحوا يؤسسون له عائلة و تاريخ وطفولة و حياة كاملة في البلدة. و تحوَّل كهفه (معبده) إلى مزار، بل إلى هيكل مقدَّس يقصده المؤمنون بِالقوى الغيبية، المؤمنون بِ الخرافات والقوى الخارقة لِ علوم الطبيعة والمياه و الهواء. و بناءا على حكاياتهم و تأليفاتهم (حيث أنَّهم وضعوا له سيرة حياة كاملة في البلدة)، أصبحت سيرته كَ التالي: كان يسكن مع أسرته في الحارة الشرقية، أي شرق النهر حيث بساتين فرحان البنيبلي و خاجو الصاصوني و ملكي المديادي و سعيد الأزخيني و غيرهم من أهل البلدة. كان يشارك الأولاد في نشاطاتهم على ضفاف النهر حيث كانوا يسبحون و يصطادون الأسماك و الضفادع و كانوا، في كثير من الأحيان، يدخلون إلى البساتين و الحقول يقتلعون الجزر الأصفر والكحلي و يمسحونها من الوحل والتراب بِأيديهم و ثيابهم و يأكلونها، كما كانو يأكلون البقدونس و البصل الأخضر والنعناع، هكذا من البستان مباشرة بعد تنظيفها بِأيديهم.كانوا يتقافزون كالقرود هربا من أصحاب الحقول والبساتين حين كانوا يفاجئونهم بِصراخهم الذي كانوا يطلقونه. من بين هؤلاء، حَسَب رواية الأهالي، كان هذا الراهب الوقور نيكوغوص.

في ذلك الزمان كان يتعرَّض لِ المشاكسة من قِبَل الأولاد بِسببِ اسمه. فَ المتعارف عليه في البلدة أَنَّ الأسماء تتعرَّض لِ التجزئة و الاختصار، تصغيرا و تَحَبُّبا، فَ اسم كبرئيل، مثلا، يصبح كبرو و جيراير يصبح جيرو و خليل يصبح خَلّو أو خليلو... و هكذا فَ اسم نيكوغوس، التصغير أو التحبُّب منه، يصبح نيكو والأولاد كانوا يتقصَدون إزعاجه بِ مناداته بِ نيكو، و هو فعلا كان يعاني من هذه المسألة وكان ينشب عراك بينهم بِ سببِ ذلك. كَبُرَ الموضوع في البلدة، وصل الأمر إلى الكبار و إلى مجلس البلدة حيث تَمَّ الاتفاق على تغيير اسمه، فيما بينهم و ليس في الوثائق، من نيكوغوس إلى ناريكوس و التصغير لِ هذا الاسم هو(بِ الاتفاق) ناريك و هكذا تمَّ تجاوز هذا الإشكال و كان ذلك مريحا لِ نيكوغوس. منذ ذلك الحدث (تعديل اسمه) تغيَّر سلوكه بِ شَكل واضح. أصبح نشيطا في مشاركاته مع الفتية، و أكثر من ذلك، صار يقترح أفكارا ويطلق مبادرات، كَ تشكيل فريق رياضي فيما بينهم، والدعوة إلى قراءة القصص الدينية الموجودة في دير البلدة. تلك التي تناسب أعمارهم ومستويات تعليمهم و ثقافتهم البسيطة. ناريكوس (ناريك) كان على اضطلاع واسع لِ كثير من القصص التاريخية، والقصص التي لها علاقة بِ الغيبيات، بِ السماوات وما وارء السماوات. لم يعرفوا من أين يحصل على هذه العلوم، و مَن هو، أو من هم الذين يعلِّمونه. ذات يوم، و في إحدى الجلسات المسائية التي كانوا معتادين عليها في الربيع و الصيف، حيث كانوا يقعدون على الأرض و قسم منهم كان يفترشها، كانوا يمضون الوقت في أحاديث صبيانية و سَرْد القصص التي كانوا يسمعونها من أهاليهم. حدَّثهم ناريك عن شخص اسمه خيكار، لم يسمعوا به لا هم ولا أهاليهم من قبل، وعن المعاني العميقة التي تكمن في أحاديثه. لقد سمعتُ، يقول ناريك، بعض الحِكَم العميقة الدلالات المنسوبة إليه .

– كيف تعرَّفتَ على اسم هذا الشخص و على أحاديثه يا ناريك؟ سأله أحد الفتية. و أردفَ آخر سؤالا قريبا لِ السؤال السابق، إذْ قال له:

– مَن هو الشخص الذي حدَّثكَ عن هذا الرجل الذي اسمه، كما قلتَ الآن، خينكار أو خيلنار، هل هو من البلدة يا ناريك؟

في المساء، حين كنتُ جالسا عند نافذة غرفتي و أنظر إلى الأفق و إلى الأشجار التي باتت بِ لون واحد نتيجة الظلام الذي خَيَّم عليها، يقول ناريك، سمعتُ أحدهم يكلِّمني، و تهيّأ لي بِ أنَّني أسمع صوت أمّي وأنَّ خيالها هو الذي يحدِّثني. لكنني عرفتُ من الصوت الذي كنتُ أسمعه بِ أنَّه ليس صوت أمّي، و رأيتني، ثانية، جالسا أمام شبّاك غرفتي و تراءى لي شبحَ رجلٍ، أو ربَّما امرأة، يهبط بطيئا من السماء. كاد يُغمى عليَّ من الخوف، ورحتُ أصرخ بِ أعلى صوتي، لكنَّني لم أكن أسمع صراخي. كان صوتي

مكتوما، مخنوقا في حلقي. رأيته يؤشِّر لي بطريقة هادئة أحسَسْتُ بِ أمان من حركاته الودودة. كان يرتدي سترة بيضاء طويلة تغطي كامل جسده.لم أتبيَّن وجهه، أو وجهها، لكنَّني سمعته/ها/ يتلو عليَّ أبياتا و كأنّها أشعار يلقيها على مسامعي، و سمعتُ اسم الشخص الذي نُسِبَت إليه تلك الأشعار كان اسمه، كما سمعت خيكار. أمّا الأبيات التي ألقاها عليَّ، فَ كانت معظمها فوق مستوى إدراكي. لكنَّني تلقَّفتُ منها، في النهايات، تلك التي كانت قريبة لِ الفهم، مثل:

"يا بنيّ لا تَبح بِ كلِّ ما تسمع، و لا تقلْ شيئا من كلِّ ما تراه"

"يا بنيّ عاشر الحكيم تصبح حكيما مثله، و لا تعاشر طويل اللسان و المهذار لئلّا تحسب نظيره"

"يا بنيّ إذا جابهك عدوّك بِ الشرّ، فَ جابهه أنتَ بِ الحكمة"

"يا بنيّ لا تجلب عليك لعنة أبيك و أمّك، لئلّا تحرم الفرح بِنعَم بَنيك"

و حين رأني مشوَّشا أتَلَفَّتُ إلى الجهات تلقائيا دون هدف، و أتقلقل في مكاني كَ مَنْ يتعرَّض لِقرصات ولدغات، مندهشا مرتبكا. أعاد إلقاء الأبيات عليَّ بِ بطء هذه المرَّة، كان يشرحها، يرسمها ويمثِّلها. فعلَ ذلك وكأنَّه كان يُقَشِّرُ الكلمات و يُجَرِّدُها من لباسها و يقدِّمها مفكَّكة جاهزة لِ استيعابها و فَهْمِها. كنتُ أسمع هكذا كلام لِ المرَّة الأولى في حياتي. طلبتُ منه أن يشرح لي معاني هذه الأبيات و أنْ يرشدني إلى المصدر الذي يمكنني أن أنهل منه الحكمة والعلم في قادم الأيام، كان جوابه بسيطا عميقا إذْ قال لي: "سوف يناديك من كلِّ الأمكنة التي تركَ نَفَسا من أنفاسه فيها. سَ تسمع صوته حين يأخذك عقلك و خيالك إلى عالم الأسئلة، و سوف تخترق الذبذبات الصادرة من روحه دماغك و عقلك و خيالك. لا تكن في عجلة من أمركَ كي لا تصطدم بِ الجدران غير المنظورة، و لا تغرقَ في المستنقعات الخضراء. عليكَ، حين سماعكَ لِ ندائه، أنْ تبدأ البحث عنه، أقصد عن خياله، روحه، أفكاره، و أنْ تُكْملَ المسير إلى أنْ تحصلَ على أوراقه المبعثرة في الأماكن التي مشى فيها. ستجوب بلدانا غريبة وتخوض في البحار، و تتسلق الجبال وتعبر الغابات، و سَ تواجهك مخاطر عظيمة في مهمتكَ الشاقة، لكن لا تنسى بِ أنَّكَ تبحث عن المفتاح السحري، عن اللوغوس".

– هل كانت هي المرَّة الوحيدة التي تلقَّيتَ رسائل من كائنات مجهولة؟

سكتَ ناريك لِ لحظات و كأنَّه كان يتذكَّر الحالات التي فيها كانت تأتيه تلك الرسائل

من كائنات سماوية، كما كان يعتقد، أو كما كان يريد أنْ يكون الأمر كذلك، ثمَّ رَدَّ على صديق طفولته قائلا :

– لأ لم تكن المرَّة الوحيدة! لا أذكر التاريخ، أو اليوم الذي تراءى لي بعد المَرَّة الأولى، إنَّما أذكر بِ أنَّه ظَلَّ يأتيني كلَّ مساء و لمدة عشرة أيام، و كان خلالها يقرأ على مسامعي أشعار تشبه تلك التي ألقاها عليَّ في المرَّة الأولى. لكن هذه كانت تبعث الرعب في نفسي. كان هناك قتل دون أنْ يموت المقتول، و كان القاتل ميّتا دون أنْ يكون فاقدا الحياة. كنتُ كلَّ ليلة من هذه الليالي التي كان فيها يلقي عليَّ هذه الأشعار، و بعد أنْ يغادر الكائن السماوي، كنتُ أرى أحلاما دموية، و كنتُ أدمدمُ و أبرطم كلمات غير مفهومة، و كنت، حين أصحو من هذه الكوابيس المرعبة، أجدني غارقا في العرق و كانت شفتاي ترتجفان، لا أدري إنْ كان الخوف هو السبب أم كانت أعراض حمَّة. أذكر جيدا هذه الأبيات التي لم تفارق خيالي، لأنّه حين راني أرجف، و حين سمعَ الأنّات التي تصدر منّي لا إراديا، عرفَ بِ أنّني قد تعرّضتُ لِصدمة خوف خطير. ولكي يخفف الصدمة عليَّ، راح يشرح رموز تلك الأبيات قائلا بِ أنّها لا تعني المشاهد أو الصور التي ظهرت في الأبيات حَرْفيّا، وإنّما هي رموز لِ ثقافة المجتمعات الذكورية، مع ذلك أنا لم أفهم ما كان يقصده و ظلَّ الخوف يلازمني. أمّا الأبيات التي بقيت عالقة في ذهني فَ هي هذه، مثلما سمعتُ منه:

و بالرغم من ذلك كنتُ ملكا، لا بل من نسل الآلهة

فَ أُمّي لم تلد سوى الآلهة

أمَّا أبي، فَ راح يأكلني بطيئا

التهم أحشائي بِ تلذّذ

مكتفيا بسوائلي دون عصارة الكروم

استحضر خَوابي الدماء لِ البدء بقضم أرجلي وأفخاذي

كان الليل خيمته، وسرّ نشوته

يداعب النهود قبل غفوته، و يلعق الأجزاء الشهيّة من إناثه

وفي الشفق يعاود افتراسي.

إنَّه أبي!

قوسُ الله في التراب

صانع المجد على الغمر، والحيوان السماوي في رحم الأرض

سيّدُ الكائنات و ربُّ الملائكة في كلّ الأزمان

إنه أبي الذي يفتّت عظامي بين فكّيه.

يأكلني بِ نَهَم، و قدمي في فمه

أسمع صوتَ عظامي وهو يبتلعُ آلامَ قلبي .

....

كان الصمت سيّدَ الموقف حين كان ناريك يلقي هذه الأبيات على مسامعهم، و كانت مظاهر الخوف، بل الرعب، بادية على وجوههم، حتّى أَنَّ ألسنتهم كانت قد انعقدت في أفواههم، أصابها الخَدَر التام من هَول ما سمعوه و الصور التي كانت تُرْسَمُ من خلال الكلمات التي سمعوها. أدركَ ناريك ما هُم فيه من الصدمة، لأنّه كان قد صُدِمَ قبلهم حين سماعه لِ هذه الأبيات من الرسول السماوي، و كان قد ترك أوراقا لديه فيها تَتِمَّة هذه الكوميدية الجهنمية، هكذا قال ناريك لِ الفتية و خَفَّف وطأة الصدمة عليهم من خلال حديثه عن البقية منها، و وعَدَهم بِ أَنَّه سوف يطلعهم، أو مَن يرغب منهم بِ الاستماع إليها في المستقبل.

بعد سنوات من ذلك التاريخ الذي كانت الرسائل السماوية تأتيه من كائنات هلامية، و التي كانت بين الأشعار و الحِكَم، و منها تلك المتعلِّقة بِ خيكار ،عرفَ بِ أَنَّ الأرمن كانوا يقصدون أحيقار عندما يتكلمون عن خيكار، فَاسم أحيقار في الآداب و المعارف الأرمنية هو خيكار، و كانوا يطلقون على حِكَمه اسم" نصائح"، حيث يقولون عن كتاب أحيقار "نصائح خيكار". أَمّا عن حقيقة أحيقار، فَ قد يكون شخصا اسطوريا، و قد يكون اسما لِشخص عاش فعلا في زمن الملك الآشوري سنحريب وزمن ابنه أسرحدون من بعده، و قد يكون لقبا أو صفة أو رتبة رسمية أو درجة كهنوتية أو شهادة علمية أو أدبية. مهما تكُن حقيقته واقعا أم خيالا، فَ العظيم يصبح اسطورة شئنا أم أَبَيْنا، لأَنَّ التاريخ ليس تسجيلا و تصويرا و نقلا، فَ التاريخ يكون تاريخا، أو يبدأ التاريخ، حين يبدأ الناس في التفكير بِ انقضاء الزمن، ليس بِ معايير السياقات الطبيعية– دورة الفصول، زمن الحياة البشرية– و إنَّما بِ وصفه سلسلة من الأحداث المحدّدة التي

ينخرط الناس فيها بِصورة واعية. اكتُشفَ أقدم نَصّ لِ قصة أحيقار على أوراق البردي، ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد. تقول القصة أَنَّه كان وزيرا و مستشارا لِ ملك آشور و نينوى(سنحريب) وكان حكيما عظيما ذا مال و معرفة و رأي و تدبير. لم يكن لديه أولاد (وريث)، فَ تزوج عدة نساء لكنه بقي دون وريث فَ كان حزينا و مهموما. استشار المنجمين والعرافيين فأشاروا عليه ان يُقَدِّم القرابين لِ الآلهه ويرعى الفقراء والمحتاجين. لقد فعلَ ما أشاروا عليه وأكثَرَ من العطاءات و المساعدات الخيرية ولكنه لم ينل مبتغاه. و تضيف النصوص السريانية انه هجر الوثنية الى عبادة الاله الواحد ومع ذلك لم يرزق له ولد. هناك بعض الوثائق، أو بِ الأصح، ورقة يتيمة مصفَرَّة بين مقتنياته الخاصة يقول فيها بِ أَنَّه رفض نصائح المقرَّبين إليه بِخصوص الخلفة و التي كانت تشجِّعه على استشارة المنجّمين و العرّافين في هذا الموضوع (الخلفة، الوريث). و كان هناك توضيح منه يقول: "كيف لي وأنا الذي أُقَدِّم النصائح و الحكمة و الفلسفة لِ الناس، و أسعى إلى تحريرهم من الأوهام و الخرافات و الخزعبلات، كيف لي، أنا، أن ألجأ إلى ما أدعو الناس إلى التخلُّص منه؟."

كان ناريك يحبُّ قراءة الكتب كثيرا، و يسمع القصص التاريخية و الخيالية. كان مغرما بِالحكايات الاسطورية و الخرافية. إذن هذا الراهب هو نيكوغوس ذاته الذي هَجَرَ الحياة الأرضية، أو بِ الأصَح، هجر مباهج و متَعَ الدنيا. ضَحّى بِ رجولته، أو بِ ذكورته (على وجه الدقة)، قربانا لِ خدمة ملكوت السماوات. لقد أَماتَ غريزته الجنسية لِكي يسير نقيّا طاهرا في طريق القداسة. عندما أَعاد قراءة هذه الجزئية وقفَ لِ لحظات، و كأنّه اكتشفَ أمرا جديدا، أو فكرة جديدة تَخصُّ النقاء و الطهارة، و حينذاك طرحَ سؤالا على نفسه:"هل الذي يمارس الجنس بِ شكل طبيعي، أي، الذي يتجاوب مع القانون الطبيعي، ناهيك عن الإرادة الإلهية السماوية في التزاوج و ممارسة الجنس، و ناهيك عن البغاء المقدَّس الذي كان شائعا في دور العبادة، هل هؤلاء غير جديرين بِ السير أنقياء أطهار في طريق القداسة؟ سَجَّلَ هذه الملاحظة في ذاكرته لِ العودة إليها في الوقت المناسب". لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره حين أَشرقَ نور السماء في روحه. منذ ذلك التاريخ أصبح إنسانا مميَّزا، مختلفا عن أقرانه الصبيان. غدا طفلا هادئا مسالما متعاونا مع الآخرين لَيّنَ العريكة سَهْلَ المعاشرة، مواظبا على تعلُّم دروسه ومتابعا حضور الخلوات الروحية التي كانت تُعْقَد في منزل بيدروس، الرجل، بل الشيخ المتصوّف و المترفّع عن الأرضيات و المادّيات التي، بِ رأيه، تُفْسدُ الإنسان و تَجرّه إلى المهالك و تزلقه في طريق الشرّ. كان منزله يقع في الشارع الموازي شرقا لِلشارع الذي فيه بيت الخال عزّو. كان قد خَصَّصَ أكبرَ الغرف لِ الخلوات الروحية، و كانت

مواعيدها قد حُدِّدَت في أوقات تناسب جميع المتابعين الذين يحضرون الصلوات و التأملات الروحية. في الشتاء كان الموعد يبدأ في أوَّل المساء تقريبا، التوقيت في تلك الأزمان كان يعتمد على ظلال الشمس و شروقه و غروبه. أمّا في الصيف، فَ كان يبدأ بعد حلول الظلام بِ ساعة أو أكثر قليلا(كانت لديهم تقديراتهم الخاصة لِ الساعة اعتمدوها بِ التوافق مع الساعة البيولوجية و المظاهر الفلكية، من مواقع النجوم و الكواكب بِ النسبة لِ بعضها، و مواقعها بِ النسبة لِ القمر). كانت الغرفة، بل قُلْ الصالون أو الإيوان، تقع على يمين الحوش، على يمين شجرة التوت الأحمر و دالية العنب الأبيض ذات الحَبّات اللوزية الشكل، أو ربّما هي أقرب إلى شكل البلح التدمري. هذه الدالية هي كتلك التي تُزرع في كروم الآشوريين. كانت تدور الحكايات بين أهالي البلدة، و خاصة كبار السنّ منهم، حول جنس ذلك العنب. قيلَ على لسان العم باروتا، الذي يبلغ السابعة والتسعين من عمره، نقلا عن جَدِّه، أَنَّ هذا النوع من العنب الأبيض دخل إلى بلاد الشام مع شَلْمنصَّر قبل ألف سنة من بدء التاريخ الميلادي، و كان يُزرعُ في بابل و أربيل و نينوى منذ ثلاثة آلاف سنة، أي قبل ألف سنة من ميلاد المسيح. كانت الدالية تقع بين شجرة التوت و شجرة النارنج و هذه الأشجار كانت تنشر الظلال على طول الغرفة (الصالون) و كانت توفِّرُ جَوًّا لطيفا من البرودة في فصل الصيف الشديد الحرارة. إلى اليسار من هذه الأشجار كانت الجنينة الجميلة التي تنشر الروائح العطرية من الريحان والياسمين و العسلية و الورود الحمراء و الصفراء و البيضاء إلى جانب رائحة الفلّ الأبيض الحليبيّ و القرنفل الأحمر. كانت هذه الروائح العطِرة تمتزج، في فصل الربيع والصيف، بِ رائحة البخور المقدسيّ، و كانت عاملا إيجابيا و محفِّزا لِ المجتمِعين على غَسْلِ أرواحهم و تَقَبُّلِ الحياة بِ إيجابية مطلقة. كانت أبعاد الغرفة (الصالون) مريحة و مقبولة بِ حيث كانت تَتَّسع لِ أكثر من أربعين شخصا بالغا. أّمّا الذين كانوا يشاركون في هذه الاجتماعات الروحية، كان أغلبهم من كبار السنّ (نساءا و رجالا) و كانوا يأخذون الأطفال معهم، طبعا من الذين يريدون الحضور مع ذويهم، أو أقربائهم أو جيرانهم. و كانت بعض الفتيات الشابات أيضا يشاركن معهم و كُنَّ، على الأغلب، قد وهبْنَ حياتهنَّ لِ التقوى و العبادة كما الراهبات تماما، و كُنَّ مسرورات بِ طريق العفّة و الرهبنة التي قَرَّرْنَ السير فيها. كانوا يقعدون على الأرض المغطاة بِ السجاجيد(السجّادات) المصنوعة بِايدي حرفييّ البلدة. كانت النساء يقمنَ بِ صناعتها، و لذلك يدهشك جمالها و نعومة ملمسها و كأنَّها تأخذ جمال و رقَّة و نعومة الصبايا اللائي يصنعنها بِ أناملهنَّ الناعمة، و كأنّها تمتص أنفاسهنَّ العَطِرة. كانوا يتبادلون الأحاديث و الآراء حول جودة و جمال هذه السجاجيد، كان البعض

متحمّسا كثيرا، أو متطرفا، لِ الأرمن وبالتالي لكلِّ ما يصدر عنهم، حتى كانوا يؤكّدون تفوّق الذكاء الأرمني، أو بالأحرى العقل الأرمني. كان من بين هؤلاء بعضا ممن قرأ أو سمعَ من المضطلعين على تاريخ الهضبة الأرمنية والشعب الذي نبتَ من صخورها و أشجارها و ينابيعها، و حين كانوا يتحدَّثون عن موضوع محدَّد له علاقة بِ الأرمن، كانوا يدعمون آراءهم بِ الأدلّة والوثائق التاريخية التي كانت بِحوزتهم، أو بِحوزة بعض المسنّين الحكماء في البلدة. وفي مسألة السجّاد الأرمني قيلَ عن هؤلاء المهتمين: أَنَّ لِ السجّاد الأرمني تاريخ عريق، إذ يعتبر الأرمن من الشعوب القليلة، التى بدأت فى صناعة الغزل منذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد، ومعروف لجميع المهتمين، أن أقدم نماذج السجاد التي تمَّت المحافظة عليها حتى هذه الأيام مرتبطة بهضبة أرمينيا أو بِ الثقافة الأرمنية، و قد تم، نتيجة الحفريات في أراضي أرمينيا، اكتشاف أجهزة من الألف الرابع والثالث قبل الميلاد كانت تستخدم فى صناعة السجاد، كما تم اكتشاف قطع من السجاجيد التي يعود تاريخها إلى الألفين الأول والثانى قبل الميلاد. كان الأرمن ينسجون الرموز المقدَّسة، في سجاجيدهم، التي تُعَبِّر عن إيمان أسلافهم و أفكارهم الدينية. الشيء الفريد في الفن الغني و الجميل التي تشكّل فَنّ السجاد الأرمني هو في عدم تكرار النقوش و التي تكمل الألوان الطبيعية الغنية فيه و لذلك هو إبداع رائع. كانوا يسوقون الحجج الداعمة لِ آرائهم حول جمال و جودة السجاد الأرمني، إذْ كانوا يقولون بِ أنَّ ذلك الواقع مرتبط بالصوف العالي الجودة و المياه الكثيرة و النقية ومختلف أنواع الدهان، وخاصة اللون الأحمر الذي يتم الحصول عليه من دودة القرمز الموجودة– فقط – في أرمينيا. و كما تمَّ ذكر النقوش سابقا، فَ إنَّ الفنانين الأرمن في مجال النقش كانوا فريدين دائماً ولم يكرروا إطلاقاً نفس العمل، وحوالي 3600 صورة مزينة لِ فَنِّ الدهان الأرمني يتم المحافظة عليها في المتاحف و دار الكتب الوطنية، وإلى جانب ذلك فإن نوع السجاجيد ومقاييسها وسمكها كانت تعكس صورة الطبيعة في هضبة أرمينيا. لقد عُثِرَ على كتاب التاجر والباحث المعروف ماركو بولو، حيث دوَّن في كتابه أنه اندهش من السجاد الأرمني بالقول "إنها أجمل السجاجيد في العالم."

من الشروط المهمة لتطور ثقافة صناعة السجاد الصلة السهلة بين المدن والبلدان، حيث إن الفنون كانت قادرة على التطور، والأرمن كانوا يضمنون نمط معيشتهم في الأصل بواسطة التجارة و الحرف، لذا فَ إنَّ السجاد الشرقي ليس له أصل عند القبائل الرحالة ولا في آسيا الوسطى، إنها إنتاج الحضارات الشرقية القديمة في هضبة أرمينيا، مفترق الطرق التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. كما توجد جذور تاريخية عميقة لصناعة الحرير في أرمينيا، و حسب ما كتبه المؤرخون القدامى فَ إنَّ تصدير

الحرير في القوقاز قد بدأ في أرمينيا من آسيا الوسطى خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وقد أشاد المؤرخون بجودة الحرير الأرمني لأن الشرانق الأرمنية كانت ذات جودة عالية، وأن الخيط الذي تم لفه باليد كان أغلى نوع. ففي ذلك الحين كان يتم في مدينتي دفين وأرتاشات إنتاج دهان غالٍ جداً من دودة القرمز وكان يتم بواسطة ذلك الدهان تلوين الصوف والحرير وكان يتم تصدير تلك المنتجات إلى العالم الآخر تحت اسم "قرمز" نسبة إلى الدودة المعروفة في أرمينيا. كانت هناك معلومات و مخطوطات تشير إلى أنَّ بلاد بابل و آشور قد انتشر فيها صناعة السجاد منذ القرن السادس قبل الميلاد، و أنَّهم عملوا بِ حرفة نسج السجاد منذ ذلك التاريخ وربَّما قبله أيضا. فَ كان الباحثون في الآثار قد عثروا على عمل نحتي يرجع تاريخه إلى العصر الآشوري، لها مواصفات السجاد الذي ما زال يُنتَجُ إلى اليوم. مهما يكن من أمر، فَ الحضور كانوا يقعدون على السجاجيد الأرمنية و الآشورية و الفارسية، و معظمها كانت أصلية ذات مواصفات و نكهة البلاد التي قَدِمَت منها.

إذن كانت تَتمُّ تلاوة الصلوات و الأدعية في الخلوات الروحية تلك. لم تكن الصلوات تُقرأ من الكتاب المقدَّس، و إنّما كانت تُتْلى هكذا من القلب. و كان العم بيدروس بارعا في صياغة الابتهالات الروحية و كان لديه مخزون هائل من المفردات التي تَمسُ الوجدان و العاطفة و الروح.، ومعظم الصلوات والأدعية كانت من أجل أن يعمَّ الخير و السلام. كان يتمُّ أيضا، في تلك الاجتماعات الروحية، تعليم مبادئ الأخلاق الحميدة كَ الصدق و الأمانة والحب. امتلأت حياته بِ الأمل والرجاء. صار يتقبَّل الحياة دون تذمّر أو اعتراض، و الابتسامة لا تفارق شفتيه. في أحد الأيام، بينما هو ذاهب إلى البيت بعد خروجه من المدرسة، التقى بِالعم بيدروس أمام داره و معه رجل يحمل كتابا في يده اليسرى. ألقى عليهما السلام بِ لِّ أدب واحترام. رَدَّ العم بيدروس سلام المحبة عليه و ساله عن دروسه و صحته، و قدَّمه إلى صديقه بارصومو مع المديح و الثناء على نقائه الروحي و اجتهاده و تفوّقه في دروسه، و عَرَّفَ عن صديقه و قال له: إنه الخال بارصومو لقد بدأ منذ البارحة بِ مشاركتنا في صلواتنا و إلقاء مواعظ دينية في أيام محدَّدة، سوف تتعرَّف عليه جَيّدا في المستقبل. ابتسم له الخال بارصومو و تمنّى له النجاح و التفوّق في دروسه و حياته الأرضية و الروحية و قال: لِ يباركَكَ الربُّ و ينوّرَ دربك في هذه الحياة يا ولدي. تابع ناريك طريقه إلى البيت وهو ممتلئ بالسعادة الروحية من لقائه بِالعم بيدروس والخال بارصومو و كان تأثّرِه بِ كلام الخال واضحا.

كان نيكوغوس يَحْضَرُ اللقاءات في منزل العم بيدروس مع أمّه، و في حال انشغالها في الأمور المنزلية، كان يذهب بِرفقة النسوة والرجال الكبار في السن.لاحظَ الكثيرون،

من الذين كانوا يحضرون تلك اللقاءات الحميمية التي كانت تتمُّ في جَوٍّ من الخشوع و القداسة، شغفه بِالمسائل الدينية العميقة، و كانوا مُعجبين بِ الأسئلة التي كان يطرحها على الخال بارصومو، و التي كانت معظمها تتناول علاقة الإنسان بِ الخير و الشر. هو كان يقصد علاقة الله بِ الخير و الشر. خلال اللقاءات الروحية التي كانت تتمُّ في منزل العم بيدروس، التقى ناريك بِ الخال بارصومو أكثر من مرَّة و حينها كانا يتحدَّثان عن الإيمان والخير و المحبة. و مع مرور الزمن و تعاقب اللقاءات المنتظمة بينهما و المواضيع التي كانت تُناقش، أو بِ الأحرى الإجابات و التوجيهات التي كان الخال يقدِّمها إليه، عرفَ كلُ واحد دواخل الآخر، الحياة النفسية و الروحية و بالتالي المخزون الثقافي و المعرفي. أُعجِبَ ناريك بِ منطق الخال و محتوى العِظات التي كان يسمعها منه، إنْ في الجلسات الروحية إيّاها أو في الخلوات التي كانت تجمعهما معا، و بناءا عليه حَدَّد الاحتياجات التي تنقصه و التي وجدها لدى الخال، و الخال كان قد اكتشف ميوله اللاهوتية و حبّه لِ التقوى و الخير و المعرفة. كان نيكوغوس مهتما بِ لغة خيكار، و كان قد تعرَّف على الأبجدية السريانية و كان يسعى لِ إتقان هذه اللغة، لذا تمنّى على الخال تعليمه أصولها و الإشراف على تفاعله مع الدروس التي سَ يتلقّاها منه و مدى تقدّمه في تعلُّم لغة خيكار. بذل الخال بارصومو جهدا استثنائيا معه لِ مدّة عامين و ثمانية أشْهُر، و كان قد أتقن اللغة في نهاية السنتين، أو السنوات الثلاث من التعليم الرصين على يد الخال بارصومو، حتى صار بِ مقدوره تنظيم الشعر بِ السريانية. كان الخال راضيا من جهوده و سعيدا لِ تطوّره في امتلاك ناصية اللغة والمهارات التي تجعله قادرا على مقارنة السريانية بِ العبرية، و في إحدى المرّات عبَّرَ لِ الخال عن رغبته بِ دراسة العلاقة ما بين السريانية و العبرية، أمّا اللغة العربية فكان يرى بأنَّها وليدة اللغة السريانية قولا واحدا. الخال بارصومو رجل مؤمن، رجلٌ يتمثَّل جوهر الوصايا العشرة في حياته. يخدم كَ مساعد لِ الكاهن أثناء القدّاس ايام الآحاد و الأعياد و المناسبات الدينية. إنّه صديق العم بيدروس منذ نصف قرن و أكثر وهما منسجمان في آرائهما وإيمانهما بِ الرغم من تحوّل العم بيدروس إلى الحياة النباتية و إلى التقشّف، فَ هو يعيش كَ الرهبان و النسّاك و يُكْثِرُ، مثلهم، في التأمّل. كان نيكوغوس يلمِّح لِ العم بيدروس و الخال بارصومو بِ رغبته في البحث عن المخطوطات التي تضمُّ حِكَمَ أحيقار. و كان خلال هذا الزمن يدرس اللغة العبرية على يَد الكاهن اليهودي سامح شالوم. سامح هذا يخدم في الكنيست الكائن شمال شرق منزل الخال برصومو، و هو يسكن في بيت يبعد عن بيت الخال مسافة مئة و عشرة أمتار شمالا. يقع بيته في مركز الحارة التي تُسمَّى بِ اسمهم (حارة اليهود). عَلَّمه

الكاهن سامح اللغة العبرية، على أصولها، بِ إخلاص لأنَّه اكتشف في ناريك حبّه لِ المعرفة و رغبته اللامتناهية في دراسة جوهر الأديان و إجراء مقارنة أكاديمية بينها، و بِ التالي البحث في الجوانب المتماثلة، المتشابهة و الجوانب المختلفة بين إله العهد القديم (إله إبراهيم و اسحق و يعقوب و موسى...) و إله العهد الجديد (إله المسيح) و إله عهد الغزوات (إله محمد)، اعتمد في اكتشافه هذا على التساؤلات و الأسئلة التي كان يطرحها ناريك عليه. ولذلك فتح له الصناديق التي تحوي كنوز المعرفة وعلوم اللاهوت والسحر والخرافات و أساطير الجنيات و الشياطين و الملائكة، و أغدقَ عليه كمّ هائل من المعلومات المدفونة في الكتب و الصحائف الخاصة بِ المجمَّعات اليهودية منذ عشرة آلاف سنة .

غاب نيكوغوس في السنة الخامسة عشر و سبعة شهور من عمره .

رحلة ناريك الأولى في دروب آسيا

كان ناريك يتحدَّث لِ العم بيدروس و الخال بارصومو عن رغبته، لا بل قراره، في البحث عن أسرار الإيمان و عن ألواح الحكمة، و كان يطلب مشورتهما في ما هو مُقْدمٌ عليه. كانا موافقين على مشروعه، و كانا يعتقدان بِ أنَّه سَ يباشر بحثه بعد عام، على أقَّل تقدير، و بناءا عليه كانا يشرحان له الفوارق بين رؤى اللاهوتيين في المسائل الإيمانية، وخاصة تلك المتعلِّقة بِ الوحدانية و التثليث و المعجزات و الأسرار الكنسية منذ القرن الأول من بعد صعود المسيح إلى السماء. و كانا يشرحان له طبيعة المناطق التي سَيمرُّ فيها، ويرسمان له الدروب، الأنهار، الغابات، الجبال والوديان، أي كانا يبيّنان له المعالم الجغرافية والطبيعية بما فيها الأديرة، المعابد، المغاور والكهوف. ذكرَ الخال برصومو ما كان قد سمع من الآباء الأوائل عن شخص يُدعى برديصان، حيث جاء في أخباره ما يلي:"ظهر شخص يدعى برديصان ،وهو شخص مقتدر جدا و باحث ماهر بِ اللغة السريانية. هربَ إلى أرمينيا و عاش بقية حياته هناك. و قد كتب أبحاثاً في علم اللاهوت و الفلسفة، و كان شاعرا متبحِّرا في علم اللغة السريانية و يُقال بِ أنَّه كتبَ ضدَّ بعض الاتجاهات الدينية مع مؤلفات أخرى كثيرة من بينها بحث قوي عن القضاء والقدر... إلخ". كانا يقدِّمان له النصائح الواجب اتباعها في البلدات و المدن و القرى التي سَ يدخلها، و كيفية التعامل مع الناس و مراعاة العادات و التقاليد و العقائد السائدة بينهم. أمّا أبوه و أمّه، فَ كانا ينظران إليه و إلى سلوكه و رغباته بِ عين الرضى، وكانا مؤمنَيْن بِ أَنَّ الربَّ معه وأنَّ الملائكةَ تحرسه و تقدِّمُ له كلَّ الدعم و المساعدة لِ الوصول إلى غايته و الحصول على السِراج المنير لِ إضاءة حياته.

عند شروق الشمس و بعد أنْ ودَّع أبويه، في هذا الفصل الجميل(فصل الربيع)، خَطَى أولى خطواته على دروب الحياة وحيدا. كان ممتلئا بِ نعمة الربّ و مزوَّدا بِ صلوات والديه و بركاتهما الصادقة الحميمة وابتساماتهما الحزينة. أخذ زوّادة طعام يكفيه لِ يوم

واحد، أو بِ الكاد لِ يومين، و عَلَّقَ حقيبة مصنوعة من قماش فضيّ غامق على كتفه الأيسر فيها قميصا وعباءة و أوراقا و خرائط بدائية، ربَّما رسمها الخال بارصومو أو العم بيدروس أو ربّما الاثنان معا، و اتجه شمالا نحو الهضبة العالية، بِ عصاه و مَطَرَة الماء و جلبابه الأبيض الموشّى بِ خطوط خمرية متشبّها بِ الرعاة الصالحين الواعظين، نحو طور عابدين حيث أديرة السريان وصوامع النسّاك المنتشرة هناك. كان الخال قد شرح له أهمية طور عابدين عند السريان والكنيسة السريانية الأرثوذوكسية، فَ قد كانت المنطقة مسرحا لِ حركة سريانية رهبانية و ثقافية نشطة في منطقة شمال شرق بلدته. إنَّ أكثر ما يُميّز منطقة طور عابدين هو انتشار الأديرة السريانية القديمة في ربوعها، كما قال الخال بارصومو، و أكثر المراكز السريانية الأرثوذوكسية أهمية فيها هو دير مار حنانيا، الدير الذي بُنيَ من الحجارة الصفراء، و كان يُعرف بِ السريانية "ܕܝܪ ܙܥܦܪܢ" أي دير الزعفران، و ذلك نسبة لِ لون الحجارة التي بُنيَ منها. يعود تاريخه إلى أكثر من خمسة عشرة قرنا. و يهتم بِ رعاية الدير عدد من الرهبان السريان وبعض العلمانيين من أبناء الكنيسة، وهناك دير أقدم من دير الزعفران يقع في وسط طور عابدين على طريق مديات – جزيرة بوتان– هو دير مار كبرئيل (ܕܝܪ ܡܪܝ ܓܒܪܐܝܠ) الذي بني في نهايات القرن الرابع الميلادي، فَ هو إذا أقدم الأديرة السريانية الأرثوذكسية. و يقيم في الدير عدد من الرهبان والراهبات في أماكن منفصلة و يوجد فيه أيضا بيت لِ الضيوف و قسم لِ سَكَن الطلاب الذين يعيشون فيه لِ تَلَقّي تعليمهم الديني و بشكل خاص اللغة السريانية. كان لِ هذا الدير الفضل الأكبر في الحفاظ على شعلة الإيمان السرياني الأرثوذكسي حَيّة في طور عايدين. هذه المعلومات ، و خصوصا تلك المتعلّقة بِ إمكانية استقبال الضيوف، بَعَثَتِ الأمل و الطمأنينة في نفسه و كان يُمَنّي نفسه بِ دخول مقرّ إقامة الرهبان و أنْ يحصل على فرصة التعلّم و البحث في مكتبة الدير و الغوص في الكتب و المخطوطات القديمة المتعلّقة بِ الفلسفة و العقائد و الأديان، و أيضا المخطوطات التي تحوي الأساطير و القصيدة السومرية الأولى و مآسي العشاق الرومانسيين في تلك الأزمنة الموغلة في القِدَم، أي بِ كلمة كان ممتلئا بِ السعادة و كانت الطبيعة تتمايل على أنغام روحه. عند مشارف إحدى قرى نصيبين حيث كان يسير بِ محاذاة الحقول الخضراء التي لا تبعد أكثر من عشرة أمتار عن يمين نهر الجغجغ النازل جنوبا إلى مدينته القامشلي. رأى مستعمرات الزلل من خلال الفراغات بين أشجار الحور و الكينا و الصفصاف المنتشرة على جانبي النهر. كان الشمس قد انزلق إلى خلف الأفق الذي تلوَّنَ بِ الأحمر البرتقالي مع لمعات صفراء فوق خَطِّ الأفق. و في هذا التوقيت بِ الذات لا

يشعر المرء بِ السرعة الغريبة لِ اختفاء الشمس خلف الأفق، و حلول الظلام و قدوم عروس السماء بِ جمالها الخلاّب مع وصيفاتها المشعشعة من حولها. في الأثناء صادف ناريك كلبا بنيّا ضخما مُرَقَّطا بِ بقع بيضاء على جانِبَي بطنه من أسفل ظهره و كذلك على مقدّمة رقبته وعلى ذيله الذي يشبه ذيل الثعالب. أبطأ من مشيته لِ يُقَدِّرَ الموقف بِ شكل صحيح من حيث رَدّة فعل الكلب القادم نحوه. كان ناريك قد سمعَ قصصا من الكبار، مثل كلِّ الأطفال، عن أنَّ الكلاب تَشمُّ رائحة الخوف من الإنسان وأيضا لها القدرة على تمييز الإنسان العدواني من المسالم، و كانوا يقولون:" حين تلتقي بِ كلب في البريّة، أو خارج البلدة، ابقَ هادئا و حافظ على إيقاع تنفُّسكَ طبيعيا. لا تنحني نحو الأرض أبدا و تابع سيركَ بِ قامتك المنتصبة بِ شكل طبيعي و كأنَّكَ لم تَرَه، و أكثرَ من ذلك، أظْهِرْ تودّدا من خلال التقييم الإيجابي لِ الوضع و من خلال حركات ودودة تبعث على الاطمئنان و الأمان و السلام". تابع طريقه بِ كلّ أريحية و كانت الطاقة الإيجابية تصدر إشارات غير مرئية، تنبعثُ من روحه، إلى الاتجاهات المحيطة به. كان الكلب، على ما يبدو، قد تَلَقَّفَ هذه الإشارات المُطَمْئِنة و راح يسير خلفه على إيقاع متوائم مع إيقاع مشيته، و هذا يدلُّ على قبوله له و بالتالي قبول مرافقته و كأنَّه هو صاحبه، أو هو مَن رَبّاه منذ الصِغَر. أدركَ ناريك ما أراد الكلب إفهامه وعرف بِ أنَّه يريد مرافقته و أنْ يكون تابعا له. كانت المسافة تقصر بينهما، وبعد بضع دقائق كان الكلب يسير بِجانبه و بين الفينة و الأخرى كان يميل بِ جسده إلى ساقه و يتمَسَّحُ بها و يُحَرِّكُ ذيله كما البندول على ساقه، أو بِ الأحرى، يُداعبُ ساقه بِ فراء ذيله الجميل. و لكي يَطمأنَّ الكلب، توقَّفَ ناريك و جَثا إلى جانبه و راح يدلك جسده و يمسح، بِ حركات لطيفة،على رأسه، و شرع الكلب في لَحْس أصابعه و كفّه ودَعْكِ رأسه بِصدره وبطنه دلالة على الاطمئنان والقبول بِ مرافقته وخدمته مدى الحياة. استمرَّ التعارف بينهما لِأكثرَ من نصف ساعة وتبادلا خلاله كلمات السرِّ، و اتفقا على معاني الحركات و الإيماءات و الأصوات التي تبادلاها فيما بينهما بِ طقس مُهيب، و طلبَ منه أنْ يحفظَ الاسم الذي نَطَقَ به، إنَّه اسمك يا صديقي–قال ناريك– و من الآن فَ صاعدا سَ يكون اسمكَ بوبي .(BOBI) كَرَّرَ الاسم مَرّات عديدة إلى أنْ أدركَ بِ أنَّه هو المعني به، كما أنَّه نطقَ اسم شخصه و طلبَ منه أنْ ينظر في عينيه، و طفقا في النظر في عيون بعضهما و حينها قال ناريك بِ هدوء:"إنَّه اسمي يا صديقي! أنا اسمي ناريك!". راحَ بوبي يقفز أمامه ويُحَرِّكُ ذيله بِ إيقاع و ريثْم موزون يشبه الفواصل اللحنية في مقطوعة موسيقية. يَتَقَلَّب، أو بِ الأحرى يَتَشَقْلَب، مستعرضا حركات بهلوانية. إنَّه تعبير الفرح و الرضى لِ صاحبه و صديقه. كان ناريك سعيدا بِ

هذه الصدفة التي قدَّمت له صديقا و مرافق طريق، كان يبتسم لِ استعراضاته و يُمَسِّدُ على رقبته ورأسه وبعد أنْ تأكَّدَ من أنَّهما قد تفاهما و وثقا بِبعضهما قال له ناريك:"هَيّا يا صديقي بوبي لِنتحرَّك ونفتِّشَ لنا عن مأوى في التلال القريبة المشرفة على نصيبين! فَ الشمس قد انتقل إلى الطرف الآخر، إنَّه ذهبَ لِ النوم يا بوبي".

أخذَ حقيبته و رمى جلبابه على كتفه مع مَطَرَة الماء و أمسكَ عصاه و راح ينظر إلى التلال المختبئة خلف الأشجار وإلى جبل إيزلا الذي يحتضن المدينة. وفي الأثناء أومأ لِ صديقه بِ التَحَرُّك و اللحاق به. مشى في طريق ترابيّ يلتفُّ حول غابات الحور و يشقُّ البساتين إلى نهاياتها و يبقى محاذيا لِ أشجار الكينا و البلوط و الغار المنتشرة على التلال القريبة و على مرتفعات جبل إيزلا. كان الظلام قد بدأ بِ الانتشار على الأرض إيذانا بِ حلول العتمة بعد مغادرة الشمس واختفائه كلّيا، و بعد اضمحلال انعكاسات إشعاعاته الطويلة على فضاءات السماء. كانت الرؤية لمّا تزل ممكنة و كانت التضاريس ما تزال واضحة لِ مسافات مقبولة بِ النسبة لِ مسافر في الليل. اجتاز الأحراش و التلال متجها نحو الشمال منها. كان قد وصل إلى أقدام الجبل، و كانت القمر، في الأثناء، قد خرجت بِ بهائها في موكب مهيب تُحيط بها النجوم المشعشعة، و كانت قد أرسلت نورها الفضّي المائل لِ البَياض على الأرض، و كانت قد زَيَّنت، مع وصيفاتها، قبّة السماء بِ لوحات غاية في الجمال، وكانت جوقة السماء تعزف أجمل الألحان وأعذبها على الإطلاق. قَدَّرَ ناريك الزمن الذي استغرقه منذ غياب الشمس عن السماء بِأكثر من ساعة ونصف الساعة، و ذلك بِ الاعتماد على المشهد البديع لِعروس السماء و وصيفاتها. عند سفْحِ الجبل عَثَرَ على فسحة عميقة كَ مغارة، لكنّها أقرب إلى الكهف منها إلى مغارة. وقفَ أمام المدخل ينظر إلى الداخل، بِ الكاد كان يميّز الأشياء بِ سبب الظلام الذي يلفُّ المكان. تحرَّكَ بوبي إلى الأمام و أطلقَ نباحا عاديا ليس ك النباح الذي يُطلَقُ حين يُراد منه الدفاع عن الذات أو عن المكان، أو النباح الذي يُطلقُ أثناء الهجوم على هدف ما، هنا فعلَ بوبي و كأنّه يستعلم ما إذا كان ثمة كائنا حيّا موجودا في الداخل، هذا في المقام الأول وثانيا إذا كان هناك خطرا ما في الداخل. كَرَّرَ النباح أكثر من ثلاث مرّات فَ لم يصدر أيَّ صوت أو حركة من الداخل. في الأثناء دخل بوبي الكهف و هو يحرّكُ ذيله سريعا ذات اليمين و ذات اليسار، أجرى مَسْحا لِ الداخل و بعد دقائق معدودات خرجَ إلى صديقه داعيا إيّاه لِ الدخول. و في الداخل أشعَلَ ناريك شمعة من تلك التي حملها معه من منزل العم بيدروس. كانت هناك في الصدر مصطبة،أو مثلما يُقال في بلدتنا،– دكّة– من طين ناشف يَصلح لِ الجلوس و التسطُّح عليه لِ النوم، و إلى اليمين منها كانت توجد ما

يشبه طاقة محفورة في جدار الكهف بِ مقاييس الشبابيك التي في بيوت البلدة. وجد في ركن منها بقايا أتربة و مخلَّفات أخشاب محروقة من رماد و كُتَل من البخور المتفحّم مع البقايا الصمغية الواضحة على عُقَدٍ خشبية غير محترقة و طبقات من الشمع الذائب المنسكب على الرماد و تجويفات الجدران و الأرضية التي احتضنتها. كان سقف الطاقة و الجدار القريب من مكان حرق الشموع و البخور متسخا بِ هباب الفحم. كانت الجدران الثلاثة للطاقة تحوي على أشكال و كتابات محفورة و جزء آخر مرسومة عن طريق النقر الخفيف، و لاحظ على سقفها أيضا خربشات لم يستطِع تَمْييزها بِ سبب العتمة. ألقى نظرة شاملة على أجزاء الكهف عامة و من ثمَّ أشار إلى صديقه بوبي لِ يأخذَ مكانه الطبيعي، أمّا هو فَ راح يرتّبُ أغراضه القليلة في أحد الأركان و يحضِّرُ مكانا له على الدّكة لِ النوم. وضعَ الشمعة المشتعلة على حافة الطاقة إلى يمين الوسادة التي صنعها من حقيبته و صندله البنّي. قَلَّبَ عدد من الصفحات التي أخرجها من الحقيبة، كان يريد قراءة شيء منها لكنَّه كان تَعِبا، فَ وضَعَها إلى جانبه الأيسر وتمدَّدَ على الدكة، متوسِّدا حقيبته و مغطّيا جسده بِ العباءة التي كانت في حقيبته، لِ الدخول إلى مملكة النوم. كان ضوء القمر يضيء مدخل الكهف و صوت الحشرات و الحيوانات الليلية يطرق مسامعهما بين الفَيْنة و الأُخرى. على السقف والجدار المقابل لِ الطاقة التي تقف على حافتها الشمعة المشتعلة، كانت تتوالد أشكالا غريبة جرّاء ارتعاشة لهب الشمعة. كانت الأشكال التي تظهر أمامه تَشبه تلك الكائنات الخرافية التي كان يسمع قصصها من الكبار في البلدة، و حتّى العم بيدروس و الخال بارصوما هما أيضا كانا يرويان القصص عن تلك الكائنات الخرافية، و كانا في بعض الأحيان يربطان أشكالا معيَّنة بِ السماء و سَيّدِ السماء. مَرَّتْ أمام ناظريه على سقف الكهف أشكالا تشبه الحيوانات و البشر، أو أشباه البشر. رأى كائنا يشبه الإنسان له ستّة أجنحة يطير من الزاوية البعيدة بِ اتجاه الفضاء الشاسع، لم يَرَ وجهه لأنَّه كان يغطيه بِجناحين ويغطي رجليه بِجناحين ويطير بِ الجناحين الباقيين. في أجزاء معينة منه يشبه الملاك المعروف لدى أتباع ديانات الشرق أوسطية، الديانات التي يزعم أتباعها بِ أنها ديانات سماوية، أيْ أَنَّ الله هو الذي أرسل أنبياءها و هو الذي كتب لهم كتبهم المقدَّسة (كما يقولون)، بِ استثناء الأناجيل الأربعة التي كتبها تلاميذ المسيح أنفُسُهم، و ناريك نفسه يؤمن بِ هذه الإدعاءات. أَمّا في الحقيقة فَ هذه الأديان لا علاقة لها بِ السماء، طبعا هم (أي أتباع هذه الديانات) يقصدون الله من وراء كلمة السماء أو السماوية، وكتبهم أيضا لا علاقة لها بِ السماء أو بِ إله السماء، إنّها من صناعة الأتباع، إنّ الأتباع هم الذين كتبوا تلك الأساطير و الألغاز و

الخزعبلات و التشريعات الإرهابية و اللاأخلاقية التي تدعو بِ كلِّ صراحة و وضوح إلى القتل والسرقة و الزنى و العبودية. إنَّ هذا المخلوق ذي الأجنحة الستة يعمل تحت إمرة الله أو ربَّما تحت إمرة الشيطان. و خلفه رأى كائنا يشبه الأسد له لبدة ذهبية كثيفة و ذيل ضخم كَ ذيل تنّين خرافي و له أربعة أجنحة و يدين ضخمتين كَ يديّ العملاق بوليفيم و قائمتين كَ قوائم الثيران، أمّا هاتين القاائمتين فَ هي كَ قائمتي الإله زيوس (بِ جمالها و قوّتها) الذي أخذ هيئة الثور في حدائق قصر الملك أجينور السوري، والد الأميرة أوروب شقيقة قدموس. كان هذا الأسد الأسطوري يطير بين مجموعة من التنانين التي تطير بِ أجنحة قوية، تصدر فديدا كَ صفير الزوبعة الكونية و تنفث النيران في الاتجاهات كلِّها. و راح الأسد الجبّار يفتك بِ التنانين يمينا و يسارا تارة بِ ذيله الرهيب و تارة بِ اجنحته التي تعمل كَ المناجل و أُخرى بِ يديه الجبارتين. غابَتِ الصور و تلاشت في الأبعاد الفلكية و راح الفراغ الذي خَلَّفته تلك الأشكال، تظهر فيه أشكالا آدمية تقترب بِ اتجاهه مباشرة. شاهد الملامح الأولية لها من هذه المسافة و كانت ضبابية، لكنَّه مَيَّزَ تكويرات واضحة على صدورها، و حين تقلَّصت المسافة رأى التضاريس بِ شكل أوضح. راى الأثداء و الأرداف و أعضاء أُخرى. جفلَ من هذه المَشاهد، و في الحال قفز إلى الشمعة و نفخَ فيها. كان يلهث من الرعب و راح يُحَدِّثُ نفسه قائلا:" من أين جاءت هذه الأشكال الخطيرة؟ كيف تسلَّلت إلى هنا؟ إنَّني رأيت أثداءها بِ وضوح ورأيتُ سيقانها و أفخاذها البيضاء. يا لِ بؤسي و شقائي! ماذا سَ يَحلُّ بي، كيف سَ أواجه العفّة و الفضيلة؟ إنَّ الشيطان لم يتركني في حالي منذ تلك الأيام التي لا أريد تَذَكّرها و ذكْرها. في ذلك التاريخ كنتُ فتىً لم أَتجاوز الثالثة عشر من عمري حين قادني قَدَري إلى الخطيئة، إلى الانغماس في عوالم الشيطان. كُنّا ننام حينها (في الصيف) على سطح الدار، كما كلّ أهل الحارة، و الآن أريد أنْ اَغسل روحي من الخطيئة التي وقعتُ فيها، لذلك أَذكر، لا بل، أعترف أمام عرش الله بِ أنَّني: استيقظت في الفجر كي أَنزل و أذهب مع أولاد الحارة إلى التمارين التي كُنّا نمارسها، كَ فريق كرة القدم، في الملعب المخصَّص لِ اللعب. أمّا في الوقت المبكّر كَالوقت الذي كنّا نذهب فيه إلى الملعب، فَكان مُخصَّصا لِلتمارين. مشيت إلى سطح الجيران كي أُنَبِّه صديقي لِ نذهب معا إلى التمرين. عندما اقتربت من الفِراش لم أَجد صديقي نائما في فِراشه، و الكبار من أهله، هم أيضا، لم يكونوا في فِراشهم لأنَّهم ينزلون باكرا إلى الحقول و البساتين. أَمّا صديقي، فَ قد يكون في الشارع حيث اثنان من فتية الحارة، ينضمان إلينا، يكونان بِ انتظارنا على ناصية الشارع. كانت شقيقته نائمة في فِراشها. مشيتُ إلى طرف السطح المطلِّ على الشارع كي أتأكَّد

من وجود الفتية في الأسفل. و في طريقي إلى هناك، وقعتْ عيني على قميصها المفتوح من عند نحرها إلى أسفل صدرها قليلا، رأيتُ التماعة سحرية تحت طرف قميصها المنزاح من على صدرها. في الأثناء اهتزَّ كياني كلّه. شعرتُ بِ شعاع منعكس من فوق سطح ثديها يخترق روحي، و شعرتُ بِ انفجار هائل يدوّي في أعماقي. لقد رأيتُ جزءا من ثديها الأبيض، و هي المرَّة الأولى في حياتي أرى لحم النهد لِ أنثى، غير أثداء أمي حين كانت ترضعني الحليب منها. شعرتُ بِ تسارع في دقّات قلبي. تجَمَّدتْ أطرافي و بتُّ كَ تمثال أمام الجزء المكشوف من نهدها. رحتُ أنظر إلى تكويرة ثديها البارز من تحت القميص المنزاح بِ سبب حركتها أثناء النوم، وليس بِقَصْد منها. إنها غارقة في نوم هانئ، في غفوة الفجر النديّ. التفتُّ إلى الجهات لا إراديا. بين الفينة و الفينة كانت أطرافي ترتجف، و دقّات قلبي تدخل في فوضى مخيفة. لم أكن أعرف ماذا أفعل، لبثتُ واقفا أنظر إلى الجزء المكشوف من ثديها، إلى الانحناءة الجميلة التي تعكس شعاع السماء من فوق قمّتها. صرتُ أُكَلِّمُ نفسي و أقول كلاما من هنا و هناك، كنتُ و كَ أَنّي في غيبوبة، في هذيان. خَطَرَ لي أنْ أتمدَّدَ إلى جانبها و أَكشفَ عن صدرها، على الأقلّ النهد المكشوف في الجانب اليمين من صدرها، و أُقَبِّلَ سطحه الناعم الأملس وأُداعبه بِ يدي ولساني، لكنَّني عدلت عن هذه الفكرة الخطرة لِ أَنَّها قد تَفيق جرّاء مداعبتي لِ ثديها و تقبيله بِشفاهي وأنفاسي الدافئة. في الأثناء اقتربتُ منها، إلى الطرف اليمين حيث الجزء المكشوف المنفلت من تحت قميصها الزهري، جثوتُ على ركبتيّ بِ هدوء تام و مَدَدْتُ أصابعي، بِ حَذَرٍ شديد، إلى نهدها و رحتُ أَلمسها بِ رقَّة و لمّا كانت غارقة في نومها و لم تشعر بِ حركة أصابعي، رحتُ أُداعبُ ثديها بِ باطن كَفّي و من ثمَّ انحنيت بِ هدء و حذر و قَبَّلتُ التكويرة اللامعة، وقبل مغادرتي المكان ملأتُ ناظريَّ من صورة ثديها الأبيض ورسمتُ الانحناءات الجميلة في روحي. في ذلك اليوم كنتُ أَتحاشى الالتقاء بها، رؤيتها وجها لِ وجه، لأَنَّني كنتُ أعتقد، بيني وبين نفسي، بِ أَنَّها كانت واعية لِ ما يحصل و أَنَّها شَعرت بِ لمسات أصابعي ويدي وشِفاهي لِ ثديها، وربَّما كانت تشعر بِ لذَّة و كانت راضية لِ ما يجري، أو أَنَّها، بِ الفعل، لم تَحسّ بِما حصل. انقضى النهار و لم يَبْدر منها ما يدلُّ على أَنَّها كانت على علم بِ ما حصل معها في فجر هذا اليوم. أمّا أنا فَ صرتُ أعيش في حالة نفسية سيئة. كانت روحي تتعذَّب بِ سَبَبِ ما أَقْدَمْتُ عليه. كنتُ أَنْعزل عن أهلي و أصدقائي، و كنتُ أبتهل إلى الله أنْ يغفر لي و كنتُ أبكي بِ حرقة. إنَّ الشيطان ما زال يطاردني بِالتأكيد، سوف أقاومه بِما أوتيت من قوة و عزيمة و إيمان. ساعدني يا ربّي في هذه الحرب المصيرية، ساعدني على الصمود في وجهه.

إنَّه يريد الإيقاع بي في الخطيئة، إنّي ألجأُ إليك و أعتمد على محبَّتكَ لِ أولادك يا رَبَّ الكون. انقذني من هذه المصيبة يا أَبَتِ!."

نادى على صديقه بوبي. جثا أمامه على ركبتيه. عانقه و صار يشكو همَّه إليه، أخبره بِما رأى من الأشكال الخليعة (لم يجرؤ على قول الأشكال المغرية) وأَنَّه حزين، لا بل، خائف مما سَ يحصل له في قادم الأيام و طلبَ منه أنْ يكون يَقِظا و أنْ يمنع دخول أو تَسَرُّبَ أيّ شيء إلى الداخل، سواء كان على هيئة كائن مادي، أو هلى هيئة جنية أو عفريت أو شبح روحي. راح بوبي يلطع ذقنه و خَدَّه و وضعَ قائمتيه الأماميتين على كتفيه و أمالَ رأسه على كتفه الأيمن و تساءل قائلا له: لماذا انتَ خائف يا صديقي، هل الذي رايتَه كان شيطانا أم جانّا، أم كان إنسانا مثلكَ؟

– آه يا بوبي! ماذا أقول لك، كيف سَ أجعلكَ تفهم أو تدرك أَنَّ الذي رأيته إنَّما هو الطعام الإلهي الذي خلقه الله و زرعه في حديقته و باتت تحت حراسته؟ إنَّ الذي رايته يا بوبي، و بِ وضوح تام، كانت التفاحة التي تدحرجت من حديقة الله إلى هنا، كانت تلك التفاحة التي أخذّت شكل الأنثى يا بوبي. تراني خائفا؟! نعم أنا خائف لكن ليس منها، و إنّما من العقاب الذي ينتظرني فيما إذا اكلتها أو اشتهيتها. تلك التفاحة هي نفسها التي أخرجت جَدّي الأوّل من الجنّة، تلك هي نفسها التي جَلَبَت الشقاء و الموت على البشر، كلّ البشر.

– لم أستوعب ما تقوله يا صديقي! كيف يخلق إلهكم فاكهة و يزرعها في الحديقة التي كان جَدُّكَ الأول فيها و يُطرد منها لِ مجرَّد أَنَّه أكل منها؟! أَ لم يعرف هذا الإله بِ أَنَّ الإنسان حين يراها سَ يأكلها حتما؟ فَ لماذا يعاقبه على عملٍ هو الذي يُمهِّد له الطريق و يُقَدِّم له إغراءات جميلة و شَهيّة و بِ التالي يدفعه دفعا إلى فعل ذلك؟

– الحَقُّ معك يا صديقي! أنا أيضا بتُّ لا أفهم ذلك، و سوف أبحثُ في هذه المسألة في قادم الأيام و من أعماق الكتب و المخطوطات التي سَ أنبشها في متاحف و أديرة نصيبين و ماردين، هنا في طور عابدين. و الآن إلى الحراسة يا صديقي! أمّا أنا فَ سَ أحاول نسيان ما رأيت.

ذهبَ كلّ إلى مكانه. تَسطَّحَ ناريك على الدّكّة، تَلَحَّفَ بِ ردائه و تَوَسَّدَ حقيبته و أغمض عينيه لِ الدخول إلى ملكوت النوم.

قُبَيل شروق الشمس كان بوبي قد قام بِ رحلة استكشاف لِ جوار الكهف من جهاته الأربع. حَدّدَ أماكن الينابيع و الأشجار المثمرة و الخضار و النباتات الصالحة لِ الأكل. كان ناريك قد استيقظ حين عاد صديقه إليه. تعانقا و كأَنَّهما يلقيان تحيَّة

الصباح على بعضهما. طلبَ بوبي من صديقه أنْ يرافقه في نزهة إلى الينابيع و الغابات القريبة التي تتخلَّلها الصخور و فوالق الجدران البازلتية. رضخَ ناريك لِ طلبِ صديقه و رافقه في الرحلة الصباحية. بدأا من يسار الكهف نزولا إلى حيث أشجار الكينا والغار و شجيرات التوت البرّي الأحمر و الأسوَد المتَّكئة إلى الصخور البازلتية، و على امتداد المسافة كانت تظهر أشجار الجوز و البلوط و التين و التفاح، و كان يُسْمَعُ خرير المياه المنسكبة من الينابع التي تتفجَّر من بين أكتاف الصخور المتراصّة. شربا الماء البارد الزلال من الطبيعة مباشرة. تابعا طريقهما بِ محاذاة الأشجار حيث الطيور تحوم بين أغصانها و فوق فروعها العالية. واجها صخرة مشطورة مكسوّة بِ الطحالب و العفن الأخضر الزيتيّ، فيها فراغات يظهر منها جسم الصخرة الحجري. كانت الصخرة كَ صفحة من صفحات الكتب و المخطوطات مستطيلة الشكل تقريبا. اقترب ناريك منها و أسندَ يده اليمنى على حافّتها و راح يمعن النظر فيها و بِ شكلٍ خاص في جسمها اللامع الظاهر من خلال المساحات المكشوفة من بين الطبقات الخضراء التي غَزَتها. تَهيَّأ له و كأنَّه يرى رَسْما لِ أشكال يعرفها من دراساته الغزيرة و العميقة لِ الرموز و الخطوط و الأبجديات التي ظهرت في هذا الشرق الساحر. تذكَّرَ كلام الخال برصوما عن نصيبين، حيث كان قد قال له:" نصيبين مدينة قديمة في وادي الرافدين، تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد. يُنسب تأسيسها لِ ملوك و أباطرة كُثُر و من بينهم نمرود الجبار، و هي مثل الرها محطة قوافل و مركز تجاري مرموق و بقعة زراعية خصبة، و ترجع تسمية نصيبين إلى الكلمة السريانية (ܢܨܝܒܝܢ)، و بالعربية النصبات أو الغرسات المنصوبة وهو اسم جمع سرياني لِ كلمة (ܢܨܝܒܐ) السريانية و ذلك كون نصيبين مغروسة على ضفاف نهر جغجغ، بين النهرين العظيمين دجلة والفرات. كانت نصيبين، يا ولدي، مرتبطة بِ طريق مهم يصلها بِ الرها وأربيل فَ أرمينية باتجاه الشرق، و بِ سنجار والحضر في الجنوب الشرقي، و بِميسان حتى الخليج العربي والهند في الجنوب، و بِ منبج فَ حلب و دمشق و تدمر إلى الجنوب، وكان ثمة طريق آخر عبر منبج إلى فلسطين. كل ذلك يشكل دليلاً على أهمية مدينة نصيبين التجارية و الاقتصادية. مدينة نصيبين عريقة بِ القدم يا ولدي، وجاء اسمها في الأسفار الإلهية أيضا(الكتاب المقدس)، أنا لا أحفظ الأسفار، التي جاء اسمها فيها، عن ظهر قلب ولكنَّني أتذكَّر سفر صموئيل والملوك بِ التأكيد." كان كلام الخال، الذي تَذَكَّرَه، حافزا له لِ البحث عن تلك الكنوز المخبَّأة في الكهوف وعلى جذوع الأشجار الضخمة و الصخور الغرانيتية و البازلتية على وجه الخصوص، و لَمّا كان قد شَكَّ في وجود رسومات وكتابات غريبة على الصخرة التي يسند يده على كتفها

قَرَّرَ حينئذ البدء من هنا. شرعَ في إزالة العفن و الطحالب من على صفحتها من الأعلى، حيث كان ارتفاعها بِ مقدار قامته و أكثر بِ ذراع تقريبا. كانت فرحته عظيمة حين رأى كتابات تبدأ من اليمين إلى اليسار. تابع إزالة الطبقات الخضراء الزَلِقة نزولا إلى أسفل الصخرة. أعاد النظر إليها من الأعلى و دَقَّقَ في الكتابات المحفورة على شكل مقاطع نصيَّة لا يتجاوز الواحد منها أربعة أسطر، و تَبَيَّن بِ أنَّ بعضها تبدا الكتابة فيها من اليسار إلى اليمين. تأمَّلَ اللوح البازلتيّ الأسود اللامع و النصوص المختلفة المكتوبة عليه، و كلُّ نَصٍّ كان يُعَرِّف الملك، أو الامبراطور المنتصر بِ الاسم و التاريخ. شَبَّه ناريك هذا اللوح بِ السجلّ الإلهي لِ تَفَقُّد حضور الغزاة إلى هذه البقعة المسالمة النَيّرة المقدَّسة. يبدأ حضور الملك الآشوري أدد نيراري حيث دَوَّنَ كاتبه الحربي على لسان ملكه ما يلي:

"أنا أدد نيراري الملك الآشوري لقد انتصرتُ على الملك نور–أدد الآرامي و شيخ قبيلة بيت–تمناي من خلال ثلاث حملات عسكرية في الأعوام 856–900–901 و التي آخرها كانت هي الحاسمة، و فتكتُ بِ جيوشهم و أخذتُ أسرى و جعلتها تابعة لِ المملكة الآشورية في العراق". و قرأ تحت هذا المقطع مباشرة نصًا يقول كاتبها طبعا على لسان ملكه:

"أنا الملك الآشوري توكولتي–ننورتا لقد هَزَمتُ الملك الآشوري أدد–نيراري في 1001 و أصبحت نصيبين ضمن ولاية آشورية (آمادو) يحكمها أحد قوّادي". و في نَصٍّ آخر يقرأ ما يلي:

"أنا الملك البابلي نبوبلاسر هَزَمتُ الجيش الآشوري و انتصرت عليه في 1212 و أصبحت نصيبين ضمن مملكتي و من بعدي سَ تكون ضمن مملكة ولدي نبوخذ نصر". و في أسفل هذا المقطع كان هناك نَصٌّ مكتوب من اليسار إلى اليمين وجاء فيه ما يلي:

"لقد أصبحت مدينة نصيبينا تابعة لِ الدولة السلوقية من تاريخ احتلالنا لها عام 1697 و صار اسمها أنتيوك–مكدونيا أي (انطاكيا–مكدونيا). إنَّ الملك سلوقس الأول نيكاتور قد أعاد بناء مؤسساتها الإدارية و حصْنها و هي تُكتَبُ في سجلاتنا بِ اسم نيزيبي أو نيسيبي". و في نَصٍّ في أسفله مكتوب هو الآخر من اليسار إلى اليمين:

"لقد انتزع ملكنا العظيم ديكران الأول ملك أرمينيا، ديكران الكبير ملك ملوك الشرق، مدينة نصيبين من البارثيين في 1832 و جعل اسمها من هذا التاريخ أرفاستان".

و كان في أسفل هذا النص كتابة يقول كاتبها:

"أنا الملك ارتبان الأول لقد استردَّدْتُ نصيبين من الملك ديكران الأوَّل ملك أرمينيا عام 1869 و طردتُ جيشه منها". و هناك تحت هذا النص كتابة رومانية تقول:

"أنا الملك سبتيميوس سيفيروس لقد انتصرت على الملك ارتبان الأوَّل و استرجعتُ نصيبين و ضممتها إلى الامبراطورية الرومانية و جعلتها مركزا لِ ولاية سبتميا الرومانية. إنَّ هذا الإنتصار هو في عام 2064."

كان الصمت سَيّدَ الموقف وهو يتامَّل اللوح الغرانيتي، اللوح الذي حُفِرَ عليه انتصارات و هزائم الملوك و الأباطرة هنا على أرض نصيبين. كان بِ إمكان المرء، و هو يقرأ كتابات المنتصرين، أنْ يتخَيَّل المعارك الضارية التي كانت تدور بين الجيوش المتحارب، و القتل و الدمار الذي كان يلحق بِ المدينة و أهلها المسالمين. كان سعيدا بِ هذه اللقيا، بِ هذا الشاهد الحَيّ الصامد، أمام الطبيعة وأهوالها، على أحداث جَرَت على هذه الأرض المقدَّسة قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام. جلس على حجَرَة بِ جانب الشاهد الصامت مُسْنِدا رأسه على طرفه. بعد دقائق من جلسته تلك، عاود النظر ثانية إلى النصوص المدوَّنة على اللوح الحجري و تَنَبَّهَ، في هذه المَرَّة، إلى مسألة في غاية الأهمية، أو في غاية الخطورة، و هي أَنَّ التواريخ المدوَّنة في النصوص لم تكنْ مرفقة بِأحرف كَ دليل تعريف على العمق التاريخي لِ الحدث، مثل (ق.م) أو (م) أو (ب.م) أو(هج)..إلخ. طبعا ناريك كان يدوِّن كلَّ مشاهداته و أفكاره و اكتشافاته، حتى حواراته مع صديقه بوبي كان يدوِّن ملخّصاتها في نفس الدفتر الذي حمله معه لِ أجل ذلك. كان دفتره يشبه دفاتر العطّارين و السمّانين. كانت التواريخ التي قرأها على اللوح الصخري غريبة عليه، لذلك قام بِتسجيلها في إحدى الصفحات لِ يعود إليها و يقارنها بِ التواريخ المدوَّنة في الألواح والمخطوطات المتداولة بين الدارسين وخاصة المهتمين منهم، تلك الألواح التي تَمَّ اكتشافها من قِبَل علماء الآثار و علماء الأنتروبولوجيا و اللغات الشرقية، ويحاول فَكَّ ألغازها. اقتربَ بوبي من صديقه ووضع قائمتيه الأماميتين على ركبتيه مُحَرِّكا ذيله يمنة و يسرة. في الأثناء راح ناريك يداعب رأسه و يفرك أسفل رقبته. نظرَ بوبي إلى عيون صديقه مستفسرا عَمّا يقلقه و يشغل باله، مع شَكِّه بِ أنَّ الأمر يتعلَّق بِ اللوح الغرانيتي الذي قرأَ منه تلك النصوص المكتوبة عليه، لكنَّه لم يعرف الجزئية التي يُفَكِّرُ فيها؛ لذلك توجَّه إليه قائلا :

– قُلْ لي يا صديقي! ما الذي يُشْغِلكَ؟ أنا واثق من أنَّ الأمر يتعلَّق بِ ما قرأتَه من هذا اللوح، لكنَّني لا أعرف بِ الضبط ماهية المعلومة التي تُفَكِّرُ فيها. هل يمكنني مشاركتك فيما تفكِّرُ فيه؟

– يا بوبي يا صديقي اجلس هنا بِ جانبي لكي نتبادل المعلومات و الآراء التي قد تفيد ما اكتشفته في النصوص المكتوبة هناعلى هذا اللوح !

– هَلّا قلتَ لي ما هو الموضوع الذي سَ نتجاذب أطراف الحديث حوله؟

فتحَ ناريك حقيبته و أَخْرَجَ بضع أوراق كاكيّة اللون مكتوب فيها بِ اللون الأسود، أو بِ الأحرى بِ الحبر الصيني. كان متردّدا في تناول الموضوع الذي لَفَتَ انتباهه مع صديقه الآن في هذه اللحظة. كان يريد أنْ يفردَ الأوراق هناك في كهفه و أن يجري المقارنة بِ دقة و هدوء، لكنه بعد تفكير سريع في المسألة رأى بِ أَنَّه لا مشكلة في إشراك صديقه في هذا الموضوع الآن، و في الأثناء طلبَ منه أنْ ينظر إلى محتوى الأوراق و أنْ يقرأ الأحداث التاريخية المدوَّنة فيها. وضعَ إصبعه على بداية السطر الذي يحكي عن كورش ومعركة أوبيس ضد الامبراطورية البابلية. يقول المخطوط ما يلي: "لقد وقعت معركة بين الفرس الأخمينيين بِ قيادة كورش الأكبر ضد الامبراطورية البابلية، و دارت أحداث القتال قرب مدينة أوبيس شمال شرق مدينة بابل. تمكَّن الفرس من الانتصار في هذه المعركة و كان الفضل في ذلك يعود إلى قائد الجيش البابلي آنذاك جوبارو ذي الأصل الميدي الفارسي و الذي قرَّرَ الانضمام إلى الأخمينيين ضد بابل، و هكذا تَمَّ إسقاط بابل في سبتمبر من عام 539 ق.م "

انتقل إلى مقطع آخر يحكي عن معركة غوغميلا و جاء فيه الآتي:

"لقد سحقَ القائد العظيم اسكندر المقدوني جيوش البارثيين الفرس في المعركة الشهيرة، معركة غوغميلا، وحَقَّقَ انتصارا كبيرا وأَسْقَطَ الامبراطورية الفارسية في عام 331 ق.م و حصلَ ذلك في زمن ولاية الملك داريوس".

و في صفحة أُخرى عثرَ على نصوص تحكي عن معارك الآشوريين و البابليين و غيرهم من الأباطرة و الملوك. أشار إلى نَصَّين و هما مكتوبين على اللوح الصخري الذي بِ جانبه لكن دون أحرف بِ جانب التواريخ الرقمية. أَمّا هنا في هذه الصفحة فَ قد جاء كِ التالي: "لقد انتصر الملك الآشوري أدد نيراري على الملك نور–أدد الآرامي و شيخ قبيلة بيت–تمناي من خلال ثلاث حملات عسكرية في الأعوام 901–900–856 ق.م و التي آخرها كانت هي الحاسمة، و فتكَ بِ جيوشهم و أخذَ أسرى وجعلَ نصيبين تابعة لِ المملكة الآشورية في العراق". و قرأ تحت هذا المقطع مباشرة نصًّا يقول:"إنَّ الملك البابلي نبوبلاسر هَزَمَ الجيش الآشوري وانتصرَ عليه في 612 ق.م و أصبحت نصيبين ضمن مملكته و من بعده سَ تكون ضمن مملكة ولده نبوخذ نصر".

أراد ناريك أنْ يُكمِلَ قراءة النصوص التالية، لكن بوبي أوقفه–في الحال– و اشار إلى

التواريخ المدوَّنة لِ الأحداث التي جرت، و التي هي نفس الأحداث المكتوبة على اللوح الصخري بِ جانبهم و لكنَّها مختلفة عن التواريخ التي في هذه الصفحة حتَّى أَنَّها غير مرفقة بِ أحرف كَ دليل على العمق التاريخي.

– أحسنت يا صديقي! قال ناريك. أنا أيضا لاحظتُ ذلك و كنتُ أتساءل، بيني و بين نفسي، عن السرِّ في هذا الأمر .

– أعتقد أنَّ الذين كتبوا هذه النصوص ليسوا هم أنفسهم الذين كتبوا النصوص التي على الصخرة. قال بوبي. و أضاف، بل الذين كتبوا هنا و هناك ليسوا في نفس الزمان و ربما يكون الفارق الزمني بينهم مئات السنين، إنْ لم يكن آلاف السنين.
أعاد ناريك أوراقه إلى حقيبته. أخذ عصاه بِ يده اليمنى و مشى على إحدى مصاطب سفح إيزلا، حيث طريق ترابيّ يخترق الأشجار و يلتفُّ حول الصخور المبعثرة هنا و هناك. كان مُعْجَبا بِ الفكرة التي طرحها صديقه حول الاختلاف بين النصوص التي في دفتره و ذاتها التي على الصخرة تلك. كان الشمس قد مال إلى الطرف الآخر من الجبل دلالة على بدء رحلته نحو المغيب. كان بوبي يسير خلفه و لم تكن المسافة كبيرة بينهما، و في المقاطع العريضة من الطريق كان يسير إلى جانبه، و في هذه الحال كان يستغل الفرصة و يمضي في التحدُّث معه حول مواضيع مختلفة، لكن ناريك لم يكترث له، أو بِ الأحرى، لِ إصراره على التحاور معه. تناولا بعضا من الطعام الذي كانا قد صنعاه يوم أمس. و في طريقهما إلى كهفهما جمعا أنواعا من الأعشاب و الجذور النباتية و عددا من بيض الإوزات البرية و كميات من الفطر الصالح لِ الأكل و الذي يدخل في اختصاص صديقه بوبي كونه يُمَيِّز النوع السام من سِواه. ملأ ناريك مطرته المصنوعة من قماش خشن(جادر)، لونه أصفر كَ لون القمح في صَفَارِه. لا يَسمح بِتَسَرُّبِ المياه منه و يحفظها باردة حتى في فصل الصيف، و لِ أجل ذلك، يكفي أن تكون معلَّقة ومعرَّضة لِلهواء. كان الشمس قد غاص نصفه في وادي الظلام حين جلس على كتف صخرة على ارتفاع نصف متر من الأرض، خارجة من عند مدخل الكهف في الطرف الأيسر منه. كانت أشعة الشمس ما تزال تُضيء السماء بِ قليل من ضيائه، و بِ الكاد كان بِ إمكان المرء أن يُمَيِّزَ، أو أنْ يرى نجم القطب في السماء الرصاصيّ و الذي يتحوّل رويدا رويدا إلى اللون الفضيّ. كانت نظراته مصوَّبة نحو ذؤابات السرو والكينا والصنوبر وأعشاش الطيور، و من بين شقوقها السبيكومترية، كان ينظر إلى الحدود البنفسجية التي تتراءى من تحت النجم القطبيّ الذي يدخل المسرح السماوي بِ كبرياء العرائس و بهاء أميرات الجمال. لم

يشغله هذا المشهد البديع بِ الرغم من أَنَّه ينظر إليه. إنَّ الذي كان يسيطر على تفكيره لم يكن محيطه المادي، و إنّما كان الذي قاله صديقه بوبي:"أعتقد أنَّ الذين كتبوا هذه النصوص ليسوا هم أنفسهم الذين كتبوا النصوص التي على الصخرة". راح يُفَكِّرُ في الموضوع بِ عمق، و بدأ مونولوجه بِ السؤال التالي: لماذا تواريخ نفس الأحداث مختلفة فيما بينها؟

كان ينظر إلى اللانهاية و هو يفكِّرُ في هذه المسألة. افترض نفسه في تلك الساحات التي قرا عنها في أوراقه من ناحية و في دفتر الطبيعة(على الصخرة البازلتية) من ناحية أُخرى. لو كنتُ مرافقا لِ حملة أيّ ملك أو امبراطور، يقول ناريك، و أنَّ هذا الملك يكون قد انتصر على أعدائه، و أكون أنا المكلَّف بِ تدوين هذا الانتصار على صخرة أو جذع شجرة سنديان عجوز أو جلد ثور قوي، ماذا كنتُ سَ أكتب، أو بِ الأحرى كيف كنتُ سَ أُصيغ نبأ الانتصار؟ لِ نأخذ انتصار نبوبلاسر مثالا. كنتُ سَ أكتب التالي: إنَّ ملكنا المعظَّم، ملك بابل، نبوبلاسر هَزَمَ الجيش الآشوري و انتصرَ عليه عام 1212 ب.ط وأصبحت نصيبين ضمن مملكته و...إلخ". طبعا أنا اعتمدتُ الطوفان البابلي بداية التاريخ في بابل. كان يمكن كتابة نفس النبأ لكن في تاريخ مختلف، كَ أنْ نقول: إنَّ ملكنا المعظَّم، ملك بابل، نبوبلاسر هزمَ الجيش الآشوري... عام 4975 م.ت ...إلخ و هنا تَمَّ اعتماد التاريخ الذي فيه تَمَّ ولادة السماء من جسد تيامات، حيث قَسَّمَ الإله مردوخ جسد تيامات بعد قتلها ورفَعَ جزءا منه و جَعَله السماء. وكنتُ سَ أَضعُ لوحة المعركة التي جَرَتْ بين مردوخ و تيامات بِ جانب دفتر الطبيعة الذي يحتوي هذه الأحداث التاريخية العظيمة.

أَمّا عن انتصار الملك الأرمني ديكران الكبير فَ كنتُ سَ أكتبُ النبأ هكذا:" لقد انتزع ملكنا العظيم ديكران الأول ملك أرمينيا، ديكران الكبير ملك ملوك الشرق، مدينة نصيبين من البارثيين في 4500 ن و جعل اسمها من هذا التاريخ أرفاستان". هذا التقويم هو (نافاسارد) و هو العيد (التاريخ) الذي تمَّ اعتماده في أرمينيا بعد انتصار البطل الاسطوري هايك ناهابيت على الملك البابلي الاسطوري بيل(BEL). و هذا التاريخ يدل على بزوغ فجر الأمة الأرمنية، و في 11 آب من كلِّ عام يحتفل الشعب الأرمني بِ رأس السنة الأرمنية حيث كان الانتصار و ولادة الأمة و سُمّيَ هذا العيد بِ عيد نافاسارد كما أَنَّ التاريخ يبدأ منه.

أصبح الاحتفال واحدا من الأعياد ما قبل المسيحية المفضلة للشعب الأرمني. خلال ذلك اليوم كانت الاحتفالات تعمُّ جميع أنحاء الأراضي الأرمنية و كان الجميع يحتفل، من الديوان الملكي إلى الجنود إلى الناس العاديين. و خصص هذا العيد لسبعة آلهة وثنية أرمنية (Aramazd) .والد كل الآلهة (Anahid) .الآلهة العليا (Astghik). آلهة الحب والجمال والمياه (Nane) .آلهة الحرب (Vahagn) .إله الرعد والبرق . ((Miherإله الشمس و ضوء السماء، (Tir)إله الحكمة و العلوم و الدراسات. و كان الناس يعتقدون أنَّ الآلهة جاءت إلى الأرض واستحمَّت في نهر Aratsani ثم صعدت إلى السماء و من هناك شاركت في عيد نافاسارد. و كان من الشائع في ذلك اليوم أن تتم التضحية بِ ثور لِ الآلهة، و يستخدم دمه بوضع علامة على جباه المحتفلين. و تروي الحكايات أن الطاولات في ذلك اليوم كانت تنهار من كثرة الأطباق و الحلويات و الفواكه المجففة. كما كان الصيد الملكي و سباق الخيل من الفعاليات الهامة خلال نافاسارد. كان يعتقد أيضا بِ أنَّ سفينة نوح رَسَت في هذا اليوم على قمة جبل أرارات.

بعد اعتماد المسيحية في أرمينيا، تم تدمير المعابد الوثنية، ومنعت الاحتفالات المعروفة والحج. لم يعتمد Navasard لا في الكنيسة و لا في التقويم المدني، ولكن الأرمن لم ينسوا تقاليدهم و استمر الاحتفال به على مدى قرون عديدة.

أمَّا عن الانتصار الإغريقي، فَ كنتُ سَ أكتب التالي:"لقد سحقَ القائد العظيم اسكندر المقدوني جيوش البارثيين الفرس في المعركة الشهيرة، معركة غوغميلا، وحَقَّقَ انتصارا كبيرا و أَسْقَطَ الامبراطورية الفارسية في عهد الملك داريوش عام 7835 ك.أُ "

هذا التقويم هو تاريخ مقتل أورانوس على يد ابنه كرونوس.

و عن انتصار الملك سبتيميوس سيفيروس على الملك ارتبان الأوَّل في عام 195 م و استرجاعه نصيبين و ضمِّها إلى الامبراطورية الرومانية و جَعْلِها مركزا لِ ولاية سبتميا الرومانية، كنتُ سَ أُصيغ الحدث بِ نفس العبارات و لكن التاريخ كنتُ سَ أضعه في عام 3258 ر.ر هذا التاريخ هو الزمن الذي فيه بنى التوأم ريموس و رومولوس عاصمة وطنهم روما. طبعا هما من سلالة الملوك و أرضعتهما ذئبة كابيتولينا بعد إنقاذهما من القتل المحتَّم .

-8-

حين عاد ناريك إلى ذاته، كانت السماء قد تزَيَّنت بِ النجوم و حَبّات اللألئ الملوَّنة و بِ حفنات من نثار الماس المشعشع. كانت خامة قمَّة في الروعة و الجمال. لوحة فنية لا يمكن لِأيَّة ريشة محاكاتها على الإطلاق. إنها الطبيعة! أُمّ الجمال والخَلْق والإبداع. إنَّها أساس، بل ملهمة، الحُبِّ والحكمة و الفلسفة و الخيال. في الأثناء كان بوبي يَحكُ رأسه بِ ركبة صديقه لِ لَفْتِ انتباهه إلى وجوده بِ جانبه، لكنَّ ناريك كان غارقا في تأمّلاته وحواراته الصامتة مع أرواح الفضاء و الكون. أصدرَ بوبي صوتا ملؤه العاطفة و الود. كان ينظر، هو الآخر، إلى السماء، إلى الزينة البديعة إلى اللوحة العجيبة التي تنبض بِ الحياة و التي أثَّرت فيه بِ شكل إيجابيّ. كان المشهد و كأنَّه أَيقَظَ ذكرياته و حَرَّكَ الصور المختزنة في ذاكرته و أنار عناصر تلك الزواريب والساحات التي كان يلعب ويقفز فيها مع أفراد من سلالته، و في غمرة انغماسه في المشهد و تتابع الصور في خياله بدأ يقفز دون إرادته، أو قُلْ، يرقص على أنغام ذكرياته تجاوبا مع إشارات المايسترو الكوني. كان يُصدرُ صوتا حزينا حين يرى شهابا يخترق الفضاء من طرفٍ إلى طرف حتى انطفائه في اتجاه ما من هذا الكون اللامنتهي. انتبه ناريك إلى حركاته و تواتر الأصوات التي كانت تصدر منه. التفتَ إليه، و في الأثناء رفع بوبي قائمتيه الأماميتين و كأنَّه كان يريد احتضان صديقه و إشراكه في فرحته و سعادته، حزنه، إنفعالاته الإيجابية و السلبية. أمْسَكَ ناريك بِ قائمتيه و لامسَ رأسه بِ جبينه و شرعا في التهامس مع بعضهما .

– أعتقد يا بوبي أَنَّكَ كنتَ تتأمَّل، مثلي، هذه اللوحة الرائعة الخارقة لِ كلِّ مقاييس الجمال الأرضية؟ إنَّه مشهد خيالي بِ كلِّ ما تعني هذه الكلمة من معنى!

– بِ التأكيد يا صديقي! فَ قد كنتُ غارقا في قلب اللوحة، كنتُ أجدني أقفز من فوق نجمة إلى أُخرى وأتركُ نفسي أَتدحرج من فوق الكثبان الفضائية و قُبَيل اصطدامي بِ أيٍّ من الأفلاك، كنتُ أتشبَّثُ بِ جناح نيزك ينتقل إلى الطرف الآخر من الاخدود اللازَوردي. كنتُ أبحثُ عن أفراد فصيلتي، عن هؤلاء الذين انتقلوا إلى العالم الآخر، أو بِ الأحرى، الذين انتقلت أرواحهم إلى العالم الآخر، أي الذين ماتوا هنا على هذه

الأرض. كنتُ أَبحث عن هؤلاء الذين رحلوا إلى السماء و كنتُ أُريد أنْ أَعرفَ مكانهم هناك، هل هم في الجنَّة أم في النار؟.

– مهلا.. مهلا يا صديقي العزيز! هل تعتقد بِ أنَّكم، أي الكلاب، أو بعضا منكم، يعني هؤلاء الذين لم يظلموا كلبا من فصيلتهم و لم يكونوا زناة و ظالمين، بل كانوا ودودين ومسالمين، هل تعتقد بِانَّهم سَ يدخلون الجنَّة؟ و هل هناك حيوانات في الجنَّة؟

– اسمع يا صديقي ناريك! لقد سمعتُ من أحد وجهاء قبيلتنا حين كانوا يتسامرون، عند حلول الظلام، أمام و حول وِجارنا، و طبعا كانت الجَمعة تضمُّ الذكور و الإناث و الجِراء و اليافعين و كبار السن، سمعتُ الحكيم الهَرِم يقول في هذه الجمعة موجِّها كلامه لِ الكبار واليافعين:" يا إخوتي الأعزاء! لقد سمعتُ في إحدى الجلسات المعتادة بين أفراد عشيرتنا، الرئيس الفخري لِمجموعة الوجار الشرقية التي كانت عائلتي تنتمي لها، و في ذلك التاريخ كنتُ صغيرا و كنتُ أَلهو مع الذين هم من عمري، و كان ذلك التاريخ قبل أكثر من قرن و نصْف القرن من الآن، سمعته يقول لهم بِ أَنَّه سمع من أبيه الذي سمع من أبيه والذي سمع هو الآخر من أبيه الذي نَقَلَ حديثا عن كلبٍ شيخ يسكن في وِجار قريبٍ من كهوف تحيط بِ المدينة المنيرة ليلا، هي هكذا (مضيئة) بِ سبب علاقتها المميَّزة بِ القمر وضوئها المقدَّس، بِأَنَّه فوجيء في ليلة قمراء بِ كائن غريب يقف أمامه، كان يشبه الإنسان و أيضا يشبهنا. كان بين الإنسان و الكلب. لم أَتمكَّن من تَمييز شكله ولا طبيعته بِ سبب الخوف الذي أَلَمَّ بي. أسرعتُ بِ الابتعاد منه و دخلتُ فورا إلى الوجار. كان العرق يتصبَّب منّي و كانت أطرافي ترتجف و لم تقوَ على حملي. لجأتُ إلى زاوية بعيدة و خَبَّأتُ رأسي بين قوائمي الأمامية ورحتُ في نوم عميق كَ مَن به حمّة قويّة، لا بل، في غيبوبة عميقة. رأيت خلالها، كَ مَن يرى أحداثا غريبة في حلمه، كائنا خرافيا لا يشبهنا و لا يشبه الإنسان، كائنا رأسه كَ رأس التمساح فيه ثلاث عيون شبيهة لِعيون الغضنفر ذي اللبدة النحاسية، وجذعه كَ جذع عنكبوت عملاق تخرج منه ستة مجسّات، أو أذرع، مرنة جاهزة لِغَزْلِ شبكة حريرية من المادة البروتينية التي تفرزها المغازل الموجودة في أسفل الجذع. كانت تعلو مجسّاته أَجنحة كَ أجنحة الوطاويط. أمّا أطرافه السفلية فَ كانت كَ أطراف تنّين الكومودور. كنتُ خارج الوجار وحيدا أحرس الجراء حين ظهر لي هذا الكائن العجيب. لم أعرف ماذا أفعل، هل أترك جرائي في الوجار لِ المصير المجهول (و ربما يكون افتراسهم هو الاحتمال الأكبر) وأهرب إلى الغابة و أختفي بين الأشجار؟ كنتُ كَ مَنْ سُحِرَ من قوّة مجهولة و بقيت ثابتا في مكاني دون إرادتي أنظر إلى هذا الكائن، بل، هذا الوحش

الخرافي. في الأثناء تقدَّمَ بِ اتجاهي بِ خطى وئيدة. كنتُ مصعوقا بِ كلِّ ما تعني هذه الكلمة من معنى. لبثتُ واقفا أمامه دون أدنى حركة، و كان الخوف قد اتلفَ معظم الخلايا العصبية في دماغي. قلتُ في نفسي سَ يُمزِّقني بِ قضمة واحدة لا محالة. نظرَ في عينيّ و قال لي: لا تَخَفْ! أنا ما جئتُ إليك لِ أُؤذيك أو أُؤذي جِراءك، فَ أنا هنا لِ أحملك معي في جولة إلى السماء لِ ترى وتسمع معجزات إلهنا. مَدَّ أَذرعه نحوي و طلبَ منّي أنْ أَسندَ ظهري إلى بطنه، و قام بِ مساعدتي في ذلك. شرع في غزْلِ الخيوط الحريرية حولي وشَدَّني إلى صدره بِ إحكام تاركا قوائمي الأربع حرّة. بدأ بِ السير إلى الأمام بِ خطى سريعة، و راح يكتسب تسارعا كبيرا مما أَجبره في بَسْطِ أَجنحته و تحريكها و البدء في الطيران و الارتفاع رويدا رويدا إلى الأعلى. في الأثناء انعطف يمينا، و هو يرتفع فوق وجارنا، وكأنَّه يريدني أنْ أُودِّعَ جِرائي. أمّا أنا، فَ ما كان منّي إلّا الصراخ العميق والتخبُّطِ بِقوائمي الأربع في الاتجاهات كلِّها، و لا أدرِ كيف انقطعت خيوط الشبكة، أو كيف انفكَّت وأنحلَّت عُقَدها، وكيف احتضنني هذا العملاق بِمجسّاته المرنة المتينة كما الفولاذ وأَنقذني من السقوط من هذا الارتفاع. إهدأ يا سلوقي! لا تَخَفْ على جِرائك فَ هم في أمان! قالها بِ هدوء و تابع، بعد أَنْ أعاد غَزلِ الخيوط الحريرية حولي، يقول: إنَّ الله الذي أرسلني إليك قد رَتَّبَ كلَّ شيء بِ النسبة إليهم؛ و الآن أريدك أنْ تطمئنَّ من ناحيتهم و أنْ تهتم بِ ما سَ ترى و ما سَ تسمع في هذه الرحلة الفلكية. ارتفع الكائن الفضائي و خلال طيرانه راح يسألني عمّا أرى في الأسفل. قلتُ إنّني أرى الجبال، الغابات، الوجار، الطيور، الحيوانات و البشر أيضا. حَرَّكَ أَجنحته و مضى في الصعود أعلى و سألني قائلا:

– ماذا ترى في الأسفل يا سلوقي؟

– أرى مساحات خضراء و زرقاء و بُقَع بنية. أَراها كَ سفرة طعام دائرية كبيرة منحنية لها حَدَبة واضحة، حوافها منثنية نحو الأسفل. و أرى نقاطا صغيرة جدّا جدّا تتحرَّك على هذه السفرة، إنَّها كَ الحشرات في حركة دائمة تتقاطع دروبها، و يختفي بعضها، و بعضها الآخر تمتنع عن الحركة، أو بِ الأحرى، لم تَعُدْ تتحرَّك. راح يصعد أعلى فَ أعلى، و سألني:

– كيف ترى الأرض الآن يا سلوقي؟

– لا أرى أَيّ كائن حيّ و لا أيّة حركة. و النقاط الصغيرة تلك، هي أيضا اختفت عن الأنظار. إنَّني أرى كرة ملوَّنة بِ الأزرق و الأخضر و موشّاة بِ خطوط بيضاء. إنَّها في الهواء و ليست معلَّقة بِ أيّ شيء و حولها ظلام دامس .

– حسنا يا سلوقي! نحن الآن نتَّجه نحو ممالك الله لكي تَتَعرَّفَ على حكمته و عدله و ميزانه، و لكَ الحقَّ في أنْ تسأل عن أيَّة مسألة، أو أيّ مشهد يثير دهشتك و يبعث الخوف و الشكَّ في نفسكَ. نحن نطير في هذا الفضاء بِ سرعة غير محدودة، نسير كَ أيّة ذرَّة من هذا السديم اللامنتهي. والآن، وللمَرَّة الأخيرة أسألك. كيف ترى الأرض؟

– إنّي بِ الكاد أراها، فَ هي كَ حَبَّة عَدَس، و ها هي تختفي رويدا رويدا بين هذه الكرات و الأحجار و الأفلاك العجيبة.

تابع الرسول الخرافي طريقه قاصدا الجنَّة التي وعدَ الله المؤمنين و الشهداء بِ دخولها. بعد كَمْشة من الوقت الفلكي، أو بِ الأحرى، بعد تجاوز عدَّة نجمات في هذه الواحة البرّاقة، لاحَ لهم، في البعيد، بقعة ضوء تحيط بها هالة ضخمة من الضباب الفضيّ المائل لِ السواد. اتجه رسول الله نحوها، و كانت البقعة تتكشف لهم كلّما اقتربوا منها. و عند مسافة ليست بِ بعيدة منها بدأت تصدر منها أصواتا مسموعة، و عند اقترابهم أكثر صارت الأصوات واضحة تماما. في الأثناء راح سلوقي يتأوّه و يتخبَّط من شدّة خوفه، فَ هو يسمع صراخ و أنين و صريف أسنان و بكاء كائنات مختلفة الأنواع صادرة من هذه البقعة الملتهبة. يسمع استغاثات و بكاء البشر، و يسمع عويل و زئير و نباح الحيوانات من نفس هذا المكان. سأل الكائن الخرافي، الذي يحمله، عن هذا المكان، فَ كان جوابه. إنَّه الجحيم، الجهنَّم. إنَّه المكان الذي خَصَّصه الله لِ معاقبة الكفّار و الظالمين و ذلك بِ جَعْلِهم يحترقون في هذه النار إلى الأبد ودون أنْ يموتوا. اقترب الرسول من أسوار الجحيم بِ حيث باتت الصورة واضحة وصار بِ إمكان المرء مشاهدة نزلاء الجحيم بِ وضوح تام. اعتقدَ بِ أنَّهم سَ يحترقون إنْ اقتربوا أكثر، لكنَّهم كانوا محميين بِ أمْرِ الله من هذا الوهج و هذه الحرارة التي تفوق حرارة الشمس. كان يسمع استغاثات البشر و أنين بني قومه و أفراد فصائل حيوانية أُخرى. رأى المرأة التي كانت تعتني بِجِرائهم، بِ مَنْ فيهم هو ذاته، و شاهد الشاب الذي كان يطعمهم و يلهو معهم، و الشيخ الذي كان يداعب رأسه حين كان جروا حديث العهد. إنَّهم لم يكونوا ظالمين، قال في نفسه، و لم يكونوا مجرمين، بل كانوا لطفاء، مسالمين و محبين لِ الآخرين، فَ لماذا هم في هذا المكان المخصَّص لِ المجرمين و الظالمين و الكفّار. ربّما هم هنا لأنَّهم كُفّار، و ماذا يعني كُفّار؟ توجَّه إلى الكائن الخرافي، إلى حيوان الله،

يسأله عن هذه المسألة قائلا: لِماذا هؤلاء المسالمين الشرفاء هم هنا في هذا الجحيم؟ أجابه، لأنَّهم كُفّار. و ماذا يعني ذلك، هل يعني بِ أَنَّهم لصوص، مجرمين، زُناة، قُطّاع طرق؟ سأله سلوقي.

– لأ إنَّهم ليسوا كذلك! و إنَّما لأَنَّهم لم يؤمنوا بِ آخر رسالة أَرسلها الله إلى الساكنين بِ جِوار كثبان الرمال و الكهوف المنتشرة في الصحراء المقدَّسة، لم يؤمنوا بِ أَخَر شريعة كان الله قد كتبها منذ الأزل و كان محتفظا بها هنا في السماء السابعة. لم يفهم ما قاله عن الكتاب و الرسالة و الشريعة، و قال في نفسه: إذن نحن أيضا سَ ندخل في قلب هذا السعير الملتهب. كان المشهد مرعبا، و صيحات و صراخ و تأوّهات و أنين تلك المخلوقات التي تحترق في هذا الأتون اَثَّرَت في روحه، و خارت قواه كليّة و صار كَ جثَّة هامدة بين أذرع الكائن الخرافي. في الأثناء، تابع حيوان الله طريقه، بِ سرعة الأفلاك، بِ اتجاه الجَنَّة. كان (سلوقي) مغشيا عليه، غائبا عن الوعي، لم يرَ النجوم المشعشعة التي يجتاز حدودها، و لا الكائنات التي تتقابل معهم. كان الرسول يعلم بِ حالته و يعرف بِ اَنَّه في سبات عميق نتيجة الصدمة الكونية. لكنَّه رأى بِ أَنَّ الوقت قد حان لِ يستيقظَ و يتابع المهمة بِ نجاح؛ لذلك حَرَّكَ رأسه و قوائمه بِ أذرعه إلى أن استفاق من غفوته. كان يُوَأوِئ و يبرطم كلاما غير مفهوم و كَ أَنَّه كان يهذي. عَلِمَ حيوان الله بِ حالته، و عَلِمَ بِ أَنَّه ما زال تحت تأثير الصدمة. في الأثناء كان قد اقترب من الجنائن المعلَّقة، لذلك راح يُنَبِّهه لكي يستفيق و يُصححصحَ في هذه اللحظة التاريخية من عمره وعمر سلالاته. تناهى إلى مسامعه أصوات بشر وحيوانات و كَ أَنَّهم يُغنون، يضحكون ويمرحون. راح ينظر إلى البعيد، ينظر إلى كلِّ الاتجاهات و يُشَنِّف آذانه كي يلتقط الذبذبات من الجهة التي تصدر منها. كان رسول الله يقترب من المكان الذي تصدرُ منه تلك الأصوات. صارت الأمور تتوضَّح أكثر من ذي قَبْل، فَ كان هناك، مِنْ ضمن الأصوات، غناء وعَزْف و أصوات الطيور المغرِّدة و تنهدات العذارى و حمحمة الذكور كَحَمْحَمَة الثيران الهائجة حين تعتلي إناثها. كان مندهشا ممّا يسمعه وأَكَّدَ لِ نفسه بِأَنَّه في طريقه إلى الجنّة، و لِ قَطعِ الشكِّ بِ اليقين، سأل رسول الله عن المكان الذي يقتربون منه .

– إنَّه الجنَّة! قال رسول الله .

– هل يمكنني مشاهدة المكان مِنَ الداخل؟ سأله سلوقي.

– سَ أَسأل الله إنْ كان الدخول مسموحا لكَ، و كم من الوقت يمكن السماح به لِ التجوّل في هذه الأرجاء. و شرع الرسول في الاتصال مع الله بِ خصوص استكشاف المجريات مِن قِبَل هذا الكلب الملحد الذي لا دين له و لا لِ سلالته، هذا الكلب الذي لا يعرف مِنَ الأديان شيئا.

خذه إلى الداخل! قال الله، و دَعْه يرى كلّ الأجنحة (جناح الحوريات، جناح الكواعب الأتراب، جناح الغلمان، القيّان، الخصيان، الولْدان) و أيضا دعه يرى نكاح المؤمنين و الشهداء لِ الحوريات، و نكاح الحيوانات لِ إناثهم و منهم أفراد سلالته. رافِقْه إلى مجالس الطعام حيث اللحوم المشوية لِ أنواع من الطيور والقنافذ والأرانب و الحملان الحديثة الولادة، وادخلوا مجالس الشراب حيث الخمور المعتَّقة و اللبن الطازج و العسل الصافي!. نزلَ رسول الله ومعه الكلب المحترم اللاديني. حَرَّره من الشبكة ومن مجسّاته وصارا يسيران في الجنَّة جنبا إلى جنب. شاهد رجلا يمارس الجنس مع حورية، آية في الجَمال، على بساط من سندس تحت الشجرة المباركة. كان يحمحم كَ الثور و هو ينكحها. أشاح سلوقي وجهه عن هذا المنظر المخزي، شعرَ بِ خجل من هذا العهر الفاضح. سمعه ينادي، بعد انتهائه من مضاجعة الحورية الأولى، على الخدم و هو يمسح لعابه من على لحيته: هيّا يا غلام أَدْخل الحورية السمراء! و راح ينكحها دون أنْ يُقيمَ لِ الحياء وزنا. وجِيء بِ الثالثة و الرابعة و الخامسة و الحادية و الخمسين... كان يمارس الجنس معهنَّ بِ نفس الطاقة التي كانت لديه حين مارس مع الحورية الأولى. شاهد نفس المشهد في أرجاء مختلفة. ذكور ينكحون الحوريات دون توقّف. و في الجِوار رأى ذكورا يرقصون، يغنّون، يشربون أنواعا من الخمور المستحضرة في خمّارات السماء تحت إشراف الله ذاته. التفتَ إلى الرسول و قال له: ما هذا يا رسول الله، أَ ليس من المعيب أنْ يفعل هؤلاء هذه الأفعال الشنيعة من نِكاح و شرْب خمر و عربدة فاضحة هنا في مملكة الإله الأعظم إله الخليقة؟ ثمَّ ما هذه الطاقة الذكورية التي يمتلكونها، إنَّهم يضاجعون الإناث على مدار 24/24 ساعة كونية، من أين لهم هذه الطاقة الجنسية الرهيبة؟ قال الرسول: إنَّ الله يمنحهم هذه الطاقة لِ يُعَوِّضهم مباهج الدنيا هنا في أحضان هذه الحوريات لأنهم القتلى الذين قضوا و هم يدافعون عنه. إنَّه (الله) يفعل ذلك كَ مكافأة لِهؤلاء الفدائيين الذين قُتلوا في غزوات مقدّسة لِ نَشْرِ شريعته ودينه في دول الكفّار، ولِهؤلاء الانتحاريين الذين قَتلوا الناس دفاعا عنه. إنَّهم الشهداء، شهداء دفاعا عنه وعن دينه، الشهيد ينتقل بِ شكلٍ آلي إلى الجنّة حيث هذه الحوافز والمُتَعَ الإلهية. تَنَقَّلَ سلوقي في أرجاء الجنّة يبحث عن بني قومه. كان يخشى أنْ يرى أفرادا من عشيرته في ذلك المشهد المخزي، كان واثقا من أخلاق سلالته، واثقا من

طُهْرِهم و نقاء أرواحهم، و أَنَّهم من غير الممكن أنْ ينحدروا إلى هذه الأخلاق الدنيئة الساقطة، حتّى لو خدعهم الله و جلبَ بعضا من سلالته إلى ما يسمّى الجنّة، التي هي أشبه بماخور منه إلى مكان محترم .

– ماذا يفعلون، أو بِ الأحرى، ما هي الأعمال التي يقومون بها هنا؟ سأله سلوقي، و تابع سؤاله. هل يقرأون الكتاب الذي كتبه الله لهم، كما قلتَ، منذ بدء الخليقة، و هل يصلّون و يصومون، هل يهتمون بِ الجنائن و الحدائق؟

– قلتُ لكَ إنَّ الله يقدِّم لهم هذه المباهج و المتع الجنسية كَ مكافأة لقاء جهادهم الذي قاموا به هناك على الأرض، حيث غَزوا ديار الكفّار و أَدخلوهم في دين الله، أمّا الذين لم يقبلوا بِ دين الله فَ قتلوهم و سبوا نساءهم وذراريهم و استعبدوهم لِ خدمتهم هناك، و قد كافأهم الله في الأرض أيضا حيث أَنَّه أعطاهم الحقَّ في امتلاك النساء قَدْر ما يشاؤن و الاستمتاع بهنَّ متى يشاؤن و كيفما يشاؤن، وسَمَحَ لهم الاستمتاع جنسيا بِ الأطفال أيضا (ذكورا و إناثا). إنَّهم هنا فقط لِ افتضاض بكارات الحوريات العذارى و ممارسة الجنس المُباح و تناول الأطعمة و احتساء أَلَذّ أنواع الخمور. لا عَمَل لهم سوى ذلك، و حتّى الصوم و الصلاة لا وجود لها هنا كي لا يَضيع وقتهم و يخسروا المباهج و المتع الجنسية .

– لماذا لا أرى نساء الأرض أيضا يستمتعن بِ الملذّات الجنسية، أيْ لماذا لا توجد نساء يتناوب عليهنَّ ذكور الجنّة واحدا بعد الآخر، لماذا لا تحظى المرأة المجاهدة بِ خمسين شابا جميلا فحلا مفتول العضلات كي تستمتع، هي الأُخرى بِ هذه اللذة الجنسية، كما يفعل المجاهدون؟ لقد تفاجأ الرسول، كما يبدو، من هذا السؤال الغريب. و لأنَّه مُكَلَّف بِ مهمّة سماوية، فَ عليه أَنْ يُجيبَ على كلِّ الاستفسارات و الأسئلة الموجَّهة إليه. فَ كانت إجابته أنَّه لا يعرف، و قال: سوف أسال الله عن هذه المسألة و سَ أُطلعكَ على الإجابة فَوْرَ حصولي عليها. طلبَ منه أنْ يسند ظهره إلى بطنه، كما في المرَّة الأولى، لِ يُصار إلى تثبيته بِ خيوط الشبكة الحريرية. طار الرسول مبتعدا من الجنّة بِاتجاه مجهول. في الطريق كان الله يرشده إلى المسار الذي سَيسلكه. كان سلوقي يشعر بِ ارتخاء الشبكة من حول جسده لكنَّه كان واثقا من حرص الرسول على أَمْنه. بعد اجتياز مجموعتين من الكويكبات، رأى هوَّة سحيقة يصدر منها صدى صفير زوبعة كونية. كانت الهوَّة كَ بئر دون قرار، بل، كَ وادٍ سحيق في العمق يلفُّه ظلام دامس. راح الرسول يطير فوقه لِ يصلَ إلى الطرف الآخر منه. في الأثناء شعرَ و كَ أَنَّ قوَّة رهيبة تسحبه إلى أعماق المتاهة الكونية، و ما هي إلّا لحظات فلكية حتّى

رأى نفسه يسقط في فم هذا الوحش الكوني، هذا الوادي المظلم، و راح ينبحُ بِ ما أوتي من قوّة و عزيمة. في الأثناء رأى نفسه أمام الوجار سارحا في المجهول، و سقوطه في جوف ذلك الوادي المظلم السحيق إنَّما كان في الحلم ولم يكن في الحقيقة .

– هكذا إذن يا بوبي!(قال ناريك)، فَ الكلب(سلوقي) انخطفَ في المنام، أو حَصَلَتْ له رؤيا، أو أُسْرِيَ به على ظهر ذلك الحيوان السماوي الذي ربطه بِ الخيوط الحريرية و انطلق به إلى السموات السبع، و الذي رواه كان ما رأه في المنام وليس في الواقع و الحقيقة.

– هذا ما سمعته من حكمائنا و الكبار في السن يا ناريك. و مهما يكن، فَ الذي سمعته أثار تساؤلات جوهرية لديَّ، و منذ ذلك التاريخ بتُّ أُفَكِّرُ بِ شكلٍ جدّي في تلك المسائل، أقصد الجنَّة و الحوريات و النكاح المتواصل لِ أعداد كبيرة من الحوريات في حضرة الله، و حفلات المجون و العهر و العربدة هناك في أَقدس مكان من مملكة الله. أنا حزين يا ناريك لِ ما سمعته وسيكون الأمر أَكثر صعوبة عليَّ إنْ كانت رؤيا الكلب سلوقي صحيحة .

– لا عليك يا بوبي! فَ المسألة بِ حاجة لِ البحث و التقصّي، و سوف أُساعدكَ في ذلك لِ أَنَّني سَ أَحصل على المعلومات المتعلِّقة بِ تفاصيل الحياة في الجنَّة و الجحيم، لِ اَنَّ هذه المسألة تدخل في علم اللاهوت لدينا يا صديقي. و الآن أريد أَنْ نخلدَ إلى النوم، فَ كُنْ الحارس الأمين في يقظتكَ و منامكَ يا بوبي!

استلقى ناريك على الدكّة. أَمّا بوبي فَ راح يجول حول الكهف بين أشجار الغابة و شجيرات الأجمة القريبة بحثا عن طعام له و لِ صديقه.

-9-

مع بزوغ الفجر كان ناريك يسير، بِ رفْقة صديقه، في الدروب الضيّقة من الجبل بِ اتجاه الشرق. كانا قد نزلا إلى سهول إيزلا بعد مسير ساعتين من الزمن الأرضي. كانت أصوات الفلاحين و المزارعين تتناهى إلى مسامعه. اجتاز أشجار الحور، التي كانت بِ مثابة سور لِ الحقول و البساتين بِ عرض مئة متر تقريبا. رأى نفسه يسير قريبا من الأراضي الزراعية و من البساتين و المَزارع. شاهد فلاحين و مزارعين في بعض الحقول الموزَّعة إلى جانبه و إلى أمامه. صار يسمع أغاني و مواويل أولئك الذين يعملون في الأرض. كانت البيوت تبعد مسافة ساعة إلى ساعة و نصفها، سيرا على الأقدام، من حقولهم و بساتينهم. رأى من بعيد أماكن استراحاتهم والتي هي عبارة عن أربعة أوتاد مغروزة في الأرض عموديا، وعليها أغصان الأشجار والنباتات الطويلة و باقات الزلل (القاميش) النهرية مجدولة بِ الأوتاد من أطرافها العلوية، وعلى جوانبها بساط من الزلِّ المجدول. وعند معظم هذه الخِيَم النباتية(الاستراحات) كنتَ ترى الحمير والكلاب الأهلية، وأحيانا كانت العربات مركونة وإلى جانبها تكون الأحصنة أو الحمير مربوطة ريثما يَحين وقتَ نقل المحصول. كان الطريق الذي يسير عليه يمرُّ بِ جانب أرض زراعية تَمور بِ الحيوية، حيث يعمل فيها قرابة عشرة فلاحين من الرجال و النساء. كانوا يُنَظِّفون الأرض من الأعشاب الضارة و كانوا يُغَنُّون، كما الميجانا، كَ فريقين. سمعتُ غناءهم، يقول ناريك، و عند اقترابي من الحقل عرفتُ بِ اَنَّهم يُغنّون أغاني سريانية كنتُ قد سمعتها في البلدة من أصدقائنا و جيراننا السريان. في الأثناء، و على الطريق نفسه، كان ثلاثة أشخاص يأتون من القرية المجاورة، و التي بِ الكاد كانت بيوتهم تُرى من هذه المسافة، بِاتجاهه لِ الذهاب إلى حقولهم. التقوا في الطريق، بعد مسافة زمنية ليست بِ الكبيرة. ألقى الرجل، الذي يَقود الحمار من رسنه، السلام عليه قائلا: مَرحوبو! كان ناريك يتوقَّع منه أنْ يقول له شلومو، أَمّا هذه التحيَّة أيضا هي معروفة لدى ناريك، فَ هي نفسها التي يستخدمونها بِ العربية (مرحبا). رَدَّ ناريك تحيَّته بِ مثلها قائلا: مرحبا! تَمَهَّلَ الرجل و المرأة و الفتى اللذان كانا معه و توجَّه إلى ناريك بِ الحديث .

– يبدو أَنَّكَ غريب عن المنطقة، أهلا بكَ في بلدنا نصيبين! نحن أصحاب ذلك الحقل، أشار بِ يده إلى الحقل المتاخم لِ ذلك الذي كان هؤلاء الفلاحين يغنّون فيها.

أنا اسمي ماروكي و هذه خزمة مرتي و هذا ابني كبرو. نحن جاهزون لِ مساعدتك في مسعاك كي تصلَ إلى غايتكَ بِ اَمن و سلام. قُلْ لنا يا أخي حاجتك و هدفك لكي نُقدِّمَ لك اللازم !

– أنا سعيد لِ كوني هنا في نصيبين، اسمي ناريك و هذا كلبي الأمين بوبي! مَسْكَني هو تحت الخَط الفاصل بين نصيبين و بينه. أنا من البلدة التي يَمرُّ منها نهر الجغجغ الذي يشتهر بِ مستعمرات الزلل المنتشرة على طول ضفَّتيه، إنَّها مدينة القامشلي. أشعر بِ الأمان والطمأنينة هنا في نصيبين العريقة، و أشكر لكَ هذه البادرة الإنسانية و هذا اللطف، و سوف أُخبركَ عن هدفي ومقاصد رحلتي، لكن وقبل أنْ أَعرض عليك حاجتي أريد أنْ أَعرفَ السبب الذي جعلك تلقي السلام عليَّ بِ اللغة العربية بِ الرغم من أَنَّكم سريان و لغتكم هي السريانية (الآرامية) لغة السيد المسيح، أو بِ الأحرى، اللغة التي تكلَّم بها السيد المسيح، فَ أنا عندما كنتُ أسير على هذا الطريق، سمعتُ الأغاني من هناك، أشار إلى المجموعة التي تعمل و تغنّي في الحقل الذي أصبح خلفه، فَ هم يغنّون الأغاني السريانية، وأعرف اَنَّ أهل نصيبين وماردين و ميافارقين، يعني أهل طورعبدين هم سريان و لغتهم هي السريانية و مع ذلك فَ أنتَ ألقيتَ التحية بِ العربية (مرحبا). استغرب الرجل مما سمعه من ناريك بِ خصوص هذه التحيّة بين الناس، و استغرب حين قال بِ اَنَّها عربية. لذلك راح يشرح له معنى هذه التحية، و بَيَّنَ له بِأَنَّها ليست بِ اللغة العربية وإنَّما هي بِ اللغة السريانية و معناها (الله محبَّة). اندهشَ ناريك من هذه المعلومة القَيّمة و شكره عليها. فَكَّرَ بينه و بين نفسه، كيف لم أنتبه إلى أَصْلِ هذه الكلمة، ربَّما لأنَّ أصدقاءنا و أهلنا السريان، في بلدتنا، كانوا يلقون التحية بِ السريانية المعروفة (شلومو، بريخ سفرو...إلخ). في الأثناء كان بوبي يَتَمَسَّح بِ رجْلِ ناريك و يُصدرُ صوتا خافتا، و كَ أَنَّه يطلب منه متابعة السير. داعبَ ناريك رأس صديقه و همسَ له قائلا: حسنا يا بوبي سَ نتابع المسير بعد أَنْ نشكر أفراد هذا القوم الطيّبين و أَدلّهم على الهدف الذي أريد الوصول إليه. لكنَّ الرجل الطيّبَ أَبى أنْ يرحل ناريك و كلبه قبل أن يستضيفهم إلى طعام الغداء في منزله. لم ينجح ناريك، رغم كلّ المحاولات و الاعتذارات التي ساقها لِ الرجل، في إقناعه بِ إعفائه من البقاء على الغداء. في الظهيرة كانوا جالسين حول مائدة الطعام. دار حديث بين ناريك و صاحب الدار و بعضا من أهله و ضيوفا آخرين كان قد دعاهم إلى الطعام على شرف وجوده، كَ ضيف من خارج البلدة. كان ناريك قد عَرَّفَ نفسه واهتماماته وهدفه من هذه الرحلة التي سَ تشمل بلادا من الشرق و من ثمَّ سَ يتَّجه نحو بلدان في الشمال و في الغرب، و بَيَّنَ رغبته في دراسة اللاهوت و التعمُّق في معرفة علاقة الروح بِ الجسد و

معرفة مصير الروح بعد موت الكائن، كائنا مَن كان هذا الكائن حيوان نبات إنسان.
توجَّه أحد الضيوف إلى ناريك، يبدو عليه الكِبَر و الوقار، و تبيَّن فيما بعد بِ أَنَّه ضليع في المعرفة و علوم الفلك و اللاهوت، يُدعى الملفان دنحا أو دنحو كما كان البعض يناديه بِ هذا الاسم، يُحَدِّثه قائلا:
– أُهنِّئُكَ على اختياركَ لِ هذا الطريق يا ولدي! طريق البحث و المعرفة، طريق الوصول إلى حقائق الأسرار اللاهوتية الصعبة. هناك الكثير من الأسرار المتعلِّقة بِ الإنسان، سلوكه الشخصي، الاجتماعي، أفكاره، معتقداته، إيمانه و دينه. كما هناك أسرار أكثر تعقيدا من التي ذكرتُها و هي تنتمي إلى تلك التي تبحثُ عنها أنتَ بِ ذاتكَ، و تلك هي الأسئلة الأعمق التي تتعلَّقُ بِ خالق الأكوان و الكائنات و الحياة، التي تتعلَّق بِ الله نفسه بدءا من الشكِّ بِ وجوده و انتهاءا بِ طبيعته و كينونته و وحدانيته، جَنَّته و جحيمه .

– أشكركَ على تشجيعك إيّايَ فيما أنا مُقْدِم عليه يا ملفونو المحترم! قال ناريك، و راح يتابع كلامه قائلا: أنا أيها المعلِّم الجليل! منهمكٌ في التفكير في بداية الخلق، كيف خلقَ الله الإنسان و الأكوان و الحياة، و هل ما قرأتُه في الكتاب المقدَّس عن قصّة الخلق هو الحقيقة، أم هو خيال الفلاسفة المبدعين الذين استطاعوا التحليق في الفضاءات وتَخَيُّل الخَلْق كما وصلَ إلينا في العهد القديم؟ هل فعلا آدم خُلِق بِالطريقة الموصوفة في الكتاب المقدَّس، و هل فعلا الله أخذَ ضلعا من آدم و خلقَ منها حَوّاء؟ إنَّني أَتَعذَّب أيها المعلّم الجليل حين تراودني هذه الأفكار. و لا أعرف إنْ كنتُ في الطريق الخطأ من البحث أم في الطريق الصحيح؟ و لكن الذي جعلني أسير في هذا الطريق هو الكلام الذي قرأته على لسان السيد المسيح والذي يُشجِّع من خلاله البحث، الشكَّ، السؤال، و أعتقد جوهر كلامه كان:" إنْ كنتَ تريد أنْ تصير كاملا كما أبيكَ الذي في السموات فَ افعل لكي تصل إلى الكمال" طبعا أنا لم يَحْضرني ما ورد في الإنجيل(بِ هذا الخصوص) حرفيا، و لكن أعتقد بِ أنَّ هذا هو المضمون. و في كلِّ الأحوال يمكننا أن نفتح الكتاب المقدَّس لِ نقرأ الكلام حرفيا كما ورد. دعوة المسيح لِ الإنسان إلى الكمال كان هو الحافز الذي دفعني إلى هذا الطريق يا ملفونو!

– اسمع يا ناريك! أنا مع جوهر كلام السيد المسيح بِ هذا الخصوص، فَ مِن حَقِّ الإنسان أنْ يسأل و أنْ يستفسر و يُشَكِّكَ و ينفي و يؤيّد كلّ مسائل الحياة بما فيها المعتقدات الدينية، قال ماروكي.
كانت الآراء متباينة حول هذه الأمور الدينية، و لكن كان هناك احترام متبادل بين

أصحاب تلك الآراء المختلفة فيما بينها. كان ناريك يريد مغادرة الدار قُبيل الغروب، لكن صاحب الدار و الملفان دنحا اعترضا على خروجه في مثل هذا الوقت و اتَّفق الجميع على متابعة رحلته نهار الغد. في المساء كان كاهن الكنيسة قد انضمَّ إلى الملفان دنحا و ماروكي و ناريك. دار معظم الحديث بينهم في هذه الجلسة المسائية حول مسائل الإيمان المسيحي. أَخذّ النقاش منحى الحديث الذي دار، في الظهيرة، حول مائدة الغداء. عَلَّقَ الملفان على قصَّة الخَلْق التي تعرَّض لها ناريك في فترة الظهيرة. و كان رأي الملفونو متَّفقا مع رأي الكاهن، حيث كان قد قال في هذا الموضوع:"إنَّ قصة الخلق التي ورَدَت في الكتاب المقدَّس (العهد القديم) هي بداية الخطة الإلهية التي مَهَّدَت لِ أنبياء التوراة في التنبؤ بِ مجيء السيد المسيح المخلِّص. إذا كانت قصّة الخلق هذه غير حقيقية فَ ذلك يعني أنْ لا حاجة لِ قدوم المخلِّص. لقد جاء المسيح لكي يُخَلِّصَ الإنسان من الخطيئة الأصلية. إذن، لكي يأتي المخلِّص، لا بُدَّ من وجود الخطيئة الأصلية، و هذه الخطيئة هي عصيان آدم لِ الإرادة الإلهية و نتيجة لذلك طرده الله من الجنَّة مع امرأته حوّاء، و أعتقد بِ أَنَّكَ قرأتَ العقوبة التي أنزلها الله بهما، و حُرِما(بِسبب الخطيئة تلك) من ملكوت السماوات و صارت حياتهما، و حياة ذريّتهما، الأبدية في الظلمة. إنَّ خلاص الإنسان من نير الخطيئة و خلاص حياته، و حياة نسله، الأبديّة يعتمد على الذبيحة الإلهية التي قَدَّمها الربُّ الإله من خلال تجسّده في شخص السيد المسيح ومَوته على الصليب كفّارة لِ ذريّة آدم و حوّاء. أَمّا إذا كانت هناك ملاحظات حول الكيفية التي بها خَلَقَ الله آدم، و من ثمَّ حوّاء، فَ يجب ألّا ننسى بِ أَنَّنا نتحدَّث عن الله القادر على كلِّ شيء، الله الذي لا يخضع لِ مقاييس الزمان والمكان ولا يخضع لِقوانين الفيزياء والكيمياء ولا لِقوانين الطبيعة أيضا. إنَّه الجزء والكلّ، هو المعلّم، الصانع، الخالق، إنَّه فوق الواقع و الممكن و المستحيل. فَ أنا يا عزيزي ناريك مقتنع ومؤمن بِ صفات الله وعرشه وقدرته الكليّة. أيَّده الملفان في مسالة عصيان آدم و سقوطه من الجَنَّة، و العلاقة بين تجسُّد الربّ الإله و موته على الصليب مع الكفّارة التي حصلَ عليها المؤمن بِ الإله المتجسِّد في ناسوت يسوع المسيح. أَمّا ماروكي، فَ كان يُرَكِّز على حريّة المؤمن في كيفية الإيمان بِهذه القصة وبِالخلاص الذي قَدَّمه السيد المسيح على الصليب. كان الوقت يمضي سريعا و كانت المواضيع التي يتناقشون حولها عميقة و معقَّدة. و لم يكن بِ إمكان أيٍّ منهم الإتيان بِ البراهين و الدلائل المادية على صحّة رأيه. جميعهم كانوا يجتهدون في شَرْحِ آرائهم، أو بِالأحرى، شَرْحِ معتقداتهم الغيبية محاولين إثباتها من خلال إيمانهم الراسخ بها، هذا إنْ لم نَقُلْ، تعصّبهم لِ إيمانهم. مضى الوقت سريعا، قال الملفان دنحو، كان بِ ودّي

أنْ نستمرَّ في هذا الحديث الشَيِّق و المفيد، لكنَّ ضيفنا العزيز ناريك يجب أنْ يرتاح لِ يتابع رحلته غدا، بِ عون الله، إلى غايته و أرجو أنْ نلتقي في المستقبل، يا ولدي، بعدَ أنْ تكونَ قد نلتَ قسطا وافرا من المعرفة في الفلسفة و اللاهوت و الفلك. ألقى ناريك نظرة على صديقه بوبي، قبل النوم، كان ماروكي قد أدخله إلى الحوش، حيث الحيوانات الأليفة تلهو و تأكل و تحرس الدار بِ مَن و ما فيها. أمضى بضع دقائق حميمية معه. كانا يتعانقان، و كأنَّهما يَطمئنَّان على أحوال بعضهما. خلال سهرة المساء، كان ناريك قد استعلم عن أماكن العبادة و الأديرة من هؤلاء الذين أَمضوا السهرة معه. في صباح اليوم التالي خرجَ مع كلبه على الطريق بِ اتجاه الدير الكائن على كَتف جبل إيزلا من الشرق. كان أصحاب الدار قد حَمَّلوه زوّادة طعام، و ملؤوا مطرته بِ ماء البئر العذب. حين خرجا من منزل ماروكي، بدأت الحيوانات بِ طقوس الوداع، على طريقتها الخاصة، كانت الدجاجات تُقرقر دون انقطاع، و الحمامات تَهدلُ وهي ترفرف بِ أجنحتها فوق رأسيهما في ارتفاع منخفض، و بِالكاد كان هديلها يُسْمَع، والبطّاط تصرخُ بِ زعيقها المعتاد والكلاب تنبح بِ طريقة غير مألوفة، و حتّى الديَكة كانت تصرخ، بِالرغم من أَنَّها لا تفعل ذلك، غالبا، إلّا في الفجر حيث أنّه يدعو النيام لِ الاستيقاظ من نومهم في هدأة الطبيعة. كان بوبي ينطنط و يُحرّكُ ذيله سريعا، يمينا و يسارا، وكان ينبح نباحا متوائما مع أصوات الحيوانات التي كانت، و كَ أَنَّها، تصدر من جوقة تعزف سيمفونية الوداع. كان بوبي يَردُّ على أصواتهم حتّى حين ابتعدوا عن منازل البلدة، و من تلك المسافة كان بوبي يلتقط أصواتهم، عدا هديل الحمام. أَخذَ ناريك الطريق الصاعد إلى قمة جبل إيزلا، و لكن مقصده لم يكن قمَّة الجبل، و إنَّما الدير الذي يقع على سفح الجبل بارتفاع 700 متر تقريبا عن مزارع و حقول نصيبين. يبعد الدير عن البلدة بِمقدار ثلاثة أرباع النهار مَشْيا على الأقدام، كما قال له الملفونو والكاهن، وليس أيَّة وسيلة أُخرى. كان بوبي يسبقه متعمِّدا. يدخل بين الأشجار المنبثقة جذورها من تحت صخور المنحدرات التي تسند أكتاف الجبل. يذهب في عمق غابات الصنوبر و السرو. يختفي في المنعطفات حيث تحجبه الأجمات و الشجيرات الشوكية في جوفها. يظهر، فجأة، أمام ناريك على مسافة غير بعيدة و يبقى يقفز و يحرِّكُ ذيله و كأنَّه يلعب معه، أو يدعوه لِ الاستمتاع بِ هذه الطبيعة الخلّابة. كان ناريك يبتسم، في سرِّه، لِ حركات صديقه و كان يناديه حين يختفي عن أنظاره. كان يفكِّر في الدير، في الرهبان، في المكتبة، في الكتب ونوعيتها و اللغات المكتوبة بها، في النظام المُتَّبَع فيه...إلخ من هذه التساؤلات الجوهرية التي كانت تشْغل دماغه. كان ناريك قد صعد مقدار نصف نهار وسبع درجات بِاتجاه الغرب. بَقيَت المسافة بينه وبين الدير خمسين

درجة في نفس الاتجاه، أي أَنَّه سَ يَصلُ إلى الدير في الساعة 147 درجة حيث يكون الشمس قد مالَ نحو الأفق و لم يبق بينه و بين الغروب إلّا مسافة عشرين درجة فقط. انتحى هو وصديقه عن الطريق و أَخذا من الفسحة التي تمتد إلى يمين منعطف واسع من إحدى مصاطب الجبل الأخضر استراحة لهما، حيث ظلال الأشجار الباسقة و الضخمة توفِّرُ فيئا باردا. قعدَ ناريك تحت شجرة سرو عملاقة و أَسندَ ظهره إلى جذعها الضخم. شربَ قليلا من الماء البارد من مطرته و عَلَّقها على أقرب غصن تطاله يده. كان بوبي يستكشفُ ما بين الشجيرات بِ حركات يُظْهرُ من خلالها مهاراته كَ كلب. كان ناريك ينظر إليه و يتأمَّل حركاته الرشيقة، انزلاقه بين الأغصان، انقضاضه المفاجئ على هدف وهميّ، زمجرته في وجه عدوٍّ أو فريسة افتراضية، تربّصه عند زاوية شجيرة طرفية من الأجمة. اقترب بوبي، بعد هذا الفصل المسرحي الجميل، من صديقه و قعد إلى جانبه. راح ناريك يُمَسِّدُ على رأسه و يفرك جبينه، بين فكَّيه و تحت رقبته. استرخى بوبي على فخذ صديقه. يجب أن ترتاح يا صديقي! قال ناريك، فَ لا زال أمامنا مسافة لا بأس بها لِ الوصول إلى الدير. معك حَق! أجابه بوبي. و في الأثناء استسلمَ لِ النسيم اللطيف الذي يمسح على وجهيهما و صار إيقاع نبضاته منتظما. كان ذلك كافيا لِ أنْ يسترخي، كما هو، في وضعيته المريحة. رأسه و قائمتيه الأماميتين مسندة على فخذ صديقه. تركه ناريك مسترخيا و راح هو الآخر في استراحة الظهيرة، تحت فَيْ هذه الشجرة المباركة، يقترب من النعاس. كانت عيناه، بين الفينة و الأُخرى، تنطبق أجفانهما و يذهب في إغفاءة خفيفة منعشة. راحا في قيلولتهما تحت ظلال أوراق و أَفنان السرو. كانا ينعمان بِ الهدوء، سوى بعض الحفيف الخفيف لِ الأغصان و الأوراق من حولهما وتغريدة الطيور التي تَتنقَّل من غصن إلى آخر و من شجرة إلى أُخرى. بينما هما في هذه الإغفاءة الهادئة، فجأة انتفض بوبي وارتعش جسده ارتعاشة عميقة وصار يُصدِرُ صوتا، بل، عواءا خافتا وأَدار رأسه بِاتجاه بطن ناريك، و كأَنَّه كان قد واجه شيئا، أو كائنا، غريبا أَخافَه مما دعاه إلى إدارة وجهه عنه لكي لا يراه. لمسَ ناريك رأسه بِهدوء و حنّية، لكنَّ بوبي كان في غفوة ولم يشعر بِ يَدِ صديقه على رأسه. تركه ناريك في وضعيته وراح يراقب حركاته بِ اهتمام. خاف على صحّته و تمنّى ألّا يكون قد تعرَّض لِ مكروه خلال مسيرهم في الطريق، خاصة أنه كان يغيب عن أنظاره في الغابة بين الأجمات و الشجيرات الشوكية. صار يفكِّر في عَضّات الأفاعي السامة، أو بعضا من النباتات والبذور السامة. نظر إلى عينيه و شدقيه بحثا عن تغيُّرات، أو أَيّة ظاهرة غريبة عليه. لكنَّه لم يلاحظ أيَّ شيء يثير الريبة، فَعيناه، حين فتحهما، لم يرَ فيهما اختلاطا، بل كانتا صافيتان و لم يرَ سوائل أو لعابا على

شدقيه، وكانت نبضات قلبه قد انتظمت بعد الرجفة الأولى. اطمأنَّ ناريك على صديقه مع ملاحظته له و كأنَّه كان يغمغم مع شيء ما، أو كائن ما. بعدَ فترة زمنية طويلة نسبيا، لم يَحسبها ناريك بِ دقّة، كان بوبي يُصدرُ عواءا خفيفا خافتا و كأنَّه كان يتابع حوارا ما مع كائن ما، كان قد جاءه، أو كان هو قد صعد إليه بِ الروح. رفعَ ناريك رأس بوبي من تحت رقبته وأَمْعَنَ في عيونه المفتوحة التي تنظر إلى اَلْ لا مكان. كان شاردا وبقيَ هكذا، لِلحظات، دون أَنْ يبدرَ منه أَيّ رد فعل تجاه محيطه، تجاه حركات ناريك ولمساته على رأسه و رقبته. استمرَّ ناريك في تدليك رأسه، ظهره، بطنه و رقبته. انحنى على رأسه و راح يتحدَّثُ معه همسا. في البداية لم يشاركه بوبي في الحديث، و لكن بعد بعض الوقت انتبه إليه وإلى حديثه معه. سمعه من حيث قال له:"هل تسمعني يا بوبي؟ كنتُ قلقا عليك، لا أعرف ما الذي جرى لك. خشيتُ عليك من وباء ما، أو من غَدْرِ حيوانات سامة، أو حتى من سموم الطبيعة التي تحيط بنا. لكن، المجدُ لِ الربّ على نجاتكَ من المصائب و على عافيتك و سلامة صحتكَ". راح بوبي يدعك رأسه بِ صدرِ صديقه و يلطع كَفَّه و أصابعه تعبيرا عن تقديره و امتنانه له على لهفته و اهتمامه بِ حياته. رأى بوبي نفسه ملزما أخلاقيا على قول ما جرى معه لِ صديقه الصدوق. وفي الأثناء بدأ في التحدُّثِ معه قائلا:"رأيتُ يا صديقي، حين كنتُ مسترخيا على ركبتكَ، كتلة من الغبار تتخلَّلها شرارات كَ لَمْعات البرق، و كنتُ أسمعُ صوتا كَ هدير الصخور حين تتدحرج من فوق تَلَّة عالية. كان المشهد، بِ مكوِّناته السمعية و البصرية، بعيدا إلى حَدٍّ ما. تَخَيَّلْتُ في البداية بِ أَنَّ ما أراه إنْ هو إلّا مشهدا يتكرَّرُ فصليا في بلداتنا، عجاج و لمعات برق و أصوات رعد، و مِن ثمَّ إمّا مطر بِ قطرات كبيرة مشبعات بِ الماء، أو بَرَد بِ حَبَّاتٍ كَ بيضِ الدجاج في أحجامها. لكنَّني كنتُ مخطئا في تقديري لِ المشهد، كما تبيَّنَ فيما بَعْد. فَ كتلة الغبار تلك، راحت تقترب بِ اتجاهي و صار الوميض الصادر من قلبها يُعمي أبصاري و الهدير المنبعث منها يُصِمُّ آذاني. في هذه اللحظة انتفض جسدي و ارتعشَت عضلاتي، و حين اقترَبَتِ الكتلة السديمية أكثر، تراءى لي كائنَين على هيئة ملاكَين لِ كلّ منهما جناحين و يَدَيْن. أَحدهما كان مريوله أبيضا و كان يحمل باقة من الورود و الأزهار على شكل قلب، و كانت هالة من النور تبرقُ فوق رأسه. أَمّا الآخر، فَ كان يرتدي مريولا أَسوَدَ اللون و يحمل في يده سَيْفا معقوفا ذي شعبتين كَ لسان أفعى. سمعته يصرخ في وجه الملاك ذي الثوب الأبيض و الهالة النورانية، يقول له:"لن أسمح لكَ يا اسرافيل بِ تخريب أو تعطيل مخططاتي في الحياة! فَ أنا هو الكلّ، أنا هو البداية، أنا هو الأزلي، السرمدي، الأبدي قاهر الموت. ضعِ الهالة فوق راسي و اعطني أسرار القلب

و عُدْ إلى سَيِّدكَ، الذي يخاف مواجهتي، و قُلْ له بِ أَنَّ مَكْرائيل قد جَرَّدني من نعمتك و تَنَكَّرَ لِ قدرتك و أَنَّه سَ يُدير الحياة بِ شرائعه و قوانينه هو!" لكنَّ سرافيل رفض تهديداته، و رفض الانصياع لِ أوامره و ظَلَّ متمسِّكا بِ سَيِّدِ الحياة و الأكوان كلِّها. كان يتحاور معه بِ هدوء محاولا إقناعه بِ التراجع عَمّا هو مُقْدِمٌ عليه، لكن مكرائيل كان يصرخ في وجهه بِ أعلى صوته حتّي أنَّني كنت اسمع صراخه من هذه المسافة. و بعدَ لحظات، تَهَيَّأ لي و كأنّي رأيتُ هجوم الملاك الأسود (مَكْرائيل)على الملاك ذي المريول الأبيض (سرافيل)، و رأيتُ بريق نصل السيف ذي الشعبتين يختفي في صدر الملاك الأبيض و سقوط القلب بين أرجلهما، و رأيتُ بعض الأزهار و الورود تصطبغ بِ اللون الأحمر و الملاك الأسود يدوسها تحت قدميه. و في الأثناء اختفى الملاك الأبيض، لا بل، حمله الملاك الأسود وأخفاه تحت الغبار، بعد أنْ مسح الدماء العالقة على سيفه بِ قطعة قماش كان قد احتفظ بها لِ هذه المهمة. أَخذَ الثوب الأبيض الذي كان يرتديه الملاك الأبيض، و رماه على جسده. طوى سيفه على هيئة كتاب و سرق الهالة التي كانت تزيّن رأس الملاك الأبيض و وضعها على رأسه. جمع الوردات و الزهرات التي لم تقع في دم سرافيل و حَزَمها في باقة على شكل قلب كما كانت في يَدِ الملاك الأبيض قبل برهة من الزمن. الآن انقلبَ الملاك مكرائيل الأسود إلى الملاك اسرافيل الأبيض بِ هالته النورانية و ثوبه الأبيض و باقة الورود التي على هيئة قلب. لمَحتُه من هذه المسافة البعيدة، نسبيا، ينظر إليَّ. بدأ يخطو أولى خطواته بِ اتجاهي، قبل أن يفرد جناحيه. في الأثناء صَدَرَ عواءا حادًّا من حيوان شرس. التفتَ إلى مصدر العواء. كان هناك كلبان أحدهما أبيض و الآخر أسوَد. كان الكلب الأسود يزمجر، كَ الأسد الهائج، في وجه الكلب الأبيض. أمّا الأبيض فَ كان يُطلق عواءا خافتا، و كأنَّه كان يريد إقناعه بِ أمر ما. و في أجزاء من الثانية انقضَّ الكلب الأسود على الأبيض و مَزَّقَ عنقه و لم يتركه إلّا جثَّة هامدة. رأه مكرائيل و هو يسرق فروته البيضاء و يلبسها فوق فروته السوداء. إنَّه فعل مثلما فعلتُ أنا، كان يُحَدِّثُ نفسه، يبدو أنه يبحث عن السيطرة الكونية و المجد السماوي. إنَّه عثرة حقيقية أمام مخططاتي، فَ أنا، الوحيد، كلّي القدرة، كلّيَ الذكاء والعقل الكوني. سحبه في طرفة عين إليه و تَلَبَّسه تماما. وهكذا اختفى منافسه في داخله اختفاءا كلّيا. تماهى الاثنان في واحد، إنَّه الكلب الأسود، وفي الوقت نفسه هو الملاك الأسود(مكرائيل). هذا الواحد يأخذ أشكالا مختلفة حسب الظروف و الضرورات. أمّا الآن، فَ هو الملاك الذي انقلب على سَيِّد الأكوان و الحياة، و هو الذي سَ يخلق لِ نفسه جيوش مرعبة تقودها شخصيات يختارها هو كَ وكلاء له على الأرض. سَ يخلق فلسفات و يكتب شرائع و قوانين و ايديولوجيات

يربطها بِ نفسه، يكون هو محورها الرئيس. لقد رأيتُ ما حصل في المشهدين يا ناريك! لكن دون أن أرى ملامحهم بِ التفصيل، و ذلك بسبب المسافة التي كانت تفصلني عن مسرح الحدث من ناحية، و من ناحية أُخرى، بِ سبب كثافة الكتلة السديمية التي كانت تَلفُّهم جميعا. كنتُ مَقعيا على مؤخرتي حين انتهى مكرائيل من تقمُّص جسد الكلب الأسود، و من ثمَّ رأيته يخبئ السيف المطوي (الكتاب) بين ريشات جناحه الأيمن و يضرب رجْليه بِ الأرض و يفرد جناحيه على طولهما، وفي جزء من اللحظة كان واقفا أمامي. ملاك أَبيض، فوق رأسه هالة نورانية. كانت السماحة والطيبة تَقْطرُ من وجهه وعيونه. هَدَّأ من روعي، وقال لي بِ هدوء و بِ لغة أقرب إلى الطلب منها إلى النصيحة:"لا تخفْ يا كلب الله المُبَجَّل المختار! إنَّ الله اصطفاك من بين عشيرتك، بل، من بين قومك. لقد أرسلني لِ أُبَلِّغك فحوى رسالته السماوية. لقد انتهى من تصنيف الكتب التي كتبها منذ بدء الحياة على الأرض، أو بِ الأصَح، منذ أن استوى على العرش في نهاية اليوم السادس بعد انتهائه من خلق الكون و الإنسان و الحيوان وكلّ عناصر الحياة الأُخرى. إنَّه كتب الشرائع و النواميس، بعد أنْ خلق الجنَّة و الجحيم، و احتفظ بها في مكتبته الممتدة من جوار الشمس إلى جوار القمر. قبل أكثرَ من ثلاثين ألف اغتسال لِ هذه الأميرة، عروس السماء (القمر)، أَرسلَ الله كتبا إلى أشخاص من بني البشر اختارهم هو بِ نفسه لِ يكونوا وكلاءه على الأرض و لِ يحكموا البشر بِ اسمه. و رأى أنَّه من المفيد أيضا أن يرسل كتبا خاصة لِ ممالك الحيوانات، و يختار وكلاء له من بينهم لِ يحكموا أفراد أجناسهم، و كنتَ أنتَ الذي اختاره من فصيلة الكلاب لِ تكون وكيله المرسل إلى بني جنسكَ، و الكتاب الذي خَصَّصه لكَ جاهز بين ريشات أجنحتي، لكنَّني لن أُسَلِّمه لك دفعة واحدة الآن (هذه أوامر الله) و إنَّما سَ ينزل إليكَ على فترات زمنية بما ينسجم مع الأحداث التي سَ تعترضك والرغبات التي قد تَعنُّ على بالك، و كلّ ما تريد الحصول عليه، أو تحقيقه في حياتك. إنَّ محتوى كتابك مطابق لِ محتوى الكتب التي أُنزلت لِ الذين من قَبْلِكَ فيما عدا الشرائع التي تَخصُّ الحيوانات وتلك التي سَتحتاجها حسب رغباتك و حاجاتك النفسية والجنسية. سَيفتح عقلك لسانك و سَيجعلك زعيما على قومك وعشيرتك. ولكي تنجح خطَّته و تصبح أنتَ مختاره و رسوله، عليكَ أنْ تكون قاسيا، عديم الإحساس، شرسا، وأن يكون قلبك من صخر و ضميرك مَيِّت، لا يعرف الرحمة و التسامح. احفظ ما كتبه الله، و ما سَ يكتبه لاحقا في الكتاب المخصَّص لكَ! قُمْ بِ دعوة أفراد قومك لِ الإيمان به كَ كتاب مُنزل من السماء، من عند الله نفسه و لا تتنازل أو تتراجع عن قدسية كتابك و سماوية مصدره، حتى لو دعت الضرورة إلى قتل من ينكر ذلك، و في

المرحلة التالية تطلب منهم الإيمان بك كَ مختار من عنده و اقتل كلّ مَن ينكر ذلك!
سَ تكون أعظم كلب على وجه الخليقة و سَ يجعلكَ الحاكم بِ أَمره، ليس فقط بين عشيرتك، بل، بين كلِّ الفصائل الأُخرى على هذه الأرض. و ستكون لك امتيازات غير محدودة في كلِّ شيء، في الفرائس و الوجار و مساحات الصيد و ما اشتهت نفسكَ من إناث فصيلتكَ. وهذه المسألة سَيتدخَّل الله بِ ذاته لِتحقيق رغباتك. و طلبَ منّي أنْ أُبَشِّرَكَ بِ أَنَّكم سَ تدخلون الجنَّة بعد الموت، كما دخلها الهدهد و النمل و ناقة سراب.
إنَّ ما قاله الملاك مكرائيل كان صدمة بِ النسبة لي. إذْ كيف يمكن لِ إله أن يكون خبيثا، ماكرا، عنيفا، شريرا، قوّادا و دنيئا إلى هذه الدرجة من القرف، و هذا المستوى المنحَط من الأخلاق؟ لم أوافق على ما قَدَّمه لي في هذا العرض القذر، حيث قال بِ أَنَّه من عند الله، و لم أوافق على أنْ أكون مختار الله الذي تكلَّمَ عنه و عن مضمون كتابه. ذكرت له الأسباب التي تَحوْلُ بيني و بين اختيار الله لي، سَرَدْتُ له، من ضمن هذه الأسباب؛ الصفات الدنيئة و الأفكار الخسيسة و الشرائع اللاأخلاقية، و قلتُ له بِ أنَّ أخلاقي و أخلاق قومي هي أرفع بِ ملايين المرّات من هذه الأخلاق المنحلَّة التي لا يُشَرِّفني قبولها. في الأثناء رأيتُ الهالة النورانية التي كانت على رأسه تتبخَّر، و لونَ ردائه الأبيض يتغيَّرُ إلى اللون الأسود. ورأيته يَمدُّ يده إلى جناحه الأيمن، و في الحال أَخْرَجَ الكتاب من بين ريشاته و تقدَّمَ نحوي و هو يقول:"سَ أمنحكَ كتاب الله الذي كتبهُ لِ أجلكَ والذي سَ يكون هو الشريعة و الناموس الذي سَ تنشره بين قومكَ و كلّ أقوام الأرض". أَمسكَ الكتاب بِكلتا يديه. نظرَ إلى عينيَّ مباشرة، كانت عيناه تقدحان شررا، وفي الأثناء فتحَ الكتاب و إذْ بِ السيف المعقوف يلمع نصله في الهواء. أطلقَ صرخة مدوّية: سَ أقطع عنقكَ يا أيها الكافر الفاجر! رفعَ السيف وانهال به على رقبتي. لكن قبل أنْ ينفصل راسي عن جسدي، كنتَ تمسحُ على رأسي و تفرك تحت عنقي، و في اللحظة ذاتها رأيتني متَّكئا على فخذك. إنَّكَ أَنقذتَني من القتل ذَبْحا يا ناريك!

– لا بأس يا صديقي الرائع! لقد كانت حكايتكَ من صلب الميتافيزيك، و بِ أكثر دقَّة، في جوهر صناعة الأنبياء و الأديان. لِ نرتاح قليلا و من ثمَّ نتابع طريقنا إلى دير الرهبان.

بعد أن أمضيا وقتا مريحا تحت ظلال الشجرة، و بعد أن عاد بوبي إلى طبيعته و تَخَلَّصَ من آثار الرؤية التي صدمته هناك، تابعا سيرهما بِ اتجاه الدير.

في الساعة 127 درجة كان قد وصلَ إلى بلدة تقع على ارتفاع 435 مترا عن سطح الأرض، أو كما يُقال، عن سطح البحر. فَالارتفاع الصفري هو مستوى سطح البحر.

بدأَ في صعود الطريق الشرقي الذي يؤدّي إلى داخل البلدة. كانت الغابات الجبلية تنتشر على طرفي الطريق. أشجار الصنوبر، السرو، الكينا، الغار و السبيندار. كانت بيوتهم مبعثرة بين الأشجار، على أكتاف و فسحات المصاطب الجبلية. كانت المياه العذبة تنسكب من المرتفعات الجبلية، وكانت الينابيع المتفجِّرة من تحت الصخور تَحفرُ لها أخاديد في منحدرات الجبل، و كانت مجموعات من هذه العيون تلتقي أخاديدها، بعد مسافة من الانحدار، في نقطة واحدة تتجَمَّعُ فيها مياهها وثمَّ تَشقُّ لها مسيلا واحدا نحو الأسفل. في بعض المناطق من الطريق، كان المرءِ يسمع خرير مياه الينابيع وهي تتساقط في المنحدرات الجبلية لِ تَصبَّ في السواقي الافعوانية. كانوا يعتمدون، في عَيشهم،على محاصيل حقولهم و بساتينهم وكرومهم، التي تؤمِّن قوتهم السنوي، و على الحيوانات الأليفة و الداجنة، حيث يحصلون على مونتهم السنوية من اللحم والبيض والحليب و مشتقاته من الزبدة، السمنة، اللبن و الجُورْتان (Tchortan) و يتاجرون بِ الفواكه (الطازجة و المجفَّفة) و الحمضيات و العسل الجبلي و الخمور المعتَّقة، حتّى أَنَّ منتوجاتهم كانت تَصِل إلى القامشلي. كانوا ينقلون محاصيلهم من بساتينهم إلى منازلهم بِ واسطة الحيوانات حيث تَجرُّ العربات المُحَمَّلة بِ منتجاتهم، و في كثير من الأحيان كانت تُنقَل بعضا من المحاصيل على ظهورها، و أيضا كانوا يستخدمونها في إيصال مستلزمات العمل إلى حقولهم وبساتينهم. في مثل هذه الأوقات من النهار، كان الطريق الرئيس، الذي يسير فيه ناريك و صديقه، يمور بِ الحركة و الحيوية إذ يقوم الأهالي بِتجهيز مستلزمات العمل لِ اليوم التالي، وفي الوقت نفسه ينقلون محاصيلهم إلى منازلهم. كانوا ينادون على بعضهم. أحدهم يُذَكِّر بِ إحضار المعزق من البستان، و آخر يطلب من ابنه أَنْ يُعَرِّجَ على بيت صهره لِ يساعده في بعض الأعمال الهامّة.

و بعضا منهم كان يُطلق موّالا من تلك التي يغنّونها في سهراتهم الليلية حين تدور بينهم كؤس الخمر و العرق البيتوتي (المنزلي). كانت أصواتهم و مواويلهم و أغانيهم الشعبية الفولكلورية تختلط بِ أصوات الحيوانات، منها العائدة إلى حظائرها، و منها

التي تسرح في أحواش البيوت و حول الكروم. الطيور المنزلية و البرية، هي أيضا، كانت تشارك في هذه الأوركيسترا التي تُعزفُ، مباشرة، على مسرح الطبيعة. كانت الحركة في الطريق تَتمُّ بِ الاتجاهين (ذهابا و إيابا). كان بعضا من الأهالي يسير في الاتجاه الذي يسير فيه ناريك. و عند مشارف البيوت، تجاوزه، أو كان يتجاوزه، أحد أبناء البلدة مع حماره. و عند بلوغهما نقطة مشتركة، حَرَدَ الحمار ورفعَ قائمتيه الأماميتين حين رأى الكلب أمامه. وفي نفس اللحظة، و عندما رأى الكلب وجه الحمار أَطلق عواءا طويلا، ثمَّ رفع رأسه و صار ينظر إلى السماء. استغرب صاحب الحمار من هذه الحركة المفاجئة، وقام فورا بِ شَدِّ رسنه وتهدئته. راح يُمَسِّدُ على رأسه و رقبته مع دعوته له بِالهدوء. إنها المرّة الأولى في حياته يقوم بِرَدَّة فعل كَ هذه، تَمْتَمَ صاحبه. في الأثناء كان ناريك قد اقترب منه لِمساعدته في تهدئة حماره وسأله ما إذا كان يفعل هكذا في حال رؤيته لِ الكلاب، أم أَنَّه فعل ذلك لِ كون هذا الحيوان غريبا بِالنسبة له.

– أعتقد بِ أَنَّ هناك شيئا خَفيًّا بين هذا الكلب و بين حماري، قال صاحب الحمار و أضاف، إذْ أَنَّه يعيش في بلدة فيها كل فصائل الحيوانات بِما فيها الكلاب. لم يصدف أنْ فعلَ ما فعلَه الآن عند رؤيته لِهذا الكلب، فَ هو يرى الكلاب يوميا ولم تنتابه هذه الحالة إطلاقا.

– أنا أيضا مندهش من سلوك كلبي أثناء رؤيته لِ حماركم. فَ لم يحدث معه مثل الذي حدثَ الآن أبدا بِ الرغم من أَنَّه كان يتقابل مع الحيوانات على مدار اليوم في الطرقات و البلدات و القرى التي دخلناها و التي بتنا فيها.

– على كلّ حال حصل خير والمهم أَنَّهما، ونحن أيضا، بِ خَير. أنا أونيل (ONIL) من أبناء هذه البلدة، و هذا حماري المحترم برقوق إنَّه ينحدر من سلالة حمير الأنبياء والرسل، وأَنَّ جَدّه، التاسع والخمسون بعد المئتين، كان مع نوح في فلكه أثناء الطوفان. أَمّا جدُّه السابع والستون كان يملك جناحين ويطير في السماوات. يُحكى عن جَدِّه، نقلا عن عربان الربع الخالي، بأَنَّهم شاهدوا حمارا يطير و على ظهره أحد العربان، من جوارهم، قاصدا عَرْشَ الله، و قالوا أشياء غريبة عن تلك الحادثة .

– أَنا اسمي ناريك (Nareg) من بلدة زالين(القامشلي) الملاصقة تقريبا لِبلدة نصيبين، وكلبي هذا ينحدر من سلالة الكلب الذي حَبَاه الله و جعله ينام، في غَفوة واحدة، ثلاث مئة سنة في كهف من كهوف طورعابدين، ومن ثمَّ استيقظ من نومه وكأَنَّه نام لِبعض الوقت ليس إلّا. أَعطاه الله شرف القداسة وجعله مباركا من بين الكائنات كلِّها و خَصَّه

بِ قدرات فوق طبيعية، من أَبسطها إتقانه لِلغات الكون و استشرافه المستقبل من خلال التأمُّل و التواصل مع أرواح سماوية غير مرئية، و أيضا قدرته في التحوّل الجسماني، حسب الحاجة و الضرورة، و التغلُّب على الجاذبية و الطيران بين نجوم السماء و أفلاكها والسير على تخوم الطريق اللبَني الحلزوني الشكل، هذا ما أَخْبَرني هو بِ ذاته. بينما كان ناريك يتكلَّم، لِ أُونيل،عن مهارات وقدرات كلبه، رأى برقوق و بوبي يتقدَّمان نحوهما معا، و هما يتبادلان الأحاديث في أمور متعلِّقة بِ تاريخ سلالاتهما و قدسية منبتهما و علاقة أجدادهما بِ العرش السماوي و بِ سَيِّد العرش (الله) نفسه. أَسَرّا لِ بعضهما عن تواصلهما مع الكائنات السماوية و مرسَلي الله من الملائكة، و في بعض الأحيان مع الله نفسه. انضما إليهما و راحوا يتحدَّثون بِ أريَحية مع بعضهم .

– لقد ذَكَّرتني يا ناريك بِ أشهر كاتب من بَني قومكَ و أَبرعهم في نَظمِ القصيدة في الأدب الأرمني، كان قد كتبَ ديوانه ذي الطابع الصوفي اللاهوتي (المراثي) قبل ألف سنة و كان الكتاب قد وصل إلينا عن طريق المفكرين و الرهبان الذي كانوا يزورون يريفان لِ إجراء أبحاث فلسفية ولاهوتية حول فكر ولاهوت العلاّمة الفيلسوف برديصان الذي عاش بقية حياته في أرمينيا. أقول هذا لأنَّ اسمك هو مثل اسمه ناريكاتسي NAREGATSI نسبة إلى القرية (NAREG) التي ولِدَ و مات فيها و التي تقع جنوب بحيرة فان(VAN) وحين يتمُّ الحديث عن أدبه يُقال:"أدب ناريك". شعرتُ بِ لَمعة بَرْقٍ أمام عينيَّ و خفقان غير عادي في صدري حين سمعتُ اسم برديصان، يقول ناريك في صفحاته المحفوظة في مكتبة دير البلدة. فَ أنا سمعتُ عنه من الخال برصومو. لقد كان شاعرا وفيلسوفا، كما قال الخال، و له عدّة مؤلفات كتبها بِ اللغة السريانية، و هذه فرصة نادرة لِ التعرُّف، وربما الحصول، على بعض من كتاباته أو مخطوطات قد تكون موجودة هنا في هذه البلدة، أو ربَّما تكون موجودة لدى أونيل نفسه. يبدو عليه الوقار والذكاء وسِعَة معرفة. إنَّه يكبرني، ربَّما، بِستِّ أو سبعِ سنوات. إنَّه ممتلئ شبابا و حيوية. يتميَّز بِ شَعْرٍ أسود فحميّ مع لحية سوداء مجعَّدة و شارب كَثّ، مرخيّ على شفته العليا حتّى أنَّ شفته السفلى بِ الكاد كانت تُرى من تحته، و لو لا أنَّها بِ لون الخمرة المعتَّقة لَ ما كان لِ المرء ملاحظتها، كانت هذه اللحية تُزَيّنُ وجهه الأسمر القريب إلى اللون الحنطي، و المتناسق مع عيونه السود ذات اللمعة الخيالية في منتصف البؤبؤ الذي تراه يرقص في المحيط الحور، فَ المشهد الكلّي لِ محيّاه يعطي الانطباع، لِمَن يراه، بِأَنَّه يبتسم، أو أنَّ الابتسامة تَشعُّ من عيونه الجميلة .

– هل ذكرتَ اسم برديصان يا أُونيل؟ أعتقد بِ أنَّني سمعتكَ تنطق اسمه، هل ما سمعتُه هو، حَقّا، اسم برديصان نفسه يا أُونيل؟

لاحظَ لهفتي و اهتمامي غير العادي بِ برديصان. كان قد رَكَّزَ نظره عليَّ و أنا أطرح عليه السؤال بِ هذه الطريقة. رأيتُ ابتسامة سحرية تَشعُّ من عيونه، الابتسامة التي ترافق الفوز بِ شيء ثمين، أو، اكتشاف سرّ أحجية معقَّدة. قال لي بِ بطء، لِ تأكيد صحّة ما سمعتُه :

– نعم يا ناريك! أنا ذكرتُ اسم برديصان حَقّا! هل تعرف عنه أيّ شيء؟

– في الحقيقة أنا لم أقرأ عنه، كما لم أقرأ كتاباته أيضا. لكنني سمعتُ عنه من رجل محترم في بلدتنا حيث قال: إنَّه شاعر و فيلسوف، و قال معلومات أُخرى عنه ما جعلني أتشوَّق لِ التعرُّف إلى أدبه، و خلق لديَّ حافزا قويّا لِ قراءة مؤلّفاته .

– إذن! سنتناول برديصان حول مائدة العشاء في سهرة هذه الليلة مع النبيذ الأحمر والعرق البيتوتي، ما رايك يا صديقي ناريك، أو بالأحرى، يا صديقي ناريكاتسي؟

فاجأني بِ دعوته هذه، أو بِ الأحرى، بِ طريقة استضافته إيّايَ. أنا واثق كلّ الثقة من أنَّه لم يكن يتصنَّع و لم يكن يُمثِّل دور الشخص الكريم الذي يتوقَّع من الضيف الاعتذار لِ تليبية طلبه. دَعْوَتُه لم تاتِ بِ شكل كلاسيكي، أي لم يكن متوافقا مع العادات السائدة، لذلك لم يكن أمامي خيار سوى الموافقة على طلبه.

كان الشمس قد انحدر خلف الأفق، حين شرعَ أُونيل في تحضير مستلزمات سهرتنا، و كانت السماء قد امتصَّت اللون البرتقالي و صَبَغَت خصرها به، و كانت مجموعات القطا تضرخ في رحلتها من طرف البلدة إلى طرفها الآخر. اصطحبني أُونيل إلى الغابة المحيطة بِ المنازل و راح يقطع أغصانا ناعمة من أشجار الغار و كمية من أوراقها الخضراء الطرية. طبعا كنتُ أساعده في كلِّ شيء، بعد أنْ شرحَ لي ما يجب جَمْعه و ما يجب تحضيره. كان قد دعا إخوته و أبويه لِ السهرة معنا. إنَّ منازلهم هي بِجوار منزله. كانوا قد انضموا إلينا أثناء التحضير، فَ هم قاموا بِ تحضير السَلَطات المتنوّعة المكوّنة من الخس و الهندباء و الجرجير و الشمندر الأحمر. فرشوا أنواع المخللات و الخضروات وأعشاب الينابيع العذبة و فطور الجبال مع كميات من الجوز و اللوز و البندق. أمّا الشباب فَ كانوا يَشْوون لحوم الحيوانات الداجنة و البرية على الموقد الطبيعي المصنوع في الأرض بِ شكلٍ مباشر. كان أُونيل قد استخدم أغصان الغار، التي قطعها من الأشجار، كَ سفافيد لِ شَكِّها في قطع اللحم المتبَّلة و الجاهزة لِ الشوي. كانوا فرحين و كانت أحاديثهم ودّية تجاه بعضهم و تجاهي أيضا. كانوا قد

رَحَّبوا بِوجودي معهم وأَبدوا ارتياحا لِ منبتي وبلدتي. كنتُ قد عَرَّفتُ نفسي واهتماماتي، و كان أُونيل قد شرح لهم توجّهاتي و قدراتي التي اكتشفها بِ ذاته لكنَّه لم يتحدَّث عن بوبي و قدراته الفائقة، و لا عن القدرات الخيالية لِ حماره المحترم (برقوق). كان معظم الأحاديث يدور حول العمل و الإيمان و التعليم، و البعض منهم تناول مسألة الفنون و التي تشمل الفولكلور و التراث، و كان هناك إصرار من الجميع على ضرورة الحفاظ على التراث و تدريسها لِ الأجيال من خلال المدارس وأساتذة الفنون والكورال و الكهنة المهتمين بذلك. بعد الانتهاء من الأكل و الشرب و الكلام، لم يبقَ أحدا من الضيوف. تركنا الطاولة كما هي، بِ ما تحمل من بقايا الطعام والمشروبات الطبيعية و الروحية. جلسنا على مقاعد مصنوعة من جذوع الأشجار التي كانت مثبتة في فسحة تظللها أشجار الجوز و عرائش الدوالي. وَضَعْنا النبيذ الأحمر المركَّز على طاولتنا الجديدة و إلى جانبها بعضا من المقبِّلات الخفيفة، ورزمة من الأزهار الوردية، الشبيهة بِ الكأس الشفّافة، التي تنبتُ في زاوية مظلَّلة بِ فَيء أشجار الجوز و الغار من بستانه. رحتُ أمضغ كمشة منها وأمتصُّ عصارتها. شربنا أنخابا في هدأة الليل المنعش. كانت القمر تُطِلُّ علينا من بين الفراغات و المساحات الخالية من الأشجار. كانت بِ كامل بهائها و جمالها المدهش. كانت خدودها تلمع بِ حمرتها الوردية، كَ خدود الصبايا الممتلئة شبابا وحيوية. لم تظهر النجوم في محيطها القريب، لأنَّها تذوب في هالتها التي تمتص كلّ الأجسام و كلّ الألوان إنْ وقعَت في مجالها الحيوي، أو محيطها الإكليلي. شعرتُ بِغليان في غددي الجنسية و بِ ارتعاشات تجتاح أعضائي السُفلية. لا أدري ما الذي جرى لي بعد تناول الأزهار الوردية مع النبيذ الأحمر. شعرتُ بِ خفّة في كياني و صرتُ أرى الأشياء كما ترسمها مخيّلتي و رغبتي المنفلتة من القيود. سيطر الجنس على دماغي و لم أعدْ أرى سوى ما كان مُختزنا في مُخَيلتي من مشاهد لِ أردية و ملابس داخلية لِ الإناث، كنتُ أراها مُعَلّقة على أشرطة الغسيل في أحواش بلدتنا و على أسطح منازلها، و صوَر أعضائهنَّ المثيرة التي كانت تتكشَّفُ عند انزياح الفساتين عنها، فَ كنتُ أرى الأفخاذ الملساء المفتولة من الزاوية المكشوفة، و النهود البيضاء البضّة، حين كانت الأزرار تنحلُّ صدفة و يظهر سطح النهد الأبيض اللامع من بين فتحات الأزرار المفتوحة. كانت قمري تُطلُّ عليَّ، رأيتُ فراشات ملوَّنة تَطير فوق خَدَّيْها، و ملائكة تُمَشِّطُ شعرها الناعم و تَدهنُ شفاهها بِ حمرة خمرية والابتسامة تَشعُّ من عينيها الجميلتين، و في غفلة منها و من الملائكة انزلق الوشاح الفضّي من على صدرها واندلق نهدها من تحت الوشاح مشرئبا نحو السماء. كان بَياضها كَ ذلك النهد الذي لمسته ولثمته، فوق السطح، في الفجر الذهبي تحت أنظار النجوم وسيّدة السماء.

رفعتُ كأسَ النبيذ نَخب سحرها و جَمالها، و هذا يعني بِ أنَّني سَ أشربها كلّها دفعة واحدة كرمى لِ عينيها، و فعلتُ ذلك. رأيتُ على محيط هالتها الفضية كائنات غريبة تحاول اختراقها. بعضا منها تحمل في أيديها سيوفا لامعة، و بعضها الآخر تنفث النيران من أفواهها، و أنواع أُخرى لها مناقير خرافية تثقب الصخور البازلتية و تُفَتِّتُ النيازك بِ نقرات مدوّية. شَنَّتْ هجوما مباغتا، في نفس الوقت، و من جهاتها الأربع. لكنَّها لم تنجح في هجماتها الخبيثة العدائية. كانت جميع محاولاتها تنكسر عند الحلقة الأولى من الهالة المقدَّسة. في الأثناء رأيتُني أدخل في معركة ضارية معها. كان لديَّ مقلاع حباله مجدولة من أمعاء الثور المجنَّح، و جلدته التي تحمل المقذوفات مصنوعة من معدة حارس أرزات لبنان، الوحش هواوا. كنتُ أَجمع مقذوفاتي من جوار حبيبتي، حيث الرجوم الخام و التي هي في هيئة النجوم. كنتُ أضع، في كلِّ رمية، نجمة متوهّجة على جلدة المقلاع و أَقذفها في وجه الحيوان الخرافي الذي ينفث النار من فمه، و الذي يحمل السيف المعقوف بِ يده، و هكذا حتّى قضيتُ على الأعداء الفضائيين. حبيبتي لم تكن في خطر، فَ هي مُحَصَّنة ضدَّ كلِّ الأعداء و كلّ القوى الفتّاكة. رأيتها، بعد انتصاري في المعركة الخاطفة، تنظرإليَّ نظرة العاشق لِ معشوقه. رأيتُ عيونها السود تلمع من بين رموشها الطويلة. شعرتُ بِ نظرتها الحنونة المنكسرة المتوسِّلة. رأيتُ أكثر من ذلك. لأنَّني كنتُ أرى ما كنتُ أريد رؤيته، أو ما كنتُ أَتخيَّل من وحي النبيذ المُعَتَّق والأزهار الوردية. رأيتُ إيماءاتها إليَّ وهي تدعوني لِ الصعود إليها. رأيتُها تَمدُّ شالها نحوي و تومئ إليَّ أنْ أَمْسِكْ بِ الشال و اصعدْ. سمعتها تقول: "كم انتظرتكَ هنا في هذه البيضة الكونية، كنتُ، في كلِّ اغتسال لي، أقول بيني وبين نفسي إنه قادم إليَّ في الفجر الليلكي، لكنَّكَ لم تأتِ أيُّها الحبيب البعيد القريب. إنَّكَ تدور معي في فضاءاتي، بل إنَّكَ ساكن في فؤادي أينما رحلتُ و أينما اختفيت. أنتَ صدى اختلاجاتي و نبض قلبي؛ فَ هل سَ تُلبّي نداء روحي يا حُبَّ الكون"؟ تأملتُها بِ عمق. رأيتها تلك الصبيَّة التي خطفتني من ذاتي و فتحت عينيَّ على أسرار كانت ترعبني إذا ما مَرَّت في خاطري. تلك الصبيّة التي غَمَزَتْ لي بِريف جفونها و دوَّخَتني بِحركتها المثيرة. كانت تلبس فستانا أبيضَ مزروع فيه أزهار صفراء برتقالية.كانت كما حورية سقطت من السماء، أو حورية أرسلها الله إليَّ. كانت منحنياتها تخلب الألباب، تكويرة نهديها التي ملأت الفستان و برزت منه كُرَتين أو رمّانتين مغلَّفتين بِ الأزهار الصفراء البرتقالية. كان نسيم الربيع يُزيد فتنتها حين يَهُبُّ و يُلْصقُ الفستان بِ جسمها مُظْهِرا الأعمدة الرخامية و الأقواس الرابطة بينها و المنحنيات التي تتشكَّل فوقها عند الخَصْرِ فوق الحوض المُجَسَّم بِ روعة فائقة. راحت خيالاتي تموج في محيط الشهوة

و غرائزي تدفعني لِ القاع و تصرخ جوعا، لكنَّني استطعتُ، بعد مقاومة و عذاب هائل، الإفلات من حبائلها و رحتُ أقرأُ لها أشعارا خرجَتْ من روحي:

كم أنتِ رائعة يا ابنة الحياة، و كم أنتِ جميلة، يا أمَّ الحياة؟!

و كم أحتاجكِ يا حبيبتي، و احتاج إلى ابتسامتك، بريق عينيكِ و رفيف رموشكِ

يا اسم الجمال و غمزة الحُبِّ–

يا وردة الحيِّ، و ياسمين المدائن

يا صدى الأغنيات و النغمات.

أمسيتُ بلا وزنٍ و أنا أمشي نحوكِ في الحارات

أداعب الهواء. أنصتُ إلى حفيف الأشجار

و زقزقة العصافير على الشرائط

أسير تحت المطر، ألْعَبُ في مسيلات الطرقات

أفتحُ فمي لِ نُدَفِ الثلج المتساقط

أقذف بِ الثلج خيالاً يتراءى لي قُرْبَ شُبَّاكِ دارِكِ.

لم أرَ سوى عيونكِ الجميلة–

تتساقط مع الثلج و المطر.

في الصحوِ عيونكِ، في العواصف عيونكِ

في الليل، بين النجوم عيونكِ–

في السماء عيونكِ يا عيونَ الحبِّ و الجمال.

عيونُكِ فوق أجنحة الفراشات.

أنتِ حبُّي الضائع و فَرَحي المؤجَّل

أنتِ هوائي، و شمسي، و نبضُ حياتي–

يا منى القلب و الروح، يا اسم الحبّ و العشق–

يا خيالَ أحلامي، لا تغادري كياني و خيالاتي.

أنتِ الموسيقى التي تأخذني إلى الخيال

أنتِ اللحن الذي ينتشلني من لزوجة الجسد–

إلى شهد اللسان

أنتِ الحقيقة قبل كلِّ الأديان

أنتِ شرارة الغيوم، و المياه البدئية

أنتِ المرج، الرحم و البرزخ الإلهي

منكِ الروح و الرِّقَّة، منكِ النعومة و دفْءُ الحنان

منكِ ارتعاشة الحكمة ، و حكمة اللذة في حرقة الجسد.

كنتِ تبشّرين عند نهاية كلِّ شهر–

تقولين من خلال الأضواء المتراقصة على تخوم أعضائكِ

بِ أنَّكِ الأنثى، و أنَّكِ أصل الأعشاب و المياه و المطر

بِ أنَّكِ اليخضورُ في الهواء و الخلاء

بِ أنَّكِ الحُبُّ و الهيام، الرمز الأزلي لِ العشَّاق

تفعيلة الشعراء، و سلالم اللحن

أوتار الحرير في قيثارة العازفين

خذيني إليكِ يا شَهقة الروح.

بينما كنتُ أبحر في محيطها و أُحلِّقُ عاليا، بِ هذا التأمُّل الخشخاشيّ الكحولي، و أحاول التعلُّقَ بِ وشاحها المتدلّي بِ اتجاهي؛ سمعتُ أُونيل يتحدَّث عن القمر قائلا:

– أ تعلم يا ناريك كيف أنظر إلى القمر؟ إنَّني أعتبرها أنثى في هيئة قمر. أو بِ شكلٍ أوضَح، إنَّها إلهة تقمَّصَتْ القمر، و لِ هذا السبب ترى إيقاع حياتها هو نفسه

إيقاع حياة الأنثى. فَ القمر هي الإلهة عشتار نفسها، الإلهة التي انقلب عليها الذكر و نَصَّبَ إلها ذكرا بعد أن أطاح بها و أنزلها من العرش السماوي. الإله الذكر الذي جاؤا به، مَثَّلوه في الشمس بَدَل القمر. لعلَّ أوْضَح دليل على ذلك هو في الآلهة الذكور في ديانات الآشوريين، الفراعنة، اليهود، المسيحية و الأسلام. إنَّ هذا الإنقلاب الديني الذي بدأ قبل المسيحية بِ آلاف السنين ظَلَّ نافذا إلى يومنا هذا بِ الرغم من هزيمة أديان الحضارات القديمة كَ الآشوريين، الفرس، الفنيقيين و الفراعنة، إلاّ أَنَّ هذا الانقلاب بقي مستمرا في الأديان الرئيسة في العالم. صار الأخلاق الذكوري، أو بِ الأَصَحّ، الثقافة الذكورية هي ثقافة الكرة الأرضية كلّها. الذكر فوق الأنثى في كلِّ شيء. الأنثى هي لِ الاستمتاع بها و لِ إنجاب الذرية و خدمة الذكر، هكذا هو وضعها القانوني و الأخلاقي في نصوص و شرائع الأديان.

– أنا أُحِبُّ الأنثى كَ حُبّي لِ الحياة يا أُونيل! إنّي أراها كما الهواء. كنتُ أجدُ نفسي كَ لعبة بين يديّ أمّي، كَ قطة صغيرة تلاعبها بين أحضانها. كنتُ أرى ألوان الحياة و أنا أرضع الحليب من ثديها. كانت كتلة من اللحم المجَسّم لِ هيئتها، كتلة خالية من العظام. كنت أتصوَّرها مادة لدنة تأخذ كلّ الأشكال التي كنتُ أريد تشكيلها. لا أعرف كيف أَصِف شعوري تجاهها، تجاه الأنثى، إنَّها مطر الهيماء، فصول السنة، لغز الحياة. إنَّها الروح يا صديقي، فَ كما أَنَّ الإنسان يموت عندما تغادره روحه و يغدو حينذاك هيكلا لا روح فيه، لا حركة فيه و بالتالي يتحوَّل إلى جثّة يغزوها التحلُّل و العفن. هكذا يكون مصير الإنسان فيما إذا غادرت الأنثى حياته، أو إذا بقي الذكر من غير أنثى، أو من غير حُبّ. أعتقد بِ أنَّ هذا التعبير هو أقرب لِ الفكرة التي أردتُ توضيحها يا صديقي.

– أوافقكَ على أنَّ الحُبَّ هو محور الحياة، أو بِ الأحرى، أَمسى الحُبّ محور الحياة بعد أنْ ارتقى الإنسان بِ تكوينه البدائي و صارت خلاياه العصبية تبني منظومة جديدة في تركيبته النفسية و الروحية، و بات يُمَيّزُ بين الغريزة و العاطفة، يَفصلُ بين الغرائز و الأحاسيس، يشعر بِ متعة الألوان و أصوات الطبيعة و الطيور المغرِّدة و بِ وجود الأنثى معه، يشعر بِ الحزن حين تغيب عن ناظريه، أو عن حياته، و يشعر بِ الشوق إليها إلى درجة الضياع. صار يُمَيّزُ بين الحُبِّ و العنف، بين الحقد و التسامح...إلخ. ف الحُبُّ يا ناريك أسمى من أن نلصقَ به تهمة الحقد والكراهية. الحُبُّ لا يعرف سوى الحب، والحب ليس ب مقدوره القيام ب عمل سوى الحب، و لا حقيقة في الحياة على الإطلاق سوى الحب. ف الحُبُّ هو الحقيقة الوحيدة تحت هذا

الشمس و كل الحقائق التي يسوقها الإنسان ليست سوى أوهاما و أساطير و خرافات، و لأننا سَبَيْنا الحب و انتهكنا حرمته و قدسيته، نرى أنفسنا نتمرّغ (منذ ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا) في أوساخنا، ونفترس بعضنا ب شراسة تفوق شراسة الضواري. ف بدل هذه الآلهة المرعبة التي خلقها هذا الشرق و نصّبها طواغيت على رقابنا وأرواحنا المتعبة، وإذا كان ولا بد من إله ل هذا الكون، فَ أنا أقدم لكم إلهي أنا، وأدعوكم لاعتناق ديانتي أنا، ديانة المحبة، والتي إلهها هو الحُب، هذا الإله الجميل الذي ليس لديه جيوش محاربة، و ليس لديه أسلحة فتاكة تقتل الحياة و تُدَمِّر البلدان، لا يدعو ل القتل والقتال، و لا يدعو ل الحقد و الكراهية و الانتقام. إلهي أنا، يا ناريك، لا يفرّق و لا يميّز و لا يفضّل أحدا على أحد، و لا يدعونا ل عبادته. إنه يرفض العبودية حتى له، فنحن إخوته أحبته أولاده أصدقاؤه، لا طقوس ولا فرائض ولا وسطاء بيننا و بينه، لأن إلهنا واضح ك عين الشمس و شفّاف ك الهواء، و مفهوم كما الورد و المطر، لا أسرار فيه ولا طلاسم لديه، ليست لديه مغريات ولا حوافز أو رشوات ل كسب الأتباع و الفدائيين إلى صفوفه. ليس لنا أعداء ولا نعادي أحدا، إنما نتحاور مع عناصر الحياة كلها. نحن المحبون(نسبة إلى ديانة المحبة، ك أن تقول المسيحيون، المسلمون، البوذيون. . . إلخ) نعلن لكم ب اسم حُبِّنا الجميل الخالد(= ب اسم إلهنا، لأن الله لدينا هو الحب) أن لا جنّة ولا جهنم واقعيَيْن وحقيقيَيْن موجودين في مكان ما في طبقات السماوات السبع أو التسع أو المائة، كما تصفها آلهة الشرق الطغاة. إنهم أمراء الحرب و قادة جيوش سماوية و أرضية، عرّابي الجنس في الأرض و السماء، مفسدي أخلاق البشر من حيث أنهم يشجّعونهم على الارتشاء والكراهية و الأنانية و الحقد و القتل. إنهم(= الآلهة) يكذبون علينا في مسألة الخير و الشر و بالتالي مسألة الصراع بين الخير و الشر، أي بين الله (الخير) و الشيطان (الشر). ف إذا كان الله مثلما يقولون عنه، هو الخالق الرحيم و كليّ القدرة، وقادر على كل شيء، ف إن قال كن ف يكون، وإن قال ل العظم المفتت قم فَ سيحيا، فَ لماذا لا ينهي هذه الشرور و يقضي على زعيم الشر، لماذا لا يمسك الشيطان من أرنبة أنفه و يزجّه في السجن هناك لديه، أو لماذا لا يهديه إلى طريق الخير مرة وإلى الأبد، و لماذا لم ينهِ مأساة الإنسان وعذابات البشرية التي سببها ذاك الشيطان؟! إنه(= الله) لم يقل الحقيقة بِ خصوص الإله الشيطان، و لم يقل لنا بِ أنهما الإثنان (= الله والشيطان) شريكان متفقان في قيادة الحياة هكذا و بهذه الطريقة البراغماتية .إنهما أفسدا الحياة، و لا زالا يفسدانها، وذلك من خلال بثّهما ل هذه الأخلاق اللا إنسانية (الأنانية، النفعية، الغدر، الثأر، الحقد، القتل، الكراهية. . . إلخ) ، كيف يستطيع الله رؤية المآسي البشرية و ذبول وَجْنات

الرضّع جوعا حتى الموت؟ كيف يسمح لِ نفسه بِ تسليط الجراد والبعوض والدماء والطاعون. . . إلخ على البشر و ينظر من عليائه إلى تخبطهم في أوحالهم و بين جثث موتاهم، و يستمتع ب أنينهم الصاعد إلى عرشه، أيّة سادية هذه؟؟! ! الأمر الذي يدعو ل الحيرة و الدهشة و القرف هو في هؤلاء الأخوة والأخوات فرسان جوقة المبجلين الذين يستميتون في الدفاع عن الظلم والظلام والعبودية والجهل، إنهم يتحدّون الحب بِ الكراهية، والعلم بِ الجهل، والواقع بِ الوهم، والسلام بِ القتل و القتال، و التسامح بِ الحقد، و العدالة البشرية بِ الظلم الإلهي.

إنها الثقافة. . . ثقافة آلهة عشائرية، قبلية، رعوية. إنهم كرّسوا ثقافة الرعاة، البدو الذين لا مجتمع لديهم و لا مدنية، و الذين لا ولاء لهم سوى ولاءهم لِ العشيرة، القبيلة. إله الرعاة فضّل الراعي على المزارع المستقر في الأرض، وجعل من الراعي نموذجا بريئا، طيبا، مسالما، مخلصا، صادقا، ضحية، و جعلَ من المزارع نموذجا خبيثا، حقودا، مجرما. هذه الصورة واضحة في التراجيدية الإلهية التي أخرجها الله حين طلب من الأخوين قايين وهابيل تقدمات (= قرابين) ل عرشه، فَ قام بِ مباركة و قبول تقدمة هابيل (الراعي) و رفض تقدمة قايين (المزارع) ، هذا التفضيل هو الذي أسس لِ الجريمة الأولى في الحياة، حيث أقدم قايين على قتل أخيه هابيل، و كما هو واضح فَ هذه الجريمة تمّت لأنها مثبتة في المخطط الإلهي، ف هذا الإله البدوي أفرز ثقافة بدوية وعمّمها، أو بِ الأحرى فرضها بِ القوة والإرهاب على هذه الجغرافيا التي كانت المدنية فيها مزدهرة و منتشرة انتشارا واسعا، و جوهر تلك الثقافة هو عدم الاعتراف بِقانون أو دستور، وبالتالي عدم الاعتراف بِ الآخر، وهذا يقود إلى استباحة الآخر بِ كل ما تحمل هذه الكلمة من معاني، و كل ما تحمل هذه الصورة من بشاعة و وحشية. أيها الحب، قل لهم بِ أننا لا علاقة لنا بهم، و أننا لا نحمل بِ أيدينا سوى الورود والأقلام، و في قلوبنا سوى الحُبَّ و السلام، و ليسمعوا ابتهالاتي لك يا حبي، فَ أنا أحبك أيها الحب وأحتاجك فَ أنت بِ النسبة لي كما الهواء والماء. تعال إليّ، ادخل في قلبي، في كل خلية من خلايا جسدي الفاني، كُنْ أنت أيها الحب عيوني ولساني، كلمتي الأولى والأخيرة، شهيقي وزفيري، أنت الوحيد الذي بك أتطهّر من أوساخي، بك تستقيم أخلاقي و يرفرف السلام فوق رأسي، و تمتلىء نفسي هدوءا وسكينة، لا تهجرني يا حبي (= إلهي) ، ف بدونك يزوغ بصري ويتشعّب لساني، تسيطر غرائزي على دماغي، ويجتاح الظلام روحي وكياني، وأغدو صيدا ثمينا وسهلا لآلهة الفساد و الجهل والظلام، إنهم يتربصون بنا، و يعدّون لنا الدسائس تحت وهج السيوف وصدى صوت الله في المغاور والكهوف: أن اقتلوا كل من لا يؤمن بي، وكل

من لا يخضع ويطيع مفرزاتي، ك تلك التي رميتها فوق طور سيناء ل صاحب العصا السحرية، و ل صعاليك الصحراء المجدبة .

كان الجوُّ منعشا. وخيالاتهما كانت قد توهَّجت والخَمرة كانت قد لَوَّنَت عناصر الطبيعة بِ أجمل الألوان وأَزاحت المحظورات و المقدَّسات و الطواطم عن محيط أفكارهما، ممّا جعلهما يُحَلِّقان في الروحانيات و العذريات من الحُبِّ وجرجرة الخرافات والأساطير إلى ساحة الفلسفة و العقل و المنطق. أَمضيا أَكثرَ من نصف الليل في هذه الجلسة الغنية بِالعلم والفلسفة واللاهوت والجَمال. لم ينسَ أُونيل التحَدُّث عن الشاعريَن، الفيلسوفيَن، الباحثَين عن الجوانب العقلية و المنطقية في المسائل الغيبية، الماورائية و اللاهوتية (كريكور ناريكتسي و برديصان). يُعتبَر ناريكاتسي شاعرا غنائيا ملحميا، و غالبا تكون أشعاره تجسيدا و تمجيدا لِ الطبيعة بِ حسٍّ فنّي رائع حيث يتغنّى بِ ألوان الطبيعة و الزهور و جَمال النور. ظاهرياً، تبدو الأغاني صوراً لطبيعة هذا العالم، إلا أنها في الأعماق تتعلق بالمفاهيم والعقيدة الروحية المسيحية. وتتميز الأناشيد بتصوير ابتهاج الشاعر المتأثر بجمال الطبيعة، وتزينها ألوان الكلمة و ألوان الشروق و الربيع. و نجد أن القلق الانساني والمشاعر الفياضة يزداد في الأناشيد المغناة و يغدو حزناً مسيطراً. وقد أدخل ناريكاتسي روحاً جديدة في فن الشعر الغنائي في القرون الوسطى و حَرَّرَ الأناشيد من القوانين الكنسية، فكان شعره الغنائي بداية لِ نهضة الشعر الأرمني. و في أساس أفق ناريكاتسي المتناقضة والمعقدة تجد تصوراته و تأملاته عن الله و الحياة و الروح و الجسد. فَ هدف الانسان، من وجهة نظره، هو السعي لِ التشبُّه بِ الإله، السعي إلى الكمال الإلهي المعنوي.كانت أشعار ناريك الغنائية بداية لِ تطور عهد القصيدة الروحية و ازدهار الشعر الغنائي في القرون الوسطى. فَ كان تأثيره كبيراً على تطور الأدب الأرمني. أَمّا عن برديصان، فَ كانت المواضيع أكثرَ تعقيدا. إذْ أنَّه ذكرَ مقتطفات موجزة عن فلسفته، رؤيته اللاهوتية و تفسيراته لِ الغيبيات. يقول أُونيل عن برديصان: إنَّه فيلسوف و منجِّم و شاعر و مؤسس مدرسة في الرها(مكان ولادته). إنه صورة أخاذة بسبب فكره وأسلوبه مما جعل التلاميذ يترددون إليه. ربما ولد وثنيا ثم اهتدى إلى المسيحية، و هو شاب يافع . قضى برديصان القسم الأول من نشاطه في بلاط أبجر التاسع (197 . 216 م.) الذي كان يهتم بِ الفنون والآداب والعلوم. ساهم في مساعي الملك الثقافية، و يُعَدُّ عملاق الأدب الرهاوي في عصر الملكية. و على أثر احتلال الرومان لِ الرها واغتيال ملكها و اقتياد ولديه اسيرين إلى روما . غادر

برديصان المدينة إلى أرمينية حيث استقر وانصرف إلى البحث والكتابة لنشر المسيحية والدفاع عنها حتى وفاته.

– شكرا على هذا المدخل الرائع يا صديقي! من فضلك يا أُونيل أريد أنْ أعرف، مبدئيا، ما إذا كان برديصان قد كتب في الغيبيات و اللاهوت المسيحي، و أشعارا غنائية و كنسية. و أيضا كنتُ أريد أنْ أعرف رأيه في الفلسفة اليونانية، و هل له كتابات في الفلسفة بِ شكل عام .

– كتبَ برديصان في مجالات متعدِّدة. يُعزى إليه كتاب في الفلك، و ثان في النور والظلام، و ثالث في المتحرك والثابت، ورابع في روحانية الحق، و أَلَّفَ مئة و خمسين ترنيمةً، على عدد مزامير داود، ضمنها آراءه الفلسفية واللاهوتية. وقد انتشرت بسرعة. تعلمها الناس و أخذوا ينشدونها كما يقول مار أفرام.هذه المزامير ضاعت وأُتلفت من قبل معاصريه مع بقية مؤلفاته، و لم يسلم منها سوى ما ينسبه إليه مار أفرام في أناشيده، و كتيب تحت عنوان "شرائع البلدان" وقد قام تلميذه بِ إنشائه و تقديمه على شكل حوار. في هذا الكتيب يقدم الكاتب نماذج من شرائع شعوب و بلدان لِ إظهار مدى تأثيرها على حرية الفرد. يصف اوسابيوسَ القيصري برديصان وصفا متميزا قائلاً: "ظهر شخص يدعى برديصان وهو شخص مقتدر جدا و باحث ماهر باللغة السريانية. و قد كتب أبحاثاً ضد أتباع مركيون وغيره ممن ابتدعوا آراء مختلفة. كتبها بلغته مع مؤلفات أخرى كثيرة و من بينها بحث قوي عن القضاء و القدر و مؤلفات أخرى يقال إنه كتبها بمناسبة الإضطهاد الذي حدث وقتئذٍ".

الإيمان بِ النسبة له هو في غاية الأهمية، فَ هو يرسم صورة قاتمة لِ مَن لا إيمان له. يقول عنهم: "إنَّهم لم يتلقّوا المعرفة من الحكمة الحقة، لذا لا يسعهم أن يتكلموا و يستنتجوا و ليس لهم أن يشتاقوا بسهولة إلى الإصغاء فليس لديهم أساس الايمان لِ يبنوا عليه و لا ثقة تدعم رجاءهم، فَ إنهم يشكون في الله و ليس فيهم مخافته لكي تنجيهم من جميع الخرافات. فَ الذين ليس لهم مخافة الله يتعرضون لجميع الخرافات ... إنهم يتيهون في أفكارهم و لا يستطيعون الاستقرار، و مذاق أفكارهم تافه في فمهم، وهم في كل حين خائفون،فزعون و ثائرون".

مفهومه عن الإنسان متأثر بِ الكتاب المقدس .فَ الله هو الذي خلق الإنسان و خلقه عاقلا، حرا، سيد المخلوقات ومتساو مع الملائكة. و لديه ثلاثية عن الأنسان مقتبسة من الفلاسفة اليونان و بخاصة أفلاطون، فَ الإنسان مركّب من جسد و نفس وعقل و مركز حريته هو في عقله و ليس في قوة بدنه، وهذا ما يُميّزه عن الحيوان. واهتم أيضا

بِ موضوع الخير والشر والإرادة الحرة والقدر. و يؤكد أن طبيعة الإنسان أساسا صالحة،غير إن الظروف الخارجية، التي ليست بيده، تؤثر فيه و مع هذا يبقى تصميمه الأخلاقي حرا و يفسّر هذه الجزئية قائلا: "و لكونه . الإنسان . مخلوقا على صورة الله فَ قد أُعطيت له هذه الأمور لِ خدمته في الحياة الزمنية و أُعطي له أن يتصرف حسب إرادته الشخصية، و أن يعمل كل ما يستطيع عمله إن شاء و ألّا يعمله إن لم يشأ... ".. و يقول:"إن الخير هو من جوهر الطبيعة البشرية وإن عاش الإنسان بموجبه حصل على التناغم. إن الخير يعود إلى الإنسان لذا فَ هو يفرح إذ يعمل الصلاح أما الشر فَ هو بِ تأثير من الشرير. لذا فإن الإنسان يفعل الشرور حينما يكون مضطربا وغير سليم في طبيعته".

اهتمَّ بِ الأجرام السماوية و الأبراج و تأثيرها في حياة الإنسان، أو ما يحصل له من مرض و فقر و ثروة و صحة. إن مفهوم برديصان لِ القدر يختلف تماما عن المفهوم الديني الذي يؤمن به البعض والمتعلق بالله مسير كل شيء. فَهو يرى كَ أهل زمانه، إن لِ الأجرام السماوية تأثيرات على طبيعة الأرض والإنسان. فَ لِ المواسم نفوذ كبير على الغلات . الإقتصاد– وبالتالي على حياة الأنسان الجسدية والإجتماعية و الروحية، فَ الحَر و البرد و جودة الغلات و رداءتها كلها تطبع حياة الأنسان، تعرقلها أو تدفعها إلى الأمام، و فيما عدا ذلك فَ هو (الإنسان) حُرّ. و هذه النظرة تتماشى مع التعريف الذي يعطيه لِ القدر:"لِ نتكلّم الآن عن القدر و نبيّن إنَّه ليس مسلَّطاً على كل شيء، لأن ما يسمى بِ االقدر هو نفسه نظام سير الأجرام السماوية و العناصر الممنوح لها من قبل الله. و حسب هذه السيرة و هذا النظام تتبدل العقول عندما تنحدر في النفس، و تتبدل الأنفس عندما تنزل في الجسد، و هذا التغيير نسميه قدرا و طالعا". إن هذه العناصر الثلاثة (الطبيعة، القدر والحرية)|،كل واحد منها يحافظ على شكل وجوده إلى أن تكتمل الدائرة والمقياس والعدد كما قد جعلها ذاك الذي . الله . حَدَّدَ وجود و كمال و جوهر و مقياس العناصر و الطبائع.

كان ناريك قد كتبَ عن هذا اللقاء، الصدفة، اللقاء الخيالي الاسطوري. ذَكرَ تفاصيل السهرة السحرية التي استمرَّت حتى بزوغ أولى إشعاعات الفجر المهيب، و اختراق صدى أولى موجات الزقزقات لِ سكون الفجر، و الصياح الأوّل لِ الديك الذي أعلنَ عن رحيل عتمة الليل و قدوم الفجر الجميل. كان أُونيل، قبل ذهابه لِ النوم، قد دَلَّني إلى الغرفة التي خَصَّصها لِ إقامتي. بقيتُ وحيدا أتأمَّلُ خيوط الفجر و الطيور التي استفاقت و شرَعَت في الغناء و الطيران إلى حيث مناهل المياه و بيادر الطعام. كان السكون ما يزال يُخَيِّمُ على المكان، و خيالي كان قد فَكَّ عُقَدَ الحِبال و السلاسل التي

تُكَبِّل دماغي، أو بِ الأحرى، كان خيالي قد تَمَرّدَ على الحرّاس و تَحدَّى هراوات جنود السماء و أشباح الرهبان والنصوص المقدَّسة. في الأثناء تهيّأ لي و كَ أنّي في مجلس يَضمُّ بشرا مثلنا و آخرين يشبهوننا في بعض الأشياء و يختلفون عَنّا في نواحي أُخرى. كان بينهم شخصين يشبهان العم بيدروس والخال برصومو، وكائنين يشبهان الملائكة. أَحدهما أبيض الوجه وَرْديّ الخدود، و الآخر أسود الوجه فَحْميّ الخدود ذي قرنين. لم أفقد احترامي لِ العَمّ و الخال، بِ الرغم من تحَرُّري من سطوة المحرَّمات و المقدَّسات، فَ هما يختلفان عن الرموز التاريخية، أو الشخصيات التي تُحاط بِ هالة من القداسة القسرية و تُفْرَض على الشعوب فَرْضا من خلال السيَر المقدَّسة والاسطورية التي تُحاكُ لهم. إنَّهما يؤمنان بِ الخير، المحبَّة، السلام، العدالة و الصدق. لا يعرفان المخاتلة، المراءاة، الحقد و التقيّة في حياتهما. كدتُ أطير من فرحتي لرؤيتهما. عانقتهما و جلستُ بِ قُربهما في نفس المجلس الذي يجمعهما مع الآخرين. كانا مسرورَيْن بِ لقائي و متفهّمين لِ استغرابي من وجودهما بين هؤلاء في هذه الجلسة. سألتهما السؤال الطبيعي، الذي سَ يسأله أيّ أحَد عند رؤيته لِ هذين الكائنَين اللذين يشبهان الملائكة، المتعَلِّق بِهذين الملاكَيْن ومضمون الحِوار بينهم(بين الطرفين) أقصد بين العَمّ و الخال من جهة و بين الملاكين من جهة أُخرى. كان جوابهما هو: إنَّنا نُبَيّن لهما نتائج أعمالهما و تأثيرها على البشر (سلبا و إيجابا) و نحاول التوفيق بينهما لِ تجنيب البشر من الوقوع في الخطيئة و التهلكة، و زَجْر الحيوات الشريرة في روح و نفس الإنسان .

– هل هذان الملاكان هما المسؤلان عن الخير و الشر بين الناس؟ سألتهما لِ أتأكَّدَ ما إذا كان إله الخير و الشر هو إله واحد، لأنَّ أُونيل بِ حديثه في هذه المسألة قد هَزَّ معتقداتي .

– إنَّكَ تعلَّمتَ يا ناريك، حين كنتَ تواظب على حضور الاجتماعات المسائية الروحية، بِ أنَّ هناك ملائكة مسؤلة عن أعمال البرّ و الخير، و هناك قوى شرّيرة على هيئة ملائكة تدفعُ الإنسان إلى طريق الضلال و الخطيئة و الجريمة، و هؤلاء هم أعوان الشيطان. نعم يا ناريك! هناك خير و هناك شرّ، و الله يأمر الإنسان بِ عَمَل الخير ويَنهى القيام بعمل الشرّ، والشيطان هو الذي يُزَيّن لِ الإنسان طريق الضلال و ارتكاب الأخطاء و الخطايا و جميع أنواع الشرور. كنتُ قد سمعتُ هذا الكلام كثيرا و كنتُ قد آمَنتُ بِ صحته. لكنَّ أُونيل قد خَلْخَلَ إيماني بَ هذه الحكاية. كنتُ متردِّدا في عَرض ما سمعته من أُونيل في هذا الموضوع. لكنَّني حَسَمتُ أمري و قرَّرتُ أنْ أُطلعهما على ما قاله لي. و رحتُ أُمَهِّدُ لهما الطريق للدخول في المحظور. قلتُ لهما

بِ استحياء: لا أعرف يا عَم بيدروس كيف أشرحُ لكما ما قاله لي أُونيل في هذه الليلة عن موضوع الخير و الشرّ، و عن المسؤلين عنهما في الحياة. لقد قال: " .... ف إذا كان الله مثلما يقولون عنه، هو الخالق الرحيم كليّ القدرة، و قادر على كل شيء، فَ لماذا لا ينهي هذه الشرور و يقضي على زعيم الشر، لماذا لا يمسك الشيطان من أرنبة أنفه و يزجّه في السجن هناك لديه، أو لماذا لا يهديه إلى طريق الخير مرة وإلى الأبد، و لماذا لم ينهِ مأساة الإنسان وعذابات البشرية التي سببها ذاك الشيطان؟! إنه (= الله) لم يقل الحقيقة بِ خصوص الإله (الشيطان)، و لم يقل لنا بِ أنهما الإثنان (= الله والشيطان) شريكان متفقان في قيادة الحياة هكذا ...."

رأيت علامات التعجُّب و الدهشة على وجهيهما. لم يُصدِّقا ما سمعاه من كلام ينسف أساس العقيدة المسيحية. كانا ينظران إلى بعضهما بِ استغراب. توجَّه إليَّ الخال برصومو، بعد لحظات من هذه الخبطة اللاهوتية، بِ سماحته المعهودة و قال:

– يا ولدي ناريك! إنَّ المسألة ليست كما تحدَّثَ إليك صديقك أُونيل، فَ الشيطان، أو رئيس الملائكة الذي طرده الله، لم يُجَرَّد من سلطانه، أو قدراته الخارقة التي يتمتَّع بها و التي اكتسبها من الله نفسه، فَ هو حُرٌّ طليق لا يحدُّ سلوكه أيّ حَدّ لا من السماء و لا من الأرض. فَ الانجراف نحو الخطيئة و السير في طريق الشَرّ، يقع سببه على عاتق الإنسان ذاته، لأنَّ الله قد أعطاه كامل الحريّة في الحياة، طبعا بعد أنْ بَيَّنَ له طريق الخير و طريق الشرّ. إنَّه اكتسب نعمة العقل من الله، و هو في الوقت نفسه يواجه المغريات التي يسوقها الشيطان اَمامه. و إذا انزلق إلى طريق الخطيئة و الشَّر، فَ يكون في هذه الحال هو المسؤل عن ميوله، اختياراته و أَعماله. أَمّا قول صديقك بِ أَنَّ الله و الشيطان شريكان في قيادة الحياة، فَ هذا قولٌ باطل و فيه تَجَنّي على الله الكامل الذي لا يَعيبه أَيّ شيء من الأرضيات و لا، حتّى، الروحانيات. إنَّه فوق كلِّ شيء، فوق كلِّ الشبهات و كلّ الشكوك و الظنون.

شعرتُ بِ الندم على التحدُّث في هذه المسألة البالغة الحَسَاسية، خاصة هما شيخان مؤمنان نَقيّان في الروح و النفس. أَردتُ الاعتذار منهما، لكن في نفس الوقت سمعتُ الملاك الأسود ذي القرنين يقول: "أنا بريء من جميع التُهَم التي تُكال لي في موضوع انحراف الإنسان إلى طريق الخطيئة، و الجريمة. فَ كلّ الذي أفعله هو تشجيع هذا الإنسان لِ التحرُّر من القيود التي تُكبِّله، التحرُّر من العبودية التي فرضها الله عليه. الخلاف بيني و بين الله لم يكن بِ سبب رفضي لِ الأمر الذي أصدره و المتضمِّن طلبه لي بِ أنْ أسجد لِ الإنسان و أَنَّني رفضتُ السجود لِ الإنسان، كما رَوَّج أتباعه لِهذه الكذبة، و إنَّما السببُ يكمن في دعوتي لِ الإنسان بِ التمرّد على القرار التعسّفي

الظالم بِ حَقِّ الإنسان و الذي يطلب فيه ألاّ يأكل من شجرة معرفة الخير و الشرّ.
هل من العدل أنْ يُتركَ الإنسان ضائعا في الجهل، ألاّ يميِّزَ بين الخير و الشر، أنْ يُمْنَع من نعمة المعرفة؟ أنا لم أَقُلْ لِ الإنسان، أو بِ الأحرى، لم أدعوه إلى أنْ يسرق، يكذب، يزني، يمكر و يقتل. أنا أعطيته فقط مفتاح المعرفة، و بَيَّنْتُ له روعة الغِنى و عَظَمة امتلاك القوّة و جمال الفاتنات و السعادة التي يحصل عليها من معاشرة الإناث...إلخ. فَ لماذا تتهمونني هذه التُهَم الجائرة و تُحَمِّلونني سببَ الفساد الذي يَعمُّ الحياة؟ لماذا لا تطلبون من الله أنْ يُنقذهم من الانزلاق في طريق الضلال و الخطيئة و الجريمة، أَ ليس هو الله القادر على كلِّ شيء"؟
كنتُ أريد أنْ أَردَّ عليه، لكنَّني ما عَرفتُ بِ ماذا أَردُ، فَ الحكاية كانت صاعقة بِ النسبة لي و لم يكن لديَّ ما يُمكِّنني الدفاع عن قصة شجرة معرفة الخير و الشر في مواجهة الحجّة التي ساقها الملاك الأسود ذي القرنين (الشيطان). في الأثناء سمعتُ صوت بوبي و هو يقول: ما الذي دهاك يا صديقي مع مَن تتكلَّم، هل أنتَ بِ خَير؟! استفقتُ من غفوة الخيال، أو من تجاوز حدود الله. مَدَدْتُ يديَّ إلى رأس بوبي و رحتُ أُداعبه. كنتُ فَرِحا لِ أَنَّه أَنقذني من الموقف المُحرَج الذي كنتُ فيه، إنْ تِجاه العَمِّ و الخال، أو تِجاه الملاك ذي القرنين الذي أَحرجني في موضوع العلاقة بينه و بين الله، في موضوع المسؤلية التي يجب انْ يتحمَّلها أَحد الطرفين في مسألة ضلال و انحراف الإنسان. فَ إمّا هو المسؤل عن ذلك، أو أَنَّ الله هو المسؤل عن ضلال الإنسان.
كنتُ أَعتقد بِ أَنَّني أَمتلك قدرا كبيرا، أو قدرا لا بأس به، من العلوم في مختلف مجالات الحياة، و خاصة تلك المتعلِّقة بِ الأديان و العقائد الغيبية الحديثة و القديمة. صحيح إنّي على اضطلاع بِ جوهر الأديان التي كانت منتشرة قبل المسيحية، في الشرق و الغرب، و مُجَمَّعات الآلهة التي كانت تحكم شعوب الامبراطوريات القديمة كَ الفُرْس، الفراعنة، الإغريق، الرومان، الأكاديين، السومريين، الآشوريين، البابليين...إلخ. و كنتُ مهتما بِ موضوع تعدُّد الآلهة و اختصاص كلّ منها و العلاقات فيما بينها. كنتُ قد حصلتُ على مراجع مهمّة و مخطوطات قديمة من الخال برصومو و العَمّ بيدروس. كان مصدر تلك الكتب و المخطوطات من الرها و يريبوني، حيث أَنَّهما حصلاعليها عن طريق معارفهما، لأنَّهما كانا مصدر ثقة و احترام في البلدة. كنتُ قد اضطلعتُ على بعض التحليلات و التأويلات لِ ولادة الآلهة و المعارك التي كانت تنشب بينها. فَ المعركة التي نَشَبَت بين مردوخ و تيامات أَخّذت تفسيرات مختلفة و متضاربة. هناك مَن شَيْطَنَ تيامات و اعتبر مردوخ قوة خير انتصرعلى قوة الشَّر. فَ هذه الاسطورة هي واحدة من اقدم قصص الخلق، فَ الذي يناصر مردوخ يعتبر أَنَّ

المعركة كانت بين بطل قومي و وحش مائي او مخلوق من العالم الآخر او ثعبان او تنين. هنا يتم إظهار اسطورة تيامات كَ تجسيد وحشي لِ الفوضى البدئية. ان الافكار الرئيسة لأسطورة تيامات تتواجد في أساطير أخرى و التي تعد جميعها مرتبطة بِ تيامات بشكل مباشر او غير مباشر، مثل اسطورة الألويانكا الحثية و أبولو في اليونان الذي قتل بايثون لِ السيطرة على كهنة دلفي . أمّا الرأي، أو التحليل الآخر، يعتبر أَنَّ موت تيامات على يد مردوخ ترمز إلى تحوّل نظام السلطة في المجتمع و انتقالها من الأم إلى سلطة الأب. ان هزيمة الآلهة الاناث تتفق مع زيادة الهيمنة الذكورية في الديانات القديمة والتي اطاحت بالمجتمعات القديمة. أَمّا تفاصيل بعض القصص و الأمثال الواردة في الكتب المُقَدَّسة، و التي هي واضحة وضوح الشمس، فَ لم أَنتبه إليها. مثل القصة التي شرحها الشيطان عن ثمرة شجرة معرفة الخير و الشر، و دخل في تفصيل ورمزية مكوِّنات القصّة. فَ قصة مردوخ و تيامات أيضا مليئة بِ الأسرار والرموز، و أَهمها هي هذا التفسير الرائع لِ سبب و جوهر المعركة التي جرت بينهما، و لولا قراءتي لها من هذه المراجع والمخطوطات، لَما عرفتُ هذا التفسير لِ معركتهما. التفتَ إلى بوبي وقلتُ له: يا صديقي العزيز! يبدو إنَّنا بِحاجة إلى الكثير من المتابعة و المطالعة لِ معرفة الأسرار و المضامين المُلغزة لِ تفاصيل القصص و الحكايات المكتوبة في الألواح و الرُّقُم و المخطوطات التي تحكي عن العقائد و الأديان القديمة و الحديثة على السواء. سوف نخوض في أعماق الأديان جميعها دون النظر إلى المضامين الإرهابية و العنصرية لِ بعض الأديان الداعية إلى قتل الآخرين الذين لا يؤمنون بِ معتقداتهم و كتابهم و رموزهم المقدَّسة. سَ نبحث في جمالياتها و فلسفاتها، فَ الأديان كلّها لها منظومات قيمية و شرائع و وصايا قد تكون مختلفة عن بعضها، أو تكون متقاربة من بعضها، يعمل بها المؤمنون و يتمثَّلونها في حياتهم اليومية. إنَّ طريقنا طويلة و شاقَّة يا بوبي!

- 12 -

عرفَ أهل البلدة أخباره عن طريق والديه، و فيما بعد عن طريق الرسائل التي كان يكتبها إلى أبويه. فَ الرسالة الأولى التي أرسلها عن طريق الأخوية اليسوعية التي تربطها علاقة إيمانية بِ أَخوية القديس يعقوب البرادعي في بلدته زالين (القامشلي). تحدَّث فيها عن المكان –الدير– و عن البرنامج اليومي لِ الحياة فيه. كان قد نزلَ في مُجَمَّعٍ أشبه بِ مدرسة نموذجية ذات نظام داخلي في مدينة" نصيبين" كما كتبَ اسمها. فيه كنيسة نموذجية و صوامع خاصة بِ الرهبان و قاعات لِ طلبة العلوم المختلفة، علم الفلك، الآثار، الفلسفة، علم اللغات، العقائد الدينية، الأديان و اللاهوت. و كانت توجد مختبرات و مواد كيماوية و بوصلة و اسطرلاب، و كانت هناك قاعات مغلقة لا يدخلها إلاّ المتخصِّصون و المختارون من قِبَل المشرفين على إدارة هذا المجمَّع، أو بِ الأحرى هذه الأكاديمية الرفيعة المستوى. كان قد عبَّر عن دهشته بعد مضي سبعة أَشْهُر لِ استقراره في ذلك المجمَّع. كان يبذل جهدا كبيرا لِ الاندماج، في هذه البيئة الجديدة، مع القادمين مثله، من دول و أماكن ذات ثقافات متباينة. تعلَّمَ، في السنة و نصف السنة الأولى، اللغة اللاتينية و اللغة الإيتالية، لغة توسكانا، مع منهاج روحي جديد. تعرَّف إلى يافعين، مثله، من الهند و خورم شهر وسمرقند و نينوى. كان التركيز في السنة الأولى على اللغة و المبادئ الروحية، تلك التي تجعل من الفتيان و الشباب الملتحقين بِالرهبنة أُناسا مختلفين، أُناسا ممتلئين بِ الطاقة الإيجابية،لا مكان لِ الحزن في حياتهم، لا مكان لِ اليأس و التشاؤم و السوداوية في حياتهم. طمأنَ أهله من خلال الرسالة الأولى، على صحته ومزاجه و نفسيته حيث جاء فيها:" أبي العزيز، أمي العزيزة! لقد عانيتُ كثيرا، في الأَشْهُر الأولى، بِ سببِ البُعد الذي حَلَّ بيننا. لم أكن أُصدِّق بِ أنَّني سِ أستمر في العيش بعيدا عنكم، بين أُناس لا أعرفهم و عادات مختلفة تماما عن تلك التي تعوَّدتُ عليها، و نظام جديد فيه دقة و صرامة في الالتزام. كلُّ الأمور مدروسة و مخطَّطٌ لها وفْقَ برنامج دقيق، يأخذ حاجاتنا و رغباتنا و هواياتنا بِ عَين الاعتبار. تعرَّفتُ على أطفال و فتيان بِ أعمار مختلفة، ليس أَقلَّ من ثلاث عشرة سنة، أي بِ أعمار متقاربة. كانت أمزجتهم متباينة بِ خصوص حياتهم الجديدة و النظام الصارم في الرهبنة. كنتُ أرى، في الفرص و أوقات الاستراحات، أطفالا و صبية منزويين في زوايا ساحة الاستراحة و الحزن باد في عيونهم. شاهدتُ أطفالا و

فتية، أكثر من مرّة، يبكون دون أَنْ يلاحظني أَيّ أحدٍ منهم، حتى أَنَّني، في إحدى المرّات اقتربت من فتى يضع رأسه بين كفَّيه و يبكي بِ صَمت، قبل عدّة خطوات منه أَصدرتُ صوتا كَ السُعال لكي لا يتفاجأ بِ وجودي قربه و مشاهدتي إيّاه و هو يبكي. حَدَّثتي عن الحزن و القهر الذي يعانيه هنا في هذا الدير ذي النظام و الانضباط الصارمَين. كان الشوق، لِ أهله و بلدته، يغلب عليه. كانت تراوده أفكار شيطانية، كما قال لي، كَ أن يهرب من هذا المكان، أو أن ينتحر لِ التخلّص من هذا العذاب والحزن الذي هو فيه، لكنَّني شرحتُ له، بِ الرغم من أَنَّني أنا أيضا كنتُ أُعاني و أنا أيضا بكيتُ مرّة في خلوة بعيدا عن الآخرين، شرحتُ أسباب هذا الحزن و القهر الذي نعانيه جميعنا، و ليس هو وحده، و بَيَّنتُ له الفوائد على صعيد بناء شخصياتنا و خلاص أرواحنا من مكائد الشيطان. في الليالي الأولى من وجودي هنا، كانت أحلامي، كلّها تقريبا، تدور في أَزقّة البلدة مع الأولاد الصبيان و البنات، حيث كنّا نلعب في الحارة إلى أوقات متأخرة من المساء، و خاصة في الربيع و بدايات الصيف. كنتُ أَتذكَّر الأوقات التي كنّا نمضيها عند النهر. كنّا نذهب يوميا إلى النهر، ما لم نكن مشغولين بِ أمور أُخرى، و كنّا نسبح يوميا(تقريبا) و كنتُ أَتذكَّر توبيخاتكِ و تهديداتكِ إيّاي بِ الشكوى لِ أبي في حال استمراري في النزول إلى مياه النهر. كنتُ أَعدُكِ بِ الالتزام بِ نصائحكِ وأوامركِ في الامتناع عن السباحة في النهر ثانية، لكنَّني كنتُ أُعاود السباحة في اليوم التالي. كنّا في أغلب الأيام نقضي ساعات طوال في صيد الضفادع، حيث كنّا نذهب مع النهر، على طول ضفافه، لِ أجلِ ذلك، و خلال رحلة الصيد تلك كنّا نأكل الخضروات من البساتين و الحقول القريبة من ضفتي النهر. و نادرا ما كان صاحب البستان يصرخ مهدِّدا، لأنه يدرك تماما بِ أننا لم ندخل الحقل، أو البستان، بِقَصْدِ السرقة أو بِ قَصْد تخريب المحصول، بِ الإضافة إلى ذلك، فَ أغلب أصحاب البساتين والحقول كانوا معروفين من قِبَلِ أهالينا، و نحن كنّا نعرفهم و نعرف أسماءهم و حين كنّا ندخل في مأزق، كنا نناديهم بِ أسمائهم (معطوفا بِ"عمّو") كنّا نقول عمّو فرحان والله نحن مو حرامية أنا ابن سعيد و هذا ابن ابراهيم، و هو كان يعرف آباءنا لذلك كان يكتفي بِالتوبيخ والنصائح. في بعض الكولات من النهر كانت تأتي الجواميس إليها، و حين كنّا نلتقي بِ قطيع منها و هي تقضي ساعات من الراحة و الاسترخاء في مياه النهر، كنّا نأخذ أقصى درجات الحيطة والحذر منها. كُنّا نعتقد بِ أَنها تهاجم البشر. وكان هناك اعتقاد سائد بيننا، نحن الأطفال، بِ أَنَّها تهجم على الشخص الذي يلبس ثيابا أحمر، حتَّى لو كان منديل عنق لِ تجفيف العرق، أو حتّى شريطا أحمرا في ياقة قميصه. كنّا ننظر لا شعوريا إلى ملابسنا، وفي حال يكون ثياب أحدنا تحتوي

على اللون الأحمر، كنّا ننصحه بِ الابتعاد عن الضفة لكي لا تَلْحَظه الجواميس. أمّا نحن، فَ كنّا نقوم بِ حركات لِ إلهائها و صَرْفِ أنظارها عن الهدف و جَعْلها تَنظر إلينا، و فقط إلينا.

أَذكرُ مَرَّة حين كنتِ تُتَبّلين أَفخاذ الضفادع، كيف كانت ترتعش في بعض الأحيان، و حينها كنتُ أَقفزُ مندهشا من حركة، أو بِالأحرى من تشنّجات اللحم الأبيض، و كنتُ أقول لكِ: انظري يا أُمّي كيف أَنَّها تتحرَّك بِ الرغم من أَنّها مقطوعة من جسدها، هل تشعر بِ الألم؟ و أَتَذَكَّرُ أيضا الليالي التي كان فيها والدي يشرب العرق مع المازايات الخفيفة، من البسطرمة و الزيتون و الجبنة، و حين تكون أَفخاذ الضفادع من ضمن المازايات، حينها كان يمتدحها لِ مذاقها الملوكي، كما كان يقول عنها، و كان يشكرني بِ طريقة غير مباشرة و كان يُقَدِّمُ كأس العرق إليَّ لِ أَشربَ دمعة منها، كما كان يقول. أَمّا أنا، فَ كنتُ أشعر بِ الفخر و الرضى عن نفسي.

و في بعض المرّات كان يأتي بِ سمكة، أو سمكتين مقليتين جاهزتين كان يشتريها من بائع السمك المتخصّص في تحضير هذا النوع من السمك(القشري). إذْ أَنَّه كان يشتريها من الصيادين الذين يصطادونها و طبعا مع أنواع أُخرى. لكن شفيق (بائع السمك) كان يشتري فقط نوع القشري و يأخذها إلى منزله لِ تبدأ زوجته بِ تنظيفها و غسلها و تتبيلها، و عند غروب الشمس كانت تقليها و شفيق يأخذها و يرتّبها على صينية دائرية و كان يعزلها عن الوسط الخارجي، و خاصة من الغبار و الذباب.

يحمل الصينية و السيباية الخشبية ذات الثلاث قوائم، إنَّها بِ مثابة قاعدة ارتكاز لِ يضع صينية السمك عليها في السوق الكائنة في مركز البلدة. كان دوامه يبدأ مع حلول أوَّل المساء، حيث المعلّمين و المهنيين كانوا يشترون السمك منه عند عودتهم إلى منازلهم بعد انتهائهم من العمل. كان شفيق يبيع بِ الوحدة و ليس بِ الوزن. كان مشهورا بِ نظافته و بِ سَمَكه اليومي الشَهي الطازج و الجديد دائما، سَمَكه الذي يأتي من النهر مباشرة إلى صينيته الجميلة. كان في أسفل القاعدة العليا من السيباية شبه مستودع صغير فيه لوازم العمل من ورق و خرَق و أشياء أُخرى. و هناك بِ الذات، كان شفيق يضع بطحة العرق الجاهز لِ الشرب و قليلا من البزورات و عدّة حَبّات من اللوزية الخضرا. كان الزبائن يعرفون مكانه في السوق الكائنة في قلب المدينة بِجانب العَرَصَة المسقوفة بِ جملون من القضبان و الزوايا الحديدية في تصميم هندسيّ رائع.

كانت تلك السوق ملجأ الباعة المتجوّلون و الباعة الذين يعرضون بضاعتهم على بسطات و عربيات ذات ثلاثة و أربعة دواليب، و معظمهم كانوا مشهورين بِ جودة بضائعهم و نظافتها. في نهاية دوام السوق و حلول الليل، كان الباعة ينسحبون واحدا

بعد الآخر والسوق كانت تذهب لِ الهدوء و الصمت، و حين كان شفيق يلملم أغراضه و بطحة العرق الفارغة و يحصي السمكات الباقيات على الصينية استعدادا لِ العودة إلى بيته، كان قد اختمر تماما و كانت روحه قد امتلأت بِ إشعاعات قوس قزح،عيناه كانتا تلمعان و وجنتاه تبرقان بِ حمرة وردية. إذا صادَفْتَه و مرَرْتَ بِ جانبه في هذا التوقيت، لَ شَمَمْتَ رائحة كونية لا تنتمي لِ روائح الأرض. رائحة السكائر و العرق و السمك و السعادة. نعم رائحة السعادة، فَ السعادة لها رائحة لا تصدر إلاّ من مثل هؤلاء الأشخاص. إنه يسير كَما الملوك نحو منزله لِ يُكمِلَ رحلته الخيالية في أحضان شريكته التي تكون قد جَهَّزَت مستلزمات التحليق نحو السماء. كان بيته يقع شرق بيتنا بِ شارع واحد. كنّا نجتمع، نحن الأطفال، هناك في نفس الشارع الذي يضمُّ منزل شفيق. كنّا نلعب بِ الكرة في النهار و في المساء نلعب ألعاب الطفولة. كنتُ أَشمُّ رائحة السمك المقلي في العصريات(قُبَيل الغروب) من بيت شفيق. بيته عبارة عن غرفة و صالون في حوش يتشارك فيه مع عائلات أُخرى أيضا في السكن. في وسط الحوش كان بئر ماء يستفيد من مائه العذب كلّ الجيران، في الشرب، الغسيل، الحمّام و شطف البيوت و الحوش و أمام الدار من الخارج كَ عادة أهل الحارة. كانت النساء والفتيات يغسلن الصحون والأواني المنزلية عند البئر، وغالبا يكون باب الحوش مغلقا. كان المرء يسمع أصواتهنَّ فقط، و يصدف في بعض المرّات أن يكون الباب نصف مفتوح، أو يكون مواربا قليلا، حينها كان بِ الإمكان رؤيتهنَّ و هنَّ حول البئر و يكون الأمر عاديا جدا، لم يكن يلفت الانتباه. و في مرّات كثيرة، حين كنتُ أَآتي إلى الحارة– كَ العادة– من اجل اللهو و اللعب، كنتُ أراهنَّ، إذا ما كان الباب مفتوحا أو مواربا، حول البئر و هنَّ يغسلن الأواني و كان الأمر عاديا كما كلِّ الأيام. لكن في إحدى المرّات و أنا أدخل الحارة، عند غروب الشمس، شَمَمْتُ رائحة السمك المقلي من على بُعْدِ عشرين مترا قبل البيت. مَرَرْتُ من عند بيت بائع السمك المقلي، شفيق، و كان الباب نصف مفتوح. تجاوزتُ الدار كما كلِّ مرَّة، و كان طبيعيا أنْ أرى البئر وسط الحوش، و لكن في هذه المرّة كان الأمر غريبا. فَ لم أُكمل ثلاث خطوات، بعد الباب نصف المفتوح، حتى شعرتُ بِ قوّة هائلة تسحبني إلى الوراء، فَ ما كان منّي إلّا أنْ عدتُ و نظرتُ إلى البئر ومَنْ عند البئر. رأيتُ امرأة تغسل أواني المطبخ وكان فستانها قد مال إلى طرف وانزاح من على ساقيها، وفي الأثناء أَسرعتُ في تجاوز الباب لا أعرف ما الذي جرى لي. لم أُكملْ طريقي إلى حيث الأطفال يجتمعون في ناصية الحارة، و إنَّما عدتُ أدراجي، ثانية، مارّا من عند الباب، و اختلستُ النظر إلى سيقانها التي كانت تُشِعُّ بياضا. طبعتُ المشهد بِالكامل في ذاكرتي وتابعتُ طريقي إلى البيت.

لاحَظَتْ أمّي ارتباكي و حالة القلق التي كنتُ فيها. استغرَبَتْ لِ عودتي إلى البيت لأنَّ خروجي من البيت لم يمضِ عليه أَكثرَ من خمس عشرة دقيقة .

– ماذا حصل يا ناريك، لماذا عدتَ باكرا، هل تشاجرْتَ مع أحد الأولاد؟ .

– لا..لا يا أُمّي لم أَتشاجر مع أحد. إنَّنا نُحبُّ بعضنا و لا نزعل من بعض. لكنَّني شعَرْتُ بِشيْ غريب في أعماقي وعدتُ للبيت. أريد أنْ أرتاح هنا على ناصية شارعنا.

– آه هذا جيّد، لِ تبقَ المحبة بينكم دائما يا بنيّ! قالت أُمّي. أَمّا أنا، ودون أن أعرف بِ أَنَّها اكتفَت بِ هذا القدر من معرفة ما حدثَ معي، و دون أن أعرف بِ أَنَّها ذهبت لِ متابعة أعمالها المنزلية، تابعتُ الحديث معتقدا بِ وجودها معي.

– رأيتُ، حين كنتُ في طريقي إلى أصدقائي، صورة إنسان في خيالي، أو بِ الأحرى، صورة امرأة. خُيِّلَ إليَّ و كأَنَّني أرى حوّاء بِ ذاتها و هي نصف جالسة عند نبع بئر تحت شجرة التوت الأحمر. لم تكن كما في الصورة الأصلية التي نراها في الكتب المدرسية و الدينية و التي انطبعَت في خيالنا، لكنَّها كانت شبْه حَوّاء. نعم يا أمّي! كانت نصف حوّاء. لم أسمع جوابا منها. التفتُّ يمينا و يسارا بحثا عن أَثَرٍ لها. أَدركتُ بِ أَنَّها لم تسمع ما قلتُ عن تلك الحوّاء التي بانَت أجزاء مغرية من جسدها المقدَّس و التي أَحْدَثَتْ ارتعاشات مجهولة المفاعيل في روحي، و سَرَّعَت من دقّات قلبي. غبتُ عن الوعي الوجودي و لم أعُدْ أَحِسُّ لا بِ المكان و لا بِ الزمان. فقدَتُ القدرة على التوازن و وجدتُ نفسي خارج المكان.

جاءت رسالته الثانية بعد سبعة شهورٍ من رسالته الأولى. استهلّها، ثانية، بِ الحديث عن ذكرياته و عن شقاوة الطفولة بِ حلوها و مرّها. هذه الرسالة عَنْوَنَها بِ "إلى أهلي الأعزاء" أَمّا متنها، فَ كانت عبارة عن ذكريات و مونولوجات جميلة كلّها كانت تتناول طيبة أهل البلدة و بساطة الحياة و روعتها. جاءَت الرسالة، كما قرأناها، على الشكل التالي: صار لي عشرة شهور و أنا أَتَعَلَّمُ اللغة اليونانية القديمة. إلى الآن استطعتُ تعلُّمَ القراءة و الكتابة بِ شَكلٍ جيّد، و سوف نتعَمَّقُ في دراستها. فَ منهاجنا يتضمَّنُ دراسة الفلسفة اليونانية، بانثيون آلهة اليونان، علم الفلك و الأجرام السماوية و علم الخطابة. سَ تستغرق هذه الدراسة مدّة سنة و ثلاثة أَشْهُر، و سَ ندرس نفس العلوم لكن هذه المرَّة من الحضارة و التاريخ السومري، الأكادي، الآشوري و السرياني. و سيكون كلّ ذلك بِ اللغة السريانية، و الوقت المخصَّص لهذه الدراسات يتراوح بين سنة و ستة شهور و سنتين. طبعا يتخلَّلها دراسة المنهاج اللاهوتي المقرَّر من قِبَل

إدارة الدير. في أوقات الاستراحات و أيام العطل كنتُ أطلقُ خيالي خارج ذاتي، فَ كان يأخذني، روحا، إلى حيث أعشاشنا الجميلة و حاراتنا البهيجة و ألعابنا و شقاوتنا البريئة. فَ في أيام الآحاد كُنّا على موعد مع آنطو البوياجي و خاجو الأعمى، فَ الاثنان كانا يأتيان من حارة البشيرية، حيث يسكنان هناك، إلى حارتنا. في صباح يوم الأحد كان آنطو يقعد على كرسيّ خشبي صغير ذي قوائم قصيرة و يسندُ ظهره إلى الحائط. كان يضع صندوق البويا أمامه، و على سطح صندوقه الخشبي ذاك قد صُنِعَ قاعدة من الخشب على شكل قدم إنسان لِ يَضَعَ الزبون قدمه، و هو لابس القندرة، عليها. و يحتوي الصندوق على عدّة دروج صغيرة، على يمينه و يساره، يضع فيها زجاجات البويا بِ ألوانها المختلفة (الأسود، الأحمر، الزهري، الأبيض...إلخ) و درْج مستطيل الشكل في الوسط يضع فيه عدد من الفراشي ذات الاستخدامات المتنوّعة، و عدد من علَب التنك المستديرة، و التي تحتوي على الجيلا الخاصة بِ التلميع و بضع قطع من الأقمشة الخاصة بِ التنظيف و التلميع. كانت لديه فرشاة خاصة مقوَّسة، من ظَهْرِها، قليلا نحو الداخل على شكل سطح سفينة. الشعر المصنوع منها كان طويلا نسبيا و ناعما طريّا، كان يقول عن شعرها إنها من ذيل الفرس و هي لا تُسْتَعمل إلاّ لِ التلميع. كان آنطو ماهرا في مهنته. كنّا نستمتع في النظر إليه و هو يصبغ القنادر، و خاصة إذا كان الزبون محتذيا قندرته لأنَّه سَ يضع قدمه على المكان المخصَّص له. في هذه الحال، كان المعلّم آنطو يبدع في حركاته البهلوانية، بدءا بِ إخراجه البويا من القنينة و وَضْعِها على الاسفنجة البرتقالية ودَهنه القندرة ومرورا بِ مرحلة الفَراشي، حيث كان يستخدم ثلاثة أنواع من الفراشي لِ أجل ذلك. كُنّا ننتظرُ الحركة السحرية من إبهامه، حيث كان ينقرُ بها أسفلَ بوز(مقدِّمة) القندرة كناية عن تبديل قدمه، وفي الحال كان الزبون يُبَدِّلُ قدمه بِ الأُخرى. نادرا ما كان ينظر في وجه الزبون وذلك لأنَّه حين يبدأ بِ دَهْنِ القندرة ينغمس كليّا في عمله. كان يُفَرشي القندرة بِ الفرشاة الشبيهة بِ ظهر السفينة في المرحلة الأخيرة، حيث يكون قبلها قد دَهَنَها بِ الجيلة البرتقالية اللون لِ المرَّة الثانية و الأخيرة، و نحن كُنّا ننتظر هذه المرحلة، إذْ إنَّه كان يفرشي بِ طريقة غريبة و بِ خفَّة يَد و تركيز عجيبين. كان ينقلُ الفرشاة من يده اليمنى إلى اليسرى بِ طريقة سحرية، كان و كأنَّه يقذفها من هنا إلى هناك، وكان حين يتلَقَّفها بِ يَده الأُخرى يصدر صوت ارتطامها بِ راحة يده وهنا كانت ذروة فَرَحنا. وأيضا كنّا ننتظرُ المرحلة الأخيرة و التي هي مَسْحها(القندرة) بِ الخرقة(القماش)، حيث أنَّه كان يُلَمِّعُ وجه القندرة و كعبها و جوانبها بِ القماش و هو يمسكُ طَرَفَيّ القطعة و يضعها على الوجه و يبدأ بِ مَسْحِها، و في نهاية هذه المرحلة كان يُصْدِرُ صوتَ زقزقزة من احتكاك القماش مع

جلد القندرة لِ ثلاث مَرّات. عند الانتهاء من هذه المرحلة، يكون قد انتهى من صَبْغِ و تلميع القندرة، و حينها يقوم بِ ضَبِّ القماش بِ طريقة فنّية، حيث يصدر طَقّة من القماش و هو ينفضه في الهواء بِ طريقته الخاصّة. كان يُرَتّبُ أدواته في الأماكن المخصَّصة لها، أَوّل بِ أَوّل، عند انتهائه من استعمالها. بين قندرة وأُخرى، كُنّا نطلب منه أَنْ يعملَ بعضا من حركاته التي تتسم بِ خفّة يَد، كُنّا نُسمّيها (السحر)، إذْ أَنَّه كان يمسك قطعة نقود معدنية من فئة أل (فرنك) بِ أصابع يده اليمنى الثلاث–الإبهام و السبَّابة و الوسطى– و يُريها لنا ثمَّ يضعها في باطن كَفِّه المفتوح أمامنا و يسحب يده اليمنى بِسرعة ويغلق كَفَّ يده اليسرى التي فيها قطعة النقود. ثمَّ يطلبُ من أَحدنا أن ينفخ على قبضة يده المغلقة على النقود، و بعد أنْ ينفخَ الطفل على قبضته، يقوم بِ فَتْحِها أمامنا وإذْ هي فارغة لا توجد قطعة النقود فيها. و في الأثناء يَمدُّ يده اليمنى إلى قميص أو بنطال أحد الأولاد ويسحب النقود بِ بطء من خلف ثياب الطفل مُحْدثا أثرا سحريا فينا.. طلبنا منه المزيد من هذه الألعاب السحرية مع إصرارنا على التركيز في الحيلة التي يتبعها وكَشْف السرّ. كُنّا نعتقد بِ أَنَّه يخبيء قطعة النقود في يده التي بِ واسطتها يضع النقود في كَفِّه الآخر، و لو كان لِ قميصه أكمام طويلة لَ وضعنا احتمال قيامه بِ زَلْقها في كُمّ قميصه، لكنَّه كان يرتدي قميصا ذي أَردان قصيرة. قام بِ عمل اللعبة مَرَّتَيْن، أمّا في المرَّة الثانية و الأخيرة، أوقفناه قبل أن يطلب من أحدنا بِ أن ينفخ على يده المضبوبة على شكل قبضة و طلبنا منه أن يفتح يده اليمنى، فَ فعلَ و لم يكن فيها النقود. في الأثناء تابع اللعبة، وطبعا لم يكن النقود في يده المغلقة كَ العادة، و قام بِ إخراج القطعة من خَلْفِ أذن أحد الأطفال، من خَلْفِ شَحْمَة أُذنه. في هذه اللحظة الخيالية بدأنا بالصفير دلالة التعَجُّب، ورحنا نتقافز من حوله فرحين مندهشين و ثُمَّ نتركه ليتابع عمله. كان هو الآخر يشاركنا فرحتنا بِ ألعابه السحرية الجميلة.

في ناصية الشارع المقابل، قطريا، لِ مكان جلوس آنطو، كان خاجو الأعمى يضع صندوقه العجيب على الأرض ويسنده إلى الحائط. كان الصندوق على شكل مستطيل لا تتجاوز أبعاده(30x60) كان يحمله، أو بِ الأحرى، يُعَلّقه على ظهره بواسطة قشاطين يُدخلُ كتفيه فيهما، و هكذا يستقرُّ الصندوق على ظهره. في وسط الصندوق طاقة صغيرة مربَّعة الشكل (15x15cm) لها باب يفتحه و يغلقه بِ جنكل(خطّاف) معدني. توجد داخل الصندوق بكرة، أو، دولاب معدني مدقوق على محيطه أرقام نافرة من واحد إلى عشرة (بِ الأرمني 1–10). كان أحد المعلّمين الأرمن قد صنع له هذا الدولاب و جعلَ فيه آلية لِ إيقافه عن الدوران، من خلال ثقب في الطاقة، بواسطة

قضيب معدني رفيع مُثبَت في قبضة خشبية على شكل مسدَّس، فَ عند دوران الدولاب يقوم الطفل الذي سَ يلعب، بِ إدخال المسدَّس في الثقب و في الحال يتوقَّف الدولاب عن الدوران. و في الأثناء يَمدُّ، خاجو الأعمى، يَده و يلمس الرقم الذي توقَّف الدولاب عنده، حيث إنَّه يُمَيِّزُ الأرقام بِ اللمس، حتّى النقود المعدنية والورقية أيضا كان يُمَيِّزُها و يعرفُ فئاتها(قيمتها النقدية). كانت اللعبة مع الصندوق السحريّ هي أنْ يدفع الطفل الذي سَ يلعب فرنكا واحدا ويأخذ المسدَّس بِ يَده وينتظر إلى أنْ يقوم خاجو بِ تدوير الدولاب، وثمَّ في لحظة معيَّنة يأمر الطفل بِأَن يضرب بِ المسدَّس، كناية عن إدخال القضيب في الثقب، و كان الطفل يضرب و يقوم خاجو بِ قراءة الرقم ثمَّ يعطيه عددا من السكاكر يساوي الرقم الذي توقَّفَ عنده الدولاب. كانت فرحتنا كبيرة بِ المسدَّس و بِ عدد السكاكر الذي كنّا نربح و خاصة إذا كان العدد عشرة، أو تسعة سكاكر. كان خاجو الأعمي عكس آنطو البوياجي في كثير من الصفات. فَهو قصير القامة يمشي بِ بطء و السبب واضح، فَ أوّلا هو أعمى، و ثانيا لأنَّه يحمل الصندوق على ظهره. يضع نظارات سوداء على عينيه، ربَّما لِ إخفاء عيونه أو لِ الإيحاء بِ أَنه بصير. أسمر اللون نَزق، غير ودود، على العكس من آنطو. فَ آنطو كان طويل القامة ضخم الجثّة ذو وجه متطاول و عيون زرقاء و شعر أشقر و خدود حمر. يَحْجلُ في مشيته، أو بِ الأحرى، يردف خطوة قصيرة و سريعة بِ الخطوة الرئيسة، فَ كانت مشيته مميَّزة. ودود، مسالم، لطيف و متسامح.

أَمّا أوجه الشبه بينهما فَ هي: أَنَّ الاثنين هما أرمن وهما من الذين نجوا من المجزرة، الإبادة الجماعية، التي ارتكبها الأتراك والأكراد ضدَّهم، والتي طالت، فيما بعد، السريان أيضا في موطنهم الأصلي. إنَّهما الاثنان مقطوعان من الشجرة، كما يُقال، فَ كلّ أفراد العائلة وأقرباءهم قتلهم هؤلاء الهمج. والاثنان يعملان بِ كَدِّهما لِ يعيشا بِ كرامتهما، و الاثنان غير متزوجان. أَمّا آنطو فَ يُعيل أُمّه العجوز أيضا، فَ هما يعيشان معا و هما الناجيان الوحيدان من العائلة.

صارت رسائله تتأخَّر في الوصول إلى البلدة، ربّما بِ سببِ غياب المسافرين من هناك إلى هنا، أو بِ سَبَبِ قلّة القادمين من هناك. كانت رسائله تأخذ طابع سَرد قصصي، أو سَرْد الذكريات. كانت هذه في السنوات الأولى، أمّا تاليا، فَ صارت تأخذ طابعا بحثيا يتناول فيها مواضيع فلسفية، تاريخية، لاهوتية و دينية. أَمضى إحدى عشر سنة في الدير. تَعَمَّقَ خلالها في مطالعة، أو قُلْ، إعادة قراءة العهد القديم و الأناجيل و رسائل و رؤى الرسل، وتفاسير علماء اللغات و اللاهوت. وإعادة قراءة الباجافادجيتا و الآفيستا ونهج البلاغة والقرآن و البانثيون الإغريقي و البابلي و الفرعوني. كان قد دَوَّن جملة من الملاحظات والأفكار التي تناقض و تُشكِّكُ في كثير ممّا جاء في تلك الكتب المقدَّسة لِ تلك الثقافات. كان يهتم بِ زراعة النباتات و الخضروات، و أيضا بِ تربية الدواجن. كان يتأمَّل نمو الأعشاب و النباتات. قام بِ تطعيم أنواع مختلفة بعضها بِ بعضها الآخر، ينجح في بعض تجاربه و يفشل في أُخرى. كان يراقب توالد الحيوانات و الشبه الوراثي بينها و العوامل التي تؤثِّرُ في نَقْلِ العناصر الوراثية من كائن لِ آخر. كان يبحث في مسألة الوجود و الخالق، إلى جانب أبحاثه في تحسين أَجيال النباتات و الحيوانات عن طريق التهجين و تغيير المكوِّنات البيولوجية في الوحدات الأساسية لِ الكائنات الحيَّة. كان يقضي ساعات طوال في قراءة كُتُب البيولوجية و الأناتوميا التي كانت مدخلا هامّا في علم التشريح. كان يكتب حصيلة نتائج تطبيقاته وتجاربه الوراثية على الحيوانات. أجرى تجارب جينية على النباتات أيضا. كان يقول: إنَّها كائنات حيّة مثل الحيوان و الإنسان. ومن هنا راح اهتمامه يتوسَّع وصار يفكِّرُ في مسألة أَشْمَل من مجرَّد انتقال صفات وراثية من كائن حَيّ إلى كائن حَيّ آخر. انصرفَ في تفكيره و تجاربه وأبحاثه إلى التَعَمُّق في بنية أل DNA و RNA بَحَثَ في أزواج الكروموسومات لدى الأنثى و الذكر، و توقَّفَ عند زوج الجينات الجنسية المختلفة لدى الذكر عن تلك التي لدى الأنثى. فَهذا الزوج لدى الذكر هوXY أمّا لدى الأنثى فَ هو XX و عرفَ بِ أَنَّ جنس المولود إنَّما يُحَدِّده الذكر. فَ الجنين يكون أُنثى إلّا في حالة تشارك الكروموسوم Y من زوج الجينات الجنسية لدى الذكر مع الكروموسوم X من زوج الجينات الجنسية لدى الأنثى. كان قد تَعرَّفَ إلى راهب في عقده السابع اسمه نارام. قَدَّرَ عمره بين اثنين و ستين إلى خمسة و ستين عاما. كان نارام مسؤلا عن مكتبة الدير. عمله لم يكن يقتصر، فقط ، على إدارة شؤنها و تنظيم محتوياتها و المحافظة

عليها، و إنَّما كان كَ الطبيب المختص في الإنعاش و الجراحة. كان يُرَمِّمُ الكتب و المخطوطات التي طالها التلف الجزئي، أو شبه الكلّي. كان يقوم بِ أَرشفة المحتويات و تحديد أعمار المخطوطات و المدوّنات القديمة، خاصة تلك التي تَعَرَّضتْ لِ أمراض الطبيعة و الإهمال البشري، و تلك التي كانت قد فقدت مكوّنات الحبر من كلماتها و فواصلها. كانا يتبادلان المعلومات، و يتناقشان في مواضيع مختلفة. كان ناريك قد بلغَ الثامنة و العشرين –تقريبا– من عمره حينذاك. لقد اكتسب معارف قَيّمة منه، كما تعلَّمَ مهارات هامّة في تجاربه الوراثية، و خاصة في مجال الطفرات التي يمكن إحداثها على جينات الكائن الحيّ. دَلَّه نارام على فرع من علم الوراثة يهتمُّ بِالتغيُّرات التي تطرأ على الجينات، و تاليا التغيُّرات التي تطرأ، و التي طرأت على جينات الإنسان و إمكانية الوصول إلى الجَدّ الأوّل عن طريق تَتَبُّع مسار الجينات و الطفرات التي حصلَت فيها. كان ناريك قد دَوَّنَ الجوانب المهمّة من لقاءاتهما، و المواضيع ذات العمق المعرفي المتعلّقة بِ الجينولوجيا و الثيولوجيا. و هذا جانب ممّا كان يجري بينهما:

– هل هناك مَنْ يهتم بِ هذا الفرع من علوم الوراثة؟ وهل هؤلاء لديهم آليات و أدوات تُمَكِّنهم من إجراء التجارب الدقيقة في الخلية، و بِ التالي معرفة التغيّرات التي أَصابَت الخليّة و على وجه الخصوص الكروموسومات؟ كما ترى يا نارام، أنا أُحاول الإحاطة بِ هذه العلوم. معرفة بنية الأحماض النووية، بنية أل DNA و RNA و خاصة مكونات الكروموسومات .

– هذا الموضوع قديم جدّا يا ناريك! هناك أكثر من جهة، أو مجموعة تبحث في هذه المسألة، لكن توجهاتها مختلفة عن بعضها. فَ تلك المجموعات، أو الفُرَق، التي تعملُ على هذا الموضوع، لديها غايات وأهداف مختلفة عن بعضها. أرى بِ أَنَّكَ أنتَ أيضا تَودُّ الخوض في هذه المعمعة، في هذه اللعبة المحفوفة بِ المخاطر. هل تُفَكِّر في مشروع يتعلَّق بِ هذه الوحدات الوراثية الأساسية يا ناريك؟ سألَني الراهب العلاّمة و راح يشرح آفاق هذا العلم و تشعبّاته و إمكانية التقرُّب، أو بِ الأحرى، إمكانية اقتحام اللاهوت و المنظومات الدينية من خلاله .

– في الوقت الحاضر، أَسعى إلى معرفة هندسة الخلية بِ مكوِّناتها الدقيقة المجهرية. لا أُخفيكَ سرّا يا نارام، فَ سرّ الخليقة و الخالق باتَ شغلي الشاغل،. صرتُ أُفَكِّرُ في تكويني، في الفروقات بيني و بين الأنثى، بيننا وبين باقي الكائنات الحيّة. أُريد الغوص داخل الخليّة و مراقبة العمليات التي تجري فيها، أريد رؤية تفاصيل التحوّلات التي تجري في ذلك المختبر، أو بِ الأَصَحّ، ذلك المصنع الكيميائي الدقيق و العجيب يا

صديقي. كان الراهب يُمَسِّد لحيته و يستمع إليَّ بِ انتباه، حين كنتُ أَتَكلَّمُ عن الذي أُفَكِّرُ فيه. شعرتُ بِ أَنَّه ليسَ مرتاحا لِ ما يسمعُ منّي حول ما أنا مزمع القيام به. تَمَلْمَلَ قليلا ثمَّ توجَّه إليَّ قائلا:" يا ناريك أنا أُفضِّلُ أنْ تهتمَّ بِ اللاهوت و تفاسير العِظات و الأَمثال التي نطقها الفادي المُخَلِّص خلال مسيرته التبشيرية بِ الخلاص و بِ ملكوت السماوات. سوف تساعدك هذه المكتبة، بِما فيها من الكتب و المخطوطات و الرسائل النادرة، في الحصول على قنديل تُنير به طريقك. هذه المكتبة هي مقبرة الأحياء النائمين الملتحفين بِ أغلفة كتبهم، الأحياء الذين أخذهم سُبات عميق في ثنايا كلماتهم التي تنتظر مَن ينفخ فيها الحياة. هذه المكتبة هي مستودع القناديل التي تنتظر مَن يُشعلها، هي ذاكرة الكون يا ناريك، هي الشاهد على ولادة ظلال الله على هذا الكوكب. يمكنكَ مقاضاة الكذَبَة، المزوّرين، المدلّسين و المحرّفين من خلال استنطاق أرواح الملائكة النائمة في متون هذه الكتُب الحزينة الهاجعة على رفوف و فسُحات هذه المكتبة. يكفي أنْ تكتب لي، أو تذكرَ، المجال الذي تريد الخوض في غماره، حتّى أَدلّكَ إلى الحارة التي سَ تجد فيها الملائكة التي تنتظرك بِ فارغ الصبر و هي تحمل الشروحات المستفيضة حول المادة التي تريد استكشاف جوهرها. إنَّها منصوبة بِ انتظام كَ التماثيل التي تحرس الروح النائمة داخل مقبرتها واضعة رؤسها بين أَجنحتها والحزن يملأ قلوبها. إنَّها تنتظرالحكيم الذي سَ ينعش رئاتها و يبعث فيها الروح، أو يدلك قلوبها لِ يبعثَ فيها الحياة. و ما عليك إلاّ أنْ تفردَ جناحي الملاك و تدخل بين أضلاعه. تذهب في الصفحات بين الأسطر و الكلمات. تُحاكي روح الكاتب و تُعانقا طيف قوس قزح فوق رأسيكما و تشرعان في رحلة نحو ذاكرة الريح و المطر."

– لن أَهملَ ما جئتَ على ذكره يا نارام! الموضوع الذي أَوَدُّ الخوض فيه ربّما يقودني إلى عمق اللاهوت، بل، و ربّما إلى أعمق و أَخطر منه. أَمّا الآن يا صديقي، فَ أنا بِ حاجة إلى أَيِّ كتاب أو مخطوط، أو أَيَّة صفحة و جملة فيها الحرف ."G" هناك الكثير من العلوم تبدأ بِ هذا الحرف كَ الجيولوجيا، الجيوديزيا(الجيوديسيا)، الهندسة (Geometry)، الهندسة الوراثية...(Genetic engineering) إلخ. أنا واثق من أَنَّ هذه المقبرة الأثرية تضمُّ بين رفوفها جثامين الكتب التي تبدأ عناوينها بالحرف ." G" أرجو أَنْ تغوص في الفهارس ياصديقي كي تَدلَّني إلى الكهوف التي يجب أَنْ أَبحث فيها. إذن إلى الغد يا ناريك!

نسيتُ أَنْ أُحَدِّثَكم عن بوبي في رسائلي السابقة. فَ بِ سببه بقيتُ سبعة أيام أقضي النهارات والليالي في صومعة محفورة في جدار أحدِ السفوح الصخرية في محيط الدير، طبعا هو أيضا كان يرافقني في إقامتي هناك. االراهب المسؤل على إدارة الدير أثناء

غياب رئيس الدير، اعترض على مرافقة بوبي لي طوال مدَّة إقامتي و خدمتي في الدير. حاولتُ إقناعه بِ أَنَّه يختلف عن الكلاب اختلافا جوهريا، و إنَّه يفهم ما أَقول له، أو قُلْ، يستوعب حركاتي و إشارتي و يلتزم بِ ما أَطلب منه. استغربَ الراهب حين قلتُ له بِ أَنَّه يفهم كلامي. في اليوم السابع من إقامتي في الصومعة المنفردة، قابلتُ الراهب المسؤل نفسه و رحتُ أشرح له سلوك بوبي كَ حيوان أليف، وإنَّه يتجنَّب معاكسة الكلاب و يبتعد عن المعارك التي تحصل بينها. إنَّه ليس من النوع العدواني و يكاد يكون مجرّدًا من الغريزة العدوانية، ولا يسمح لِ الحيوانات بِالاعتداء عليه و على مَنْ إئتمنه. إنَّه شجاع، وَفيٌّ و جَسور. سَ يكون بِ عهدتي يا أَبَتِ و سَ أبني له بيتا صغيرا يأوي إليه، و سَ يكون مفيدا أنْ يتعايش مع الحيوانات الأليفة هنا في المساحة المخصَّصة لها. رَحَّبَ بنا، أنا و بوبي، وقال بِ أَنَّه قد تشاور مع رئيس الدير في هذا الأمر و إنَّهما رَحَبّا بِ بقاء بوبي في الدير و العيش مع بقيّة الحيوانات، و إنَّ رئيس الدير وجدَ في مسألة فهم بوبي لِ كلامي موضوعا مثيرا لِ الاهتمام. كُنّا نلتقي يوميا و كنتُ استفقد صحته ومزاجه. كانت الأُمور تسير على خير ما يُرام، و هكذا، هو، تآلفَ مع بيئته الجديدة وأَنا تآلفتُ مع الوسط الكهنوتي، ومن ثمَّ مضيتُ في نشاطاتي الدينية و الثقافية كَ المطالعة و الدراسة المكثَّفة و تدوين الملاحظات حول مواضيع جديدة و مهمة إلى جانب اهتمامي في إجراء تجارب وراثية على النباتات و الحيوانات على حَدٍّ سواء. و بِ مرور الزمن تَقَبَّلَ رئيس الدير و معاونه و الرهبان جميعهم وجود بوبي في الدير مع الحيوانات الأليفة. و أبدى إعجابه، بل، استغرابه من مَلَكات صديقي و أمانته و وفائه. أَمّا عن باقي خصائصه، فوق الأرضية، كَ التنبّؤ و التواصل مع قوى غيبية و إلمامه بِ العقائد و الأديان الشرقية، كان رئيس الدير مندهشا من هذه الخصائص التي ذكرتها له. إنّه شاهدني أكثر من مَرَّة و أنا أتحدَّث إلى صديقي، لذلك لم يَسْخَر، أو يُكَذِّب ما قلتُ له عن بوبي. كُنّا قد وضعنا برنامجا لِ خروجه من الدير من الصباح حتّى غروب الشمس، طبعا كان يتمُّ ذلك بِموافقته و رضاه . صارحتُ بوبي عن الموضوع الذي كنتُ قد نَويْتُ البحثَ في اَعماقه. قلتُ له بِ أَنَّني سَ أُتابع مسار أل (G) و مسار أل (Y) و سَ تكون مساعدي في هذه المهمّة، و أنا واثق من أَنَّكَ لن ترفض مرافقتي في خَوض هذه المغامرة المحفوفة بِ المخاطر. إنّي شبْه متأكِّد على أَنَّنا سَ نتعرَّضُ لِ مشاكل، بل، لِ مخاطر حقيقية خلال بحثنا عن الإشارات التي سَ تَدلّنا إلى حقيقة هذه الرموز. فَ الحرف G هو مدخل لِ علوم مختلفة في غاية الأهمية. فَ هناك مَنْ يعتبره الحرف الأول لكلمة الخالق الأعظم "God" أو "الإله"، ويعتقد البعض الآخر أنه أول حرف من كلمة هندسةGeometry ، و يذهب

البعض الآخر إلى تحليلات أعمق ويرى أن حرف G مصدرها كلمة"gematria" إلخ. كانت لدى بوبي مخاوف جادة بِ خصوص مهمتنا المستقبلية. أَمّا خَط السير الذي سَ نسلكه في بحثنا هذا، فَ هو متوقِّفٌ على ما سَ أَعثرُ عليه هنا في مكتبة هذا الدير. كان بوبي قد بنى صداقات مع حيوانات الدير، أَمّا في الخارج فَ كان قد خَلَّف جِراءاً لِ الحفاظ على نسله. في اليوم التالي و بعد ترتيب صومعتي، ذهبتُ إلى صديقي الراهب، خازن الأرواح النائمة في مقبرته التي تَضجُّ بِ الحكايات و قصص الحُبِّ الرومانسي لِ عُشّاق عذريين، و أُمسيات الشعراء و رنين قصائدهم، و خطابات الأباطرة و محاضرات الفلاسفة و حِكَم الرهبان النسّاك و الصوفيين، و حَمْحَمة الجياد وصليل السيوف و قرقعة الصنوج الآتية من أعماق التاريخ المدفون بين أجنحة الكتب، و أصوات الملائكة الموَزَّعين حول عرشِ الإله الخالق و هُم يتبادلون كلمات السرِّ و يُذَكِّرون بعضهم بها، و دَويُّ الرجوم التي يُطلقها حُرّاس العرش على الشياطين الذين يتجَسَّسون على اجتماعات الله مع أعوانه و يسترقون السمع إلى خططه و ينقلونها إلى أعدائه و بِ التالي يُفسِدون خططه و يُفشلونه في عمله .

– صباح الخير يا أَبَتِ! كيف هي صحتكَ، و كيف هم هؤلاء النائمون فوق الرفوف تحت السقوف بين الدفوف؟

– صباح الخير يا ناريك! أراك نشيطا في هذا الصباح الجميل. لِ يديم الله عليك الصحة و العافية. لقد تأمَّلتُ في الموضوع الذي سَ تبحثُ فيه على أمل أن تجدَ الأدوات و الوسائل التي سَ تُمَكِّنكَ من العثور على الشروحات و البراهين على الفكرة البيولوجية اللاهوتية لِ الخَلْق. إنّي أرى بِ أَنَّكَ تُفَكِّرُ في مسألة خطيرة لِ الغاية. فَ خلال حياتي وخدمتي الكهنوتية يا ناريك، قرأتُ مواضيع قريبة من تلك التي تُفَكِّرُ فيها، و سمعتُ عن باحثين في مسائل مطابقة لِ موضوعكَ بِ أَنَّ بعضا منهم قضى (قُتِلَ) في ظروف غامضة. لا أعرف ماذا أقول لك بِ هذا الخصوص، في كلِّ الأحوال، لقد بحثتُ في الفهارس و فرزتُ الحارات والممرّات التي تؤدي إلى المطلوب. لكن يا ناريك أنا أخشى عليك من هؤلاء الأشباح، جنود الآلهة والشياطين، لذلك أطلبُ منكَ أنْ تكون حذرا، فَطِنا و يَقِظا في تحركاتك. و الآن، تعال لِ نسلكَ أَزقَّة هذه المتاهة. دخلنا بين الكتب و الأحجار و الرُقُم الطينية المشوية. مَرَرْنا بِ المخطوطات الملفوفة المربوطة بِ ريبانات صفراء، حمراء، زرقاء و سوداء. دَقَّقْنا في أوراق البردي المثبتة في إطارات خشبية، و مدوَّنات مكتوبة على جلود مدبوغة و قطع مكسورة من فخاريات مشوية. أَمضَيْنا قرابة الست ساعات في ممرّات المكتبة لِ التعرُّف على العناوين التي تناسب

موضوعي. أَمّا في الأيام التالية، فَ رحتُ أستعير الكتب وفْقَ برنامج يتوافق مع نظام المكتبة. كنتُ أقرأ، لا بل، أبحثُ في الكتاب الذي أستعيره و ثمَّ أعيده بعد انتهائي من مطالعته، طبعا ضمن فترة زمنية محدَّدة. بدأتُ بِ الجغرافية، هذا العلم الذي ظهرَ منذ القدم مع الحضارات العريقة كَ الحضارة الإغريقية، المصرية، البابلية و الآشورية. إنه العلم الذي يهتم بِ دراسة مدى تأثير الإنسان في البيئة المحيطة و بِ العكس، وذلك لأن كلاً منهما يؤثر في الآخر تأثيراً كبيراً. أما دراسة البيئة، فتشتمل على دراسة سطح الأرض، و الغلاف الجوي، و الغلاف الصخري، و الغلاف الحيوي بما فيه البحار و المحيطات، بالإضافة إلى دراسة النظم الإيكولوجية. أمّا الإغريق فَ يعتبرونها العلم الذي يصف الأرض وباطنها و...إلخ. كانت هناك فروعا مثيرة لِلاهتمام كَ مورفولوجيا الأرض، فَ هذا الفرع يقوم على دراسة خصائص و سمات الأرض الطبوغرافية، حيث يدرس الجوانب التي تتعلق بِ التشكيلات الأرضية كَ تاريخها وديناميكيّتها، كما تحاول معرفة التغيّرات المستقبلية التي ستحصل لِسمات الأرض وتشكيلها. كلّ هذه المجالات هي في غاية الأهمية بِ النسبة لي. يُضاف إليها جوهر الجغرافيا الحيوية التي تهتم بِ دراسة كيفية التفريق بين الأجناس أو الأصناف البشرية و كيفية توزيعها على سطح الأرض خلال الفترات الزمنية الجيولوجية المتعاقبة، حيث إن لِ كلِّ منطقة جغرافية نظامها الخاص بها. وجدتُ كتُب عديدة حول الجغرافيا و مجالاتها وفروعها و اكتفيتُ بِ ما قرأته خلال أكثر من ثلاثة أشهُر، وتَصَفَّحتُ فروع مثيرة لِ الاهتمام كَ تلك التي تبحثُ في أحوال القارات و الصفائح الأرضية والسجلات الأحفورية؛ والجغرافيا البشرية و الجغرافيا الثقافية و التي هي عبارة عن علم يدرس تغيُّر المعاير الثقافية مع تَغَيُّر المكان، و تشمل على عدة أمور منها الدين، واللغة، و السياسة و غيرها من الأمور المتعلقة بسبل المعيشة. تأمَّلتُ في المعلومات التي قرأتها من مصادر الجغرافيا، وحين سَرَحتُ في الآراضي الشاسعة و توزّع الناس في مناطق مختلفة، صرتُ أُفَكِّرُ في كيفية هندسة هذه الأرض. و لذلك توَجَّهتُ إلى علم هندسة الأرض، أو كما يُسمّى عند أهل الاختصاص الجيوديسيا (Geodesy) و هو صنفٌ من أصناف علوم الرياضيات والقياس. يهتم بشكل أساسي بِقياس هندسية الأرض وأبعادها وحساب أبعاد تضاريسها بِ دقَّة، فَ هو يستند بشكلٍ أساسيٍّ على الرياضيات التطبيقية بِ الإضافة لِ علوم و أجهزة القياس. قد يبدو الاسم غريبًا بعض الشيء إلا أن علم الجيوديسيا قديم جدًا و يعود في تاريخه إلى آلاف السنين، حيث ينسبه معظم الباحثين إلى المصريين القدماء الذين استخدموا الرياضيات والنسب المثلثية لِ حِساب مساحات الأراضي الزراعية على ضفاف النيل، ليس هذا فقط بل استطاع المصريون قياس محيط الأرض بالاستفادة من

الشمس و النجوم و بعض العلاقات الرياضية. كنتُ من عُشّاق العلوم الهندسية و هي، كما أعتقد، وليدة الرياضيات و الفيزياء، و أنا مولع بِ هذين العلْمَين، إلى جانب علْم الأحياء بِ كلِّ فروعها، فَ قراءة و مطالعة هذه العلوم هي متعة حقيقية لي. كنتُ أعتبرها أساس علم الفلسفة و الشعر الرومانسي، فَ هي تُحاكي العقل و الروح، كما الفلسفة. فَ من الرياضيات انبثق الحُبّ العذري، إذْ يمكن لِ العاشق أن يكتب أجملَ رسالة عشق و غزل لِ حبيبته مختفية في رموز و معادلات رياضية، بِ حيث تبعد الشكوك عن الحبيبة من طرف أهلها. فَ الرسالة تكون مُحَمَّلة بِ قصيدة حُبّ رقيقة ومزيَّنة بِ الورود والأزهار والقلوب و القُبَل و الدموع... و كلُّ ذلك من خلال معادلات وتوابع رياضية. فَ حين يرغب في إهداء وردة لِ حبيبته، يُقدِّمُها لها من خلال معادلة رياضية متمثِّلة في تابع منحني الوردة، كما هو مبَيَّن أدناه :

$$r=a\sin(n\theta) \qquad \text{أو} \qquad r=a\cos(n\theta)$$

و عند تفكيك و حَلِّ هذه المعادلة سَ تحصل الحبيبة على نتائج الحَلّ، و بِ نَقْلِها إلى المحاور الديكارتية سَ تحصل على رسم لِ وردة خُماسية البتلات، أو رباعية، أو سباعية...إلخ.

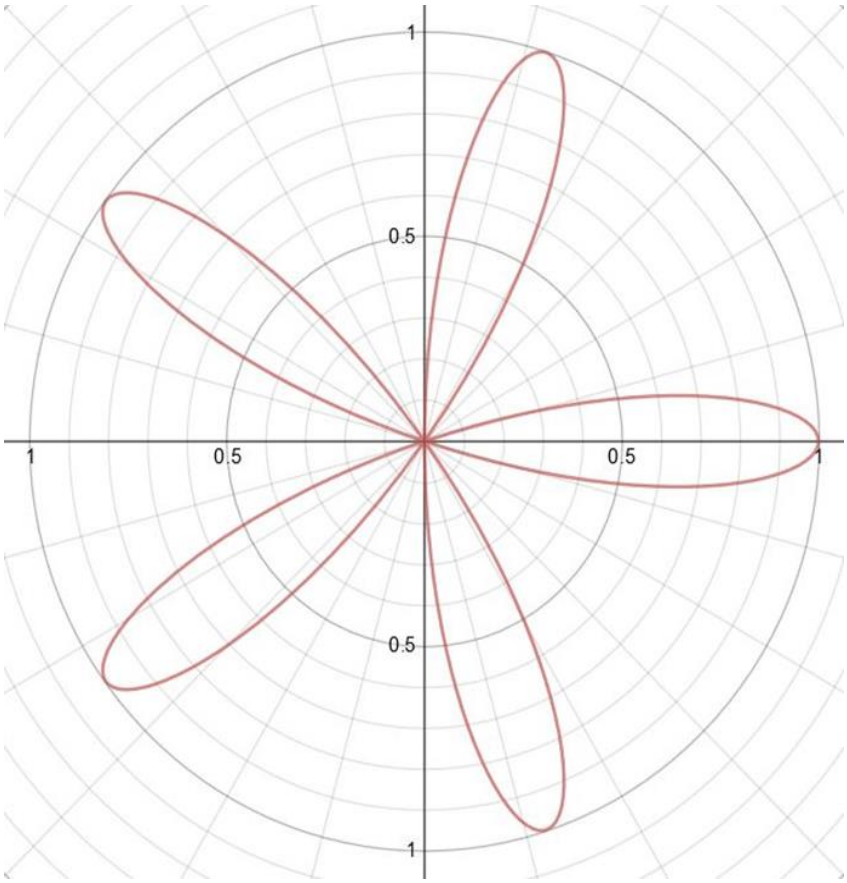

و يمكنه (العاشق) أن يرسل إليها الدموع، القبلات و القلوب أيضا، و جميعها من خلال المعادلات الرياضية .

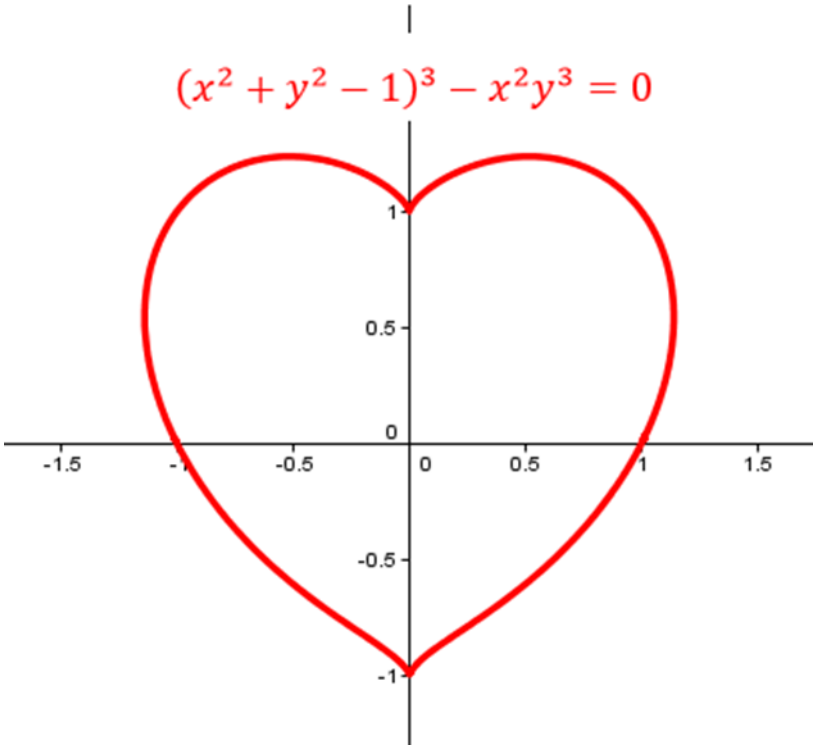
$(x^2 + y^2 - 1)^3 - x^2y^3 = 0$
1
0.5
0
-0.5
-1
-1.5
-0.5
0
0.5
1
1.5

قرأتُ، خلال سبعة عشر شهرا، معظم الكتُب و المخطوطات التي تَهمُّني. سَجَّلْتُ الملاحظات الهامَّة التي قد تساعدني. درستُ الهنسة الإقليدية الممتعة التي تعتمد على أداتين في إنجازاتها كلّها، الفرجار و الزاوية القائمة. فَ إنجازات الحضارات القديمة الخالدة تَمَّت بِ الاعتماد على الفرجار و الزاوية القائمة في تحويل و ترجمة النظريات الرياضية و الفيزيائية، لِ عباقرتهم و علمائهم، إلى صروح و أوابد شاهدة على عظمة حضاراتهم. فَ البنّاؤن المَهَرة شَيَّدوا الأهرامات العجيبة، وحدائق بابل المعلَّقة، والقصر الوردي في البترا، و هيكل سليمان في أورشليم. و من بين الوثائق المهمّة، عثَرْتُ على مخطوط بِ اللغة العبرية لا يتجاوز السبع صفحات. يبدأ من رأس الصفحة الأولى بِ الحرف"G" ، و يذهب في شَرْحِ العلوم التي أسماؤها تبدأ بِه. الصفحات السبعة تلك كانت بِمثابة مجلَّدات مضغوطة مليئة بِمعلومات و رموز في غاية الأهمية و السرية. كانت المفاجأة، لا بل صعقة مفاجئة، في وسط الصفحة الثانية، حيث رأيت الزاوية القائمة تعانق الفرجار على هذا الشكل. إنَّني أراه لِ المرَّة الأولى في حياتي، و عَجبتُ من تفكيري و تحليلي لِ جوهر الهندسة، كيف أنَّني اكتشفتُ، في خيالي، أداتَيْ البناء الأساسيتين اللتين أحدثتا قفزات هائلة في تطور البشرية. السطر الثاني و الثالث، قبل السطر الأخير، كان مكتوبا فيهما بِ الانكليزية، و ترجمتها هي:"إنَّ علوم أل "G" هي أُمُّ العلوم، لا بل، هي روح العلوم و روح الإنسانية. فَ على القارئ أنْ يُحافظ على جوهرها وألّا يلقيها بين العامَّة. فَ علوم أل "G" لِ المختارين من النوابغ و المخلصين لِ العهد، ويمكن لِ الباحث، المختار، عن الحقيقة و عن البنّائين أن يسعى إلى متابعة البحث عن أخوات أل "G" و إيصالها إلى الباحثين عن الحقيقة لِ إنقاذ الرسالة الكونية و الكشف عن الخدعة التي جاء بها شريك الله إلى ملك الرمال."

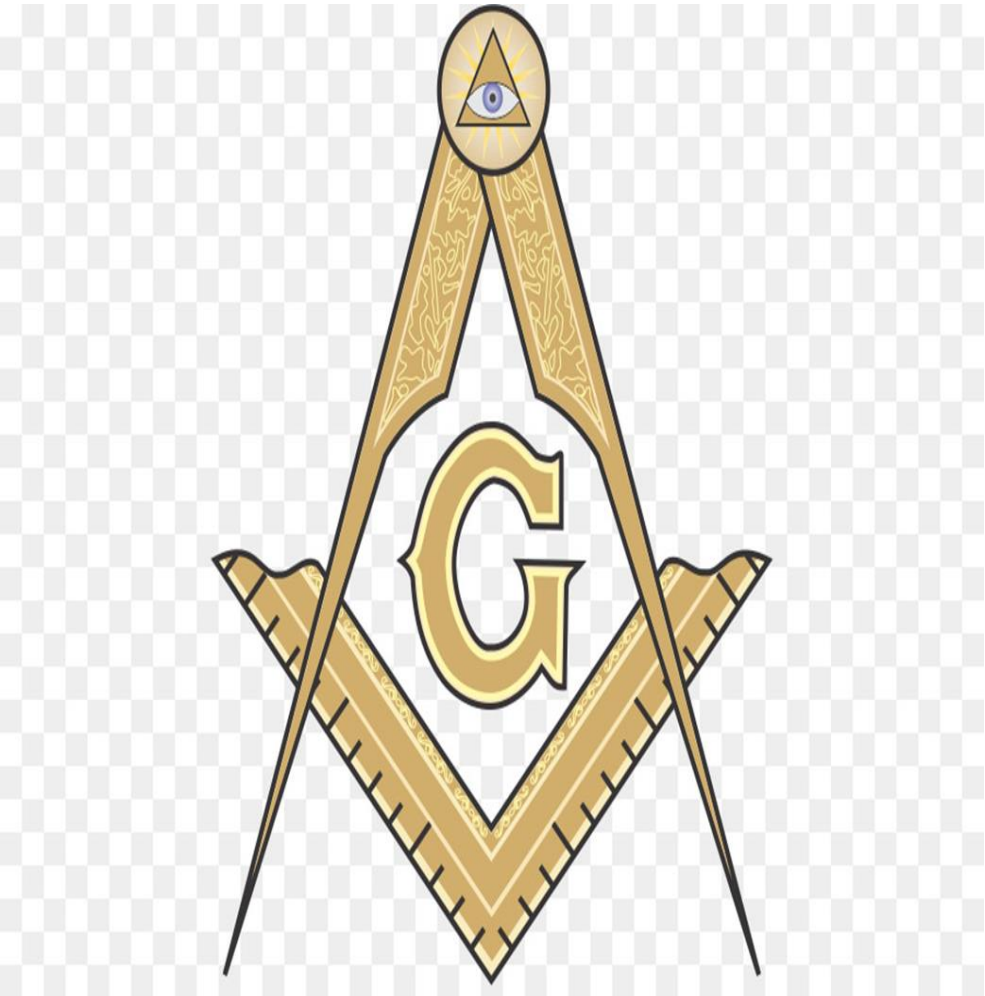

.و في السطر الأخير يوجد الحرف "G" مطبوعا (مرسوما) بِ اللون الأزرق و إلى يساره عدّة جُمَل مكتوبة على هذا الشكل. بَدَتْ وكَ أَنَّها نوع من الطلاسم و الأحجيات.

Uif tnjmf jt tbwfe jo uif qjol dbtumf. Ju jt zpvs hvjef up uif ofyu nbnvtdsjqu. Hp bifde up uif tpvui uispvhi buisfbu cpps.

و في الحال قمتُ بِ تدوينها في الدفتر الذي احمله معي، طبعا مع رسم الشكل الذي يُظْهرُ العِناق الحميمي بين الفرجار و الزاوية القائمة. في اليوم التالي لم أذهب إلى المكتبة. كنتُ مصدوما، و سعيدا في الوقت نفسه، من هذا اللقاء الخيالي بيني و بين هذا الشكل، هذا التخاطر الغريب بين ما كنتُ أُفَكِّرُ فيه و هذا الشكل الفريد الذي يشبه، أو يَشي، بِ ما كنتُ أُفكِّرُ بِ خصوص هذين العنصرين. فتحتُ المخطوط مجدَّدا، و رحتُ أنظر إلى التداخل الهندسي الرائع المدروس بِ دقَّة متناهية. كنتُ

أتساءل عن السبب الذي دعا مُصَمِّم، أو المصمِّمين، أنْ يجعل التداخل هكذا بِ هذا الشكل. فَ، مثلا، لماذا لم يضع فتحة الزاوية القائمة على رأس الفرجار؟ تَصَوَّرت الشكل، فيما لو تَمَّ التشكيل كما ارتأيت له، أَنْ تَحتضن الزاوية القائمة رأس الفرجار سَ يكون الشكل حينئذ هكذا .

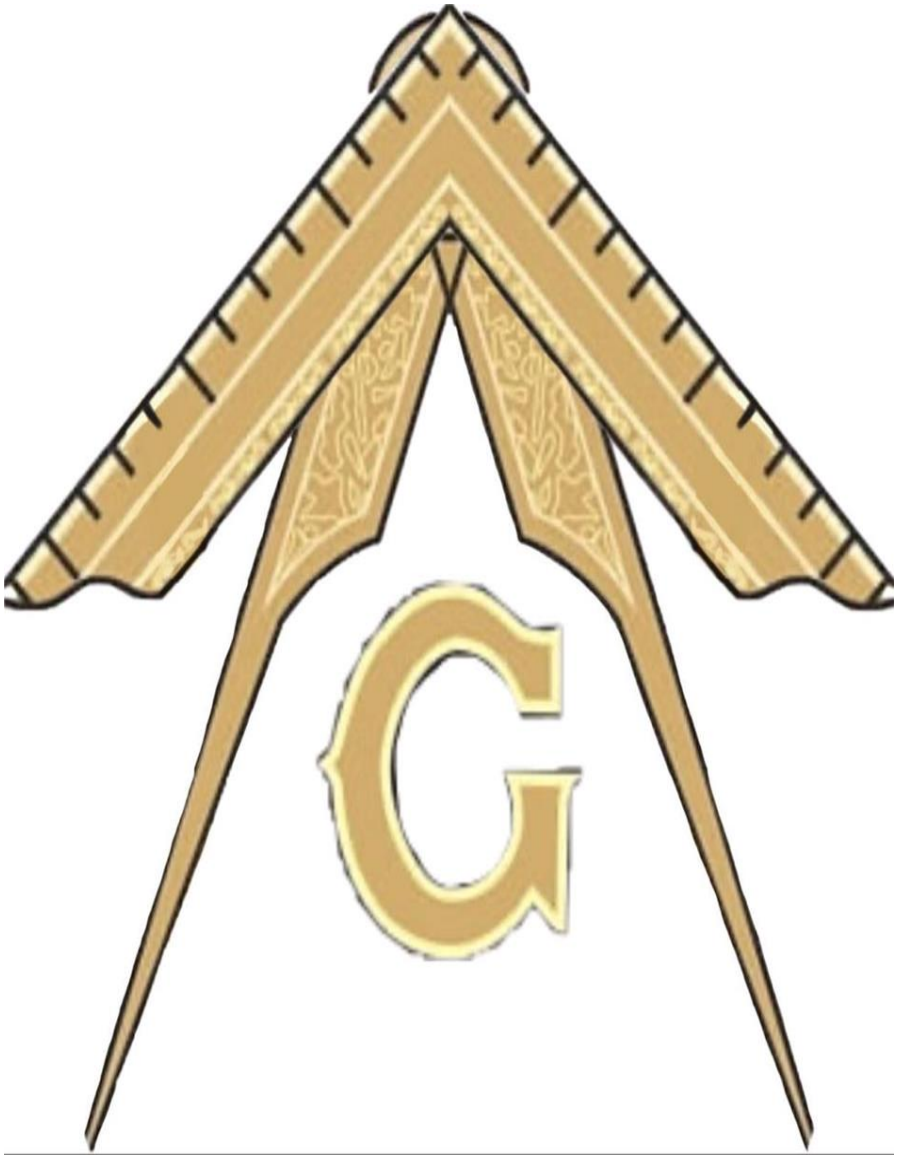

تأمَّلتُ في هذا التشكيل الفني التجريدي و رحتُ أعطي تفسيرات لِ هذه الأضلاع المشتركة في عقدة واحدة حتّى استقريتُ على أنَّها تُمَثِّلُ أشعة نور منبثقة من الشمس، أو أشعة رؤية صادرة من العين التي بها يرى الله إلينا من علیائه، من فوق السماوات السبع، و هو يُرسل أل "G" إلى الأرض، يرسل الجينوم (البروتين) الذي سَ يملأ

الأرض بِ تلك الكائنات الحيَّة، الكائنات التي سَ تكتشف الجينوم الهندسي، أو بِ الأحرى، علوم الرياضيات. هنا اجتاحتني موجة من الحزن على مصير هذا الإنسان و على هذه الطبيعة. أَخذني خيالي إلى المسرح الذي سَ يكونَ شاهدا على دمار الطبيعة و الإنسان. فَ هذا الكائن عبقري، ذكي و مبدع، لكن في الوقت نفسه هو كائن أناني، عَبَثي نرجسي. و كَتحصيل حاصل، هو كائن غَبي. إنَّه غَبيّ لأنَّه يجهل، أو يتجاهل عواقب اكتشافاته و اختراعاته على الحياة و البشرية، إنَّه غبي لأنَّه لم يعرف، أو ما كان يعرف أو ما عَرفَ، ما الذي سَ يحصل لِ الحياة نتيجة اكتشافاته.

عدتُ إلى الصورة الأصل ورحتُ أنظر إليها بِ تَمَعُّن. فَ هذا الاحتضان بين الفرجار و الزاوية القائمة أَغْلَقَ المجال، أو بِ الأحرى حَدَّدَ المجال على الإنسان وكلّ الكائنات الحيّة، و كأنَّ المصمِّمَ يقول: هذا هو حَيّز الجينوم البروتين، و إنّكم سَ تكونون في هذه الحديقة، و ربَّما يقول في سرِّه –هذه الحظيرة–، تحت أنظاري و سَ تعيشون كما أُخَطِّطُ لكم من البداية إلى النهاية. الأرض في قبضتي والسماء أيضا هي في قبضتي. سَ أَفتح لكم خزائن الرياضيات و سَ أَجعلكم تعيشون كلَّ حياتكم تحت القانون. سَ ترنو عيونكم إلى السماء، إلى جبروت الله، قوّته و مَكْره. لن تدخلوا عصر النعمة و المحبّة إلّا بعد أن تنفِّذوا الوصية المكتوبة في هذه الصحيفة.

كان بوبي أثناء الغروب، وحين يعود إلى بيته، يَمرُّ عليَّ عند صومعتي ونقضي بعضا من الوقت معا. كنتُ بِ انتظاره أمام باب صومعتي. رأيته يقفز و هو قادم نحوي. وضعتُ يدي على ظهره ورحت أدلكُه و أمسح على رأسه و رقبته. كانت هذه الحركات تبعث الراحة في نفسه، و يبدأ بِ التمسُّح بِ ساقي و بِ لَعْقِ كَفّي و أصابع يدي. قعدتُ على العتبة التي أمام الصومعة و احتضنتُ رأسه. كان يعانقني و يلعق ذقني و وجهي و يسندُ وجهه على كتفي. سالته عن أحواله وعَمّا إذا كان هناك ما يُنَغِّص عليه حياته، و عن أوقاته التي يقضيها في الخارج و عن صداقاته و علاقاته مع الآخرين من بني جنسه. كانت أيّامه عادية و لم يكن يوجد ما يُزعجه، أو يُشكِّلُ خطرا على حياته. أَخبَرَني عن الأماكن التي يرتادها و الوجار التي اكتشفها، و هنا صارَحَني بِ علاقته العاطفية مع كلبة تَعَرَّفَ إليها منذ شهر و سبعة أيام، و قال بِ كلِّ صراحة، كما عَهدته، بِأنَّه لَقَّح تلك الأنثى التي صادقها وإنَّه زرع جيناته لِ الحِفاظ على نسله. سُرِرْتُ لِ أخباره الجيّدة، و خاصة التزاوج الذي حصل بينه و بين شريكته في جوار الدير، و قلتُ له، ممازحا، لقد بوركَ زواجك كَنَسيّا يا بوبي، و الآن أَصبحتما جسدا واحدا في الله و لا يفرّقكما سوى الموت، بعد عمر طويل يا صديقي العزيز. إنَّ زواج بوبي جعلني أُعيد النظر في التفسير الذي أَعطيته لِ الشكل الذي تخيّلته أَعلاه. و

الآن، ومن وحي زواج بوبي، اعتبرُ أَنَّ هناك عملية جنسية تتمُّ بين السماء و الأرض، بين الذكر و الأنثى. الذكر يدخل بِ سَيْفه، محراثه، في الفرجة التي هَيَّأتها الأنثى، الأرض، لِ انزلاق ال "G" في الرحم المقدَّس. يتمُّ هذا تحت أنظار الله. فَ عينه تنظر لِ عنصرَي الحياة اللذين اندمجا في رابطة مُحْكَمة بينهما (الفرجار و الزاوية القائمة). يقذفُ الذكر بروتين الجينوم في رحم الأنثى، يُرسلُ الحرف الأوَّل من كلمة هندسة Geometryإلى أَحشاء الأنثى. و لِ أَنَّ التزاوج بينهما هو مَحْض خيال، فَ لماذا لا يكون أل "G" الحرف الأول لِ كلمة الله"God" ؟

في اليوم الثالث من قراءتي لِ المخطوط، ذهبتُ إلى نارام في المكتبة، والمخطوط في حقيبتي. نظر إلى وجهي، بعد أن رَحَّبَ بي، و اقترب منّي قليلا و علامات القلق بادية على وجهه.

– ما بكَ يا ناريك؟ إنَّكَ لستَ على ما يُرام! هل هناك ما يُزعجكَ، هل تعرَّضْتَ لِ مكروه، لا سمحَ الله،؟ تعال اجلس هنا على هذه المصطبة قريبا منّي، و قُلْ ما الذي جرى لكَ! هكذا استقبلني نارام، بِ هذا القلق الأبوي. ابتسمتُ و طمأنتُه على صحتي و على وضعي بِ شكل عام. و بعد أنْ أَخذتُ نَفَسا عميقا قلتُ له:

– يا أَبَتِ هناك مسألة متشابكة واجَهَتني، موضوع ثقافي متداخل مع أجناس مختلفة من العلوم الإنسانية و اللاهوتية و الدينية. قبلَ ثلاثة أيام استعرتُ من ضمن الكتب التي أخترتها، مخطوط لا يتجاوز عدد صفحاته سبع صفحات و حين قرأتُه عَثَرْتُ في الصفحة الثالثة على شكلٍ هندسيٍّ أثار فضولي، و رحتُ أُفَسِّر معانيه من عندياتي. أَخْرَجتُ المخطوط من الحقيبة و وَضَعْتُه أَمامه، فَتَحتُه و قَلَّبْتُ إلى الصفحة الثالثة، حيث الرسم الهندسيّ الذي أَشْغَلَ دماغي. رحتُ أشرح له التفسيرات التي أَعطَيْتُها لِ الشكل الهندسي الذي صار أمامنا. كان يستمع إليَّ بِ اهتمام و أنا أُقدِّمُ الرموز التي استنبطتها، أو التي اخترعتها من خيالي. كانت تعابير وجهه تَنمُّ عن اندهاش وتَعَجُّب. عَدَّلَ المخطوط و وضعه بيننا و بدأ بِ التَحَدُّث قائلا:

– هذا الذي أمامنا، إنَّما هو شعار الماسونية يا ناريك! هذا الشعار هو الأبرز من بين شعارات أُخرى لهم، و لهذا الشعار معنيين: معنى ظاهري يُسْتَدلُّ من الفرجار و الزاوية القائمة و اللتين هما أساس حرفة البناء، لا بل، أساس هنسة البناء. و معنى باطني يدلُّ على علاقة الخالق بِ المخلوق، فَ هذا المعنى مُسْتَنْبَطٌ من تقابل هاتين الزاويتين. فَ الأولى تدلُّ على اتجاه من أسفل إلى أعلى و يرمز إلى علاقة الأرض بِ السماء، و الأخرى من أعلى إلى أسفل لِ يدلَّ على علاقة السماء بِ الأرض. و هذا

التفسير ينسجم مع تفسير نجمة داوود التي لها نفس المعنى، و الذي يرمز إلى اتحاد الكهنوت(السماء) مع رجال الدولة(الأرض)، و هو ما حققه داوود عند حكمه حين أسَّسَ سلالة حكم تعتمد على مساندة الكهنة اليهود له .

– و هل المعنى الظاهري الذي اعتبر الشعار هو شعار حرفة البناء اعتمد، فقط، على الزاوية و الفرجار أم أَنَّ الحرف "G" أيضا كان له دور في هذا المعنى؟ عَدَّلَ الراهب من جلسته و تناول هذا الجانب، إذْ قال: كما ترى يا ناريك، فَ هناك حرف "G" ، هندسة، بين زاوية المسطرة القائمة و الفرجار، و الماسونييون أنفسهم مختلفون فيما بينهم في تفسيره. فَ البعض يُفسره بِ أنه الحرف الأول لِ كلمة الله"God" ، و البعض الآخر يُفَسِّرِه على إنَّه حرف من كلمة الهندسة"Geometry" ، و يذهب فريق آخر منهم إلى تحليلات أعمق و يرى أن حرف "G" مصدره كلمة"gematria" ، و التي هي 32 قانوناً وضعه أحبار اليهود لِ تفسير الكتاب المقدس في سنة 200 ق.م و كما هو واضح إنَّ الأمور متداخلة. هناك الكثير من الآراء و الاجتهادات حول تسمية الماسونية، فَ هي تعني هندسة باللغة الإنجليزية و يعتقد البعض إن في هذا رمزاً إلى مهندس الكون الأعظم. يردد الماسونيون كثيراً كلمة "المهندس الأعظم للكون" التي تشير إلى الله، إلا أن بعضهم يردُّها إلى "حيرام أبيف" مهندس هيكل سليمان. كما يذكر البعض أن الحرف G يمثل كوكب الزهرة(كوكب الصباح)، و بالنسبة لهم، كوكب الزهرة يمثل العضو الذكري عند الرجل، وهو أيضاً أحد أسماء الشيطان، وهو يمثل عند الماسونيين الإله "بافوميت" (الإله الذي اتُهم فرسان الهيكل بعبادته في السر من قبل فيليب الرابع ملك فرنسا، و هو يجسد الشيطان "لوسيفر" ملاك النور المطرود من الجنة). و منهم من ينسبهم إلى فرسان الهيكل الذين كانوا يحمون قوافل الحجّاج المسيحيين المتوجِّهين إلى أورشليم هؤلاء المؤمنين الذين كانوا يتعرَّضون لِ السلب و النهب و القتل على يد المسلمين. هؤلاء الفرسان شاركوا في الحروب المقدَّسة لِ تحرير أورشليم من الغزاة المسلمين. و هناك آخرون يرون الماسونية بِ أَنَّها منظمة تعمل لِ إحياء الديانة الفرعونية المصرية القديمة .

– و ماذا عن هذين السطرين، قبل السطر الأخير، اللذين أخبرتكَ عمّا كان مكتوبا فيهما يا صديقي؟ نظر إليهما. تمعَّنَ في الكلام المكتوب، كان يُمَسِّد لحيته و عيونه مُثبتة في النَصِّ الذي أمامه. بعد برهة من الزمن، التفتَ إليَّ و مضى في الحديث بِ بطء و احتراس. كان حريصا على ألّا يقول كلاما ليس واثقا من صحَّته. كان ينتقي كلماته بِ دقّة متناهية و لا يعطي معلومة مشكوك في صحتها .

– أعتقد يا ناريك بِ أَنَّ المسألة عميقة جدّا، فَ قول الكاتب: "إنَّ علوم أل "G" هي أُمُّ العلوم، لا بل، هي روح العلوم و روح الإنسانية". فَ الجزء الأول من هذا الكلام يمكن أنْ نتَفَهَّمه، فَ إذا اعتبرنا أنَّ أل "G" يرمز إلى الهندسة و التي أساسها هي الرياضيات، يكون الكلام صحيحا. أمّا أنْ يُضاف إليه "روح الإنسانية" فَ هذا يعني أنَّ الكاتب يقصد من الحرف "G" الإله نفسه. و ما تَبَقّى من المكتوب هو عبارة عن لُغز سَ يأخذ الراغب في تَتَبُّع الوصية (اللغز) إلى مغامرة مُثْعِبة، و ربَّما تكون محفوفة بِ المخاطر. أقول هذا يا ناريك لأنَّ هناك شيفرة في نهاية الصفحة، و ذلك يعني بِ أنَّ الراغب في المتابعة عليه أنْ يقرأ الشيفرة و يَفُكَّ رموزها و يمضي في البحث حيث سَ تقوده المعلومة المُخبأة في الجُمَلِ المشفَّرة. أعتقد بِ أنَّني كنتُ قد تَصَفَّحتُ كتابا، بل كُتَيّبا، صغير الحجم يحكي عن الأسرار و السحر و الأحجيات و الرموز المشفَّرة. كان يحتوي على عدّة أنواع من الكتابات المشفَّرة بِ حيث تضفي سريَّة تامة على الرسائل و الجُمَل التي يريد صاحبها إخفاءها عن العامّة. و كان الكتيّب يحتوي أيضا على تعليم أنواع الشيفرات و كيفية كتابة رسائل مُشَفَّرة، و كان فيه أيضا مفاتيح بعضا من الشيفرات إلّا إنَّني لم أهتم به كثيرا، فهذه المسألة لم تكن تشغل بالي، أو لم تكن ضمن اهتماماتي العقائدية واللاهوتية. الكتيّب موجود هنا في المكتبة. قرأتُ الكتاب الذي أشار إليه نارام. كان عبارة عن فصول تَحكي، كما قال، عن الأُحجيات، الأبراج، قراءة الكَفّ و علاقة الكواكب و النجوم بِ حَظِّ الإنسان و مستقبله، و فصل منه يحكي عن الرموز و الشيفرات، و فصل آخر عن تعليم و قراءة الكتابات المشفَّرة وكيفية فَكّ الشيفرة...إلخ. رَكَّزتُ على تَعَلُّمِ الكتابة المشفَّرة و بِالتالي تَعَلُّم فَكّ الشيفرات. و هذه الشيفرة المبيَّنة أدناه هي شيفرة متقدِّمة إلى حَدٍّ ما، لكن هناك شيفرات أعقد منها.

A B C D E F G H I J K L M

B C D E F G H I J K L M N

N O P Q R S T U V W X Y Z

O P Q R S T U V W X Y Z A

أجريتُ تجارب لِ أَختبر نفسي إنْ كنت تعلَّمتُ فَكَّ الكتابات المشفَّرة، فَ بدأتُ بِ اسمي و اسم الراهب و اسم بوبي فَ كانت النتيجة هكذا كما في الأسفل.

NAREG = OBSFH

NARAM = OBSBN

BOBI = CPCJ

إذا أردتُ إخفاء اسمي من وثيقة ما، فَ ما عليَّ سوى أنْ أَكتبه هكذا OBSFH و بناءا عليه جَرَّبتُ ترجمة الكلمتين من النص المشفَّر لِ أرى إنْ كانت لهما معنىً ما. فَ كانت النتيجة مذهلة، لقد حصلتُ على كلمة (الابتسامة).

Uif = THE

tnjmf = SMILE

و مضيتُ في فَكِّ رموز النص بِ أكمله و حصلتُ على التالي.

Uif tnjmf jt tbwfe jo uif qjol dbtumf. Ju jt zpvs hvjef up uif ofyu nbnvtdsjqu. Hp bifde up uif opse uispvhi buisfbu cpps.

The smile is saved in the pink castie. It is your guide to the next mamuscript.Go ahead to the nord through Athread door!

و معنى النص المشفَّر هو. (الابتسامة محفوظة في القصر الوردي. إنَّه دليلك إلى المخطوط التالي. انطلق نحو الشمال من باب أذرعات).

مكَثْتُ في صومعتي، بعد هذا الاكتشاف، لِ مدّة ثلاثة أيام. أبحثُ في الكتب و المخطوطات القديمة و خاصة، السريانية، اليونانية، الفارسية و العبرية. لم أكن أخرج إلّا إلى الحديقة الخلفية، و هناك كنتُ أَستغرقُ في تأمُّل عميق حول مضامين تلك المخطوطات. و كلَّما تعمَّقتُ في التفكير فيها، كلَّما شَدَّتْني فكرة البحث عمّا يخبئه القصر الوردي، البحث عن المخطوط التالي. هل سَ يكون لِ محتواه علاقة بِ الشعار الماسوني، أو شِعار البنّائين الأحرار الذين يُنْسَبُ إليهم بناء صروح و عجائب و أماكن مقدَّسة في دول بِ عينها. فَ البنّاؤن الأحرار، كما يُقال، هم الذين بنوا الأهرامات، هيكل سليمان و مكّة...إلخ. أطلَعْتُ صديقي بوبي على ما استجدَّ في موضوع النصّ

المشفَّر و عن القصر الوردي الذي يخفي مخطوطا تابعا لِ هذه الرسالة التي تُشير إلى هناك. اكتشفَ بوبي رغبتي، لا بل لهفتي، في خَوضِ مغامرة البحث و المتابعة عن التاللي. لم يبدِ رأيه فيما أُفَكِّر.

في عصرِ اليوم الرابع شاركتُ نارام الصلاة في كنيسة الدير. و بعد الصلاة توجهنا إلى المكتبة. بادرني بِ الكلام قائلا :

– لقد استفقدتكَ هذه الأيام يا ناريك! عسى أن يكون غيابك امرا طبيعيا. أشعرُ و كَ أنَّكَ تُخبئ كلاما تحت لسانك، هل هناك ما يُشغلك يا ناريك؟

– في الحقيقة ياأَبَتِ، أنا في حيرة من أمري بخصوص النصِّ المشفَّر، لقد عرفتُ معناه، هذا هو. قرأ النصّ و قال: هذا رائع يا ناريك! يجب أن تكون مسرورا بِ هذا الإنجاز، ما الذي يجعلك محتارا في هذا الموضوع؟

– ب صراحة يا أبتِ، أراني و كَ أنَّني قَرَّرتُ الذهاب إلى حيث أَشارَ النص، إلى القصر الوردي. إنّي أطلب مشورتك و نصحكَ و بركتكَ يا صديقي العزيز .

– لديكَ روح جامحة في طلب العلم والمعرفة، كما إنَّكَ طموح لِمعرفة، أو بِ الأحرى لِ اكتشاف، الأسرار و هذه خصلة من خِصال الباحثين الجادين عن الحقيقة، بِ الرغم من احتمال التعرُّض لِمخاطر حقيقية. لقد لاحظتُ فيكَ هذه الرغبة العارمة لِ المضي إلى النهايات. امضِ إلى حيث يشير عليكَ عقلك و روحك، ربّما تكون خادما لِ الحقّ في هذه الرحلة أكثرَ منها في هذا الدير. لِ تَكُن مشيئة الربُّ دليلك و لتكن كلمته معكَ في مسعاكَ، و ل يزر دربكَ وبصيرتكَ .امتلأت روحه بِ الرضى والحماسة حين سمع موافقة نارام على سَفَرِه إلى القصر الوردي. انطلق في اليوم التالي، مع بوبي، إلى صديقه أونيل، بعد تناوله القربان المقدَّس على يد رئيس الدير، و استئذانه منه و طَلَبِ الصلاة والبركة لِ أجْلِ مهمّته. كان رئيس الدير مسرورا منه و مُعجبا بِ المهمّة التي قَرَّرَ القيام بها. و هكذا! كان في اليوم الثالث، قُبَيْلَ الظهيرة، يَدقُّ الباب على صديقه أُونيل. كان أونيل خلال السنوات التي أَمضاها ناريك في الدير و اكتسابه لِ المزيد من العلوم، واكتشافه لِ جوهر المخطوط العبري من خلال الشيفرات التي تعلَّمها من الكتَيّب الذي دَلَّه الراهب نارام إليه، كان قد قام بِ عدَّة رحلات خارج البلدة، منها رحلته إلى مسقط رأس جلجامش و آشور و خمورابي، بحثا عن أسرار الديانات التي ولدَت هناك(السومرية، الأكادية، البابلية، الآشورية و المندائية) و مدى تأثيرها في الديانات الأُخرى و بِ شكلٍ خاص الديانة العبرية. و تَتِمَّةً لِ البحث نفسه اضطر لِ

التوجّه إلى بلاد الشام. وهناك اكتشف أمورا كثيرة ومثيرة لِ الاهتمام، كما بنى صداقات مع باحثين مثله من تلك البلدان. كان أُونيل ذا ملَكات خارقة لِ الطبيعة. كان يرى و يقرأ ظواهر و أَحداث في الزمن الذي سَ يستغرق انتقالها إلى الأرض مئات السنين. كان يسخر من هذه الأديان، و خاصة الأديان التي تُسَمّى بِ الإبراهيمية – اليهودية، المسيحية والإسلام– حيث أَنَّ مخترع، أو مخترعوها، نَسجوا قصص وأساطير وخرافات في كُتبٍ وأَضْفوا عليها هالة مقدَّسة و راحو، فيما بعد، يُخَوِّنون و يكفِّرون، منتقديها و غير المؤمنين بها. وكان يسخر من البدعة التي أنوا بها حول خالق لِ الكون و الحياة. لم يُصدِّق عينيه لِ مرأى صديقه ناريك خلف الباب. عانقه مُرَحِّبا به:

– أَيُّ الأقدار جاءت بكَ إليَّ يا صديقي العزيز؟! هيّا إلى الداخل، قال و التفتَ إلى بوبي وراح يُمَسِّدُ على رأسه و جبينه. لقد اشتقتُ إليك يا بوبي العزيز، و كذلك حماري المحترم برقوق كان يستفقدكَ بين الحين و الآخر. سَ تتناولان وجبة تُسكتُ أنين المعدة و تَخلدان لِ الراحة و الاسترخاء لكي نسهر في الليل حول طاولة باخوس و ياناكوس. في المساء أَطْلَعَ، ناريك، صديقه على ما قرأه في المخطوط العبري و على سرِّ النصِّ المشفَّرِ، وأطلعه أيضا على بعض الشيفرات التي تُستَخدم في الرسائل والوثائق السرية. لقد قرَّرْتُ الذهاب إلى البتراء، إلى القصر الوردي يا صديقي. لديَّ إحساسٌ بِأَنَّ الأمر يتعلَّق بِ البنّائين و بِ علاقتهم بِ الأديان، أو بِ الأصَحِّ، يتعلَّقُ بِ منظَّمة البنّائين، أو جمعية البنّائين و علاقتها بِ رموز (رؤساء) الأديان، و بِ التالي أَتوقَّع أنْ تكون هناك وثائق و مخطوطات لها علاقة بِ الجوانب المخفية من الأديان و تشابكاتها بِ بعضها. نظرَ أونيل إلى المخطوط وإلى رَسْمَة الفرجار و الزاوية القائمة، و إلى الكتابة المشفَّرة و معناها، أو ترجمتها التي استخلصها ناريك من الشيفرات التي حصل عليها من عند الراهب نارام .

– هذا رائع يا صديقي! قال أونيل و أَضافَ: إنَّكَ مُحِقٌّ في ما ذهبتَ إليه! فَ بلاد الشام هي مكمن و منطلق الأديان، طبعا أنا أقصد الأديان الإبراهيمية، أو السماوية، كما يُسَمّونها. وأتوقَّع، بل أَجزم، بِ أنّه سَ يكون هناك تداخل وتشابك بينها، و خاصة بين العهد القديم والقرآن. يا ناريك! إن المكان الذي تقصده يُخَبئُ كنوزا لا تُقَدَّر بِأموال الدنيا. ابحثْ عن الخيوط التي سَ تدلُّكَ إلى العلاقة الوثقى بين اليهود النصارى و الإسلام، بين الإنجيل العبراني و القرآن. ذهب إلى الداخل و أتى بِ مجموعة من الشيفرات، من ضمنها شيفرة الصليب الوردي وَوَضَعَها أمام ناريك وطلب منه الاحتفاظ

بها، و أردف قائلا: سَ تفيدكَ في بحثك بِ التأكيد. لديَّ نسخة ثانية منها. أتمنى لكَ التوفيق في مهمتكَ يا صديقي العزيز .

– شكرا لك على مساعدتكَ إيّايَ في مهمَّتي، و شكرا على هذه المواد التي قدَّمتها و سوف أهتمُّ بِ تفاصيلها في قراءة الألغاز و الأسرار التي سَ تعترضني في بَحثي عن الحقيقة، و لن أنساك يا صديقي أونيل!.

– بقي أنْ أَدلَّكَ إلى صومعة، لِ راهبٍ من أبناء البترا، تقعُ إلى الجنوب الغربي من القصر الوردي. إنَّه في العقد السادس من عمره. اذهب إليه عند الحاجة يا ناريك، سوف تجده خيرَ مُعين لك!

بعد أكثرَ من عشر سنوات من رسالته الأخيرة التي كان قد أرسلها من الدير، وصَلَت رسالة منه مع تاجر قادم من بلاد الشام متجها نحو ماردين. في الحقيقة كانت الرسالة عبارة عن مجموعة رسائل في مظروف واحد. كان يكتبها في أزمان مختلفة و يحتفظ بها في حقيبته لِ عَدَمِ إمكانية إرسالها إلى البلدة. كانت إحدى الرسائل تبدأُ من حيث استلم شيفرة الصليب الوردي من صديقه أُونيل، ويتابع قائلا: أَخذنا، انا وبوبي، الطريق بِاتجاه الجنوب نحو البتراء، البلدة التي وصفَها أونيل بِدقّة متناهية. عَرفتُ منه تفاصيل المكان الذي أنا ذاهب إليه، و عرفتُ مواقع الأديرة أيضا، و منها الدير الذي يحوي صومعة الراهب الذي أوصاني، أونيل، بِ اللجوء إليه عند الضرورة. كان طريقنا يَمرُّ من صحراء دير الزور و تدمر. مررنا من الجانب الشرقي الشمالي من واحة تدمر، لا بل ، من الجنّة الخضراء وسط هذه الصحراء القاحلة. إنَّها معجزة، أنْ ترى هذه الواحة الخضراء و الأشجار المثمرة و النخيل المُثْقَل بِ البلح و التمر، و الأراضي الزراعية و ينابيع المياه العذبة في الصحراء. فعلا إنَّها معجزة، كان الآراميون، السكّان الأوائل، قد أطلقوا عليها اسم تدمرتا، أو تدمرتو و التي تعني بِ لغتهم السريانية (ܬܕܡܪܬܐ، المعجزة). عثرَ بوبي على كهف وسط أشجار الجوز و السنديان و الزان، على يمينه توجد أشجار التوت و الخوخ و الجوز، و إلى الأعلى منه بضع نخلات مثمرات تُظَلِّلُ سطحه. و من بين الأشجار تجري ساقية عذبة تنحدر مياهها من الينابيع الموجودة في المرتفعات المحيطة بِالكهف. أمضينا هناك خمسة عشرَ يوما. كنتُ أبحث خلالها عن آثار تدلُّ، أو، تحكي عن الممالك الآرامية التي كانت منتشرة في بلاد الشام و أورشليم. عثرتُ على لُقى و بعض المخطوطات التي تتحدَّث عن الملك أُذينة و الملكة زنوبيا و عن غزو أُورليانوس لِ مملكة تدمرتا. كانت زنوبيا قد اعتلَت عرش المملكة قبل أكثر من سبعة عشر قرنا من هذا التاريخ. وكانت قد قالت: إنَّها تنحدر من سلالة ملكة مصر كليوباترا. أَمّا العربان و الإسلام فَ ينسبونها إلى عرب صحراء الحجاز. قرأتُ المواجهة التي تَمَّت بين أورليانوس و زنوبيا لحظة إحضارها إليه بعد القبض عليها، حيث سألها عن أسباب رفضها لِ الصلح بينهما. فَ كان جواب الملكة: "إنَّ تدمر التي انكسَرَت وروما التي انتصرت سَتتحوَّلان، في النهاية، إلى كومة من الحجارة و فيما بعد سَ تُنْصبُ تماثيلنا في ساحاتها. إنَّه لا بدَّ، في كلِّ زمان و مكان، أنْ تكونَ هناك "روما" لِ تطغى وتظلم، وأنْ تكون هناك "تدمر" لِ ترفضَ الظلم، لِأَنَّ تدمرتا هي

رمز الحرية، و الحرية لا يمكن أنْ تتعايش مع الظلم". جملة هَزَّتْ كياني ألا و هي: "تدمر التي انكسرت و روما التي انتصرت سَ تتحوَّلان في النهاية إلى كومة من الحجارة..." قرأتُ في صفحة منفردة على إنَّها تزوَّجَتْ، بعد أن سِيقَت أسيرة إلى روما، بِ أحد حكّام الولايات الرومانية، و عاشت في قصر قُرْبَ منطقة تيڤولي وأنجبت منه بناتا. ومن سلالتها تَحَذَّرَ الراهب زنوبيوس الذي عاش في القرن الخامس في فلورنسا. كانت هذه المعلومات صادمة، و خاصة ما يتعلَّق بِ نَسَبِها، فَ هي على النقيض من تلك التي يكتبها و ينشرها العربي و المسلم، أو بِ الأحرى الاستعمار الإسلامي الذي هاجم الشعوب الآمنة، و أَبادَ و زَوَّرَ و قضى على ثقافاتها، تواريخها، معتقداتها، اديانها و لغاتها. فَ حين كانت الملكة زنوبيا تحكم تدمرتا، لم تكن العربية موجودة في بلاد الشام، و لم يكن هناك عنصر بَشَري اسمه العربي و حتى القومية العربية لم يكن لها وجود في هذه الجغرافيا. قعدتُ على كتف الكهف، من ناحية الشرق، تحت ظلال الأشجار. كانت أشعة الشمس تخترقُ الفراغات بين الأغصان و الأوراق. قعدَ بوبي بِ جانبي و أَسندَ رأسه إلى خاصرتي مستسلما لِ الدفء اللطيف و الهدوء و الأمان. أَخْرَجتُ الأوراق التي أَعطانيها أُونيل. أَفردتها أمامي لِ مراجعتها و التمعُّن فيها. في الأثناء عَدَّلَ بوبي قعدته و راح ينظر، هو الآخر، إلى الأوراق المنشورة على الأرض أمامنا. مَدَّ قائمته الأمامية اليمنى إلى الورقة التي تتحدَّثُ عن نَسَبِ زنوبيا العربي و عن اللغة العربية التي كانت تتحدَّثُ بها. كنتُ مستغرقا في التفكير بِ هذه المسألة و كيف أَنَّ الله بِ ذاته يتكلَّمُ العربية، حتّى إنَّه كتبَ كتابا بِ اللغة العربية و حفظها في السماء السابعة أو العاشرة، والله أعلم، لِ يُرسله بِ التقسيط عن طريق ساعي البريد (جبريل) إلى رسوله البدوي محمد. لم أَنتبه لِ ما يفعله بوبي و ما يبرطم به. شعَرْتُ بِ خَدَرٍ في حواسي و صرت كَ مَنْ يعيش أَحداثا خارقة في المنام. دخلَ صوت بوبي إلى مسرح الأحلام، و فيما بعد رأيتني أعتلي ظهره و راح يصعد بي إلى السماء في رحلة استكشافية فوق بلاد الشام. كنتُ أرى الصحراء من تحتنا. كان بوبي يتجه إلى الجنوب من تدمر. بعد فترة زمنية من طيرانه، رأيتُ اللون الأخضر في الأسفل، حينها عرفتُ بِ أَنَّنا ابتعدنا عن تدمر ودخلنا في بلدات عامرة بِالغابات والحدائق و البساتين. أعتقد بِ أَنَّنا كنّا قد دخلنا إلى الغوطة أو أذرعات. مال بوبي غربا في طيرانه و طلب منّي أَنْ أنظر إلى الواحة الزرقاء، إلى البحر والأمواج التي ترغي و تدفع بِ الزَبَدِ فوق قِممها ومنحنياتها التي ما تكاد تتشكَّل حتّى تتلاشى في الأزرق الممتد على مَدِّ البصر.

– يا بوبي! أعتقد بِ أَنَّنا نطير فوق بلاد العبرانيين، هل أنا مصيب في رؤيتي؟

– بِ الضبط يا ناريك! إنَّنا الآن نقترب من اورشليم. لقد أصبحنا فوقها، أنظر إلى الأسفل! ها هي ساحة هيكل سليمان، و ها هو الجدار الشمالي لِ الساحة. هل ترى الهيكل و الساحة يا ناريك؟ و هل ترى هؤلاء المنضبين في صفوفٍ ثلاثة خلْفَ كائن يتقدَّمهم بِ أمتار معدودة؟ بعد بعض الوقت طلبَ منّي أنْ أنظر إلى الأسفل قائلا: نحن الآن فوق أورشليم يا ناريك! إنَّ هؤلاء الناس الذين رأيتهم قبل لحظات يؤدّون الصلاة خلْفَ رئيس الكهنة. هبطَ إلى مستوٍ أدنى من الارتفاع الذي كُنّا عليه فوق الساحة، بِ حيث صرتُ أرى كلّ المفردات الساكنة و المتحرّكة. فَ وجدتُ حمارا مربوطا إلى حلقة معدنية مغروسة أسفل الحائط، و رأيتُ رهطا من الأنبياء و الرسل و الملائكة و معهم جبريل أيضا يُصَلّون خلف إمام بدوي، و ليس رئيس الكهنة كما توقَّعَ صديقي بوبي، كان الإمام رجلا أسمرَ اللون داكنه، وهو نفسه صاحب الحمار المربوط بِ جانب الحائط.عرفتُ من بين هؤلاء الأنبياء ؛ موسى، سليمان، داود، يعقوب و اسحق و ...إلخ. ارتفع بوبي إلى الأعلى و راح يطير نحو شرق البحر. في الأثناء رأيتُ بقعة وردية في الأسفل و سط صخورعملاقة أوحَتْ لي بِ المدينة الوردية، بِ القصر الوردي. كُنّا على تخوم السماء الثانية، حيث الزرقة الليلكية و لَمْعات من الأضواء البرتقالية تُلَوِّنُ هذه الفضاءات الجميلة. و هنا في حدود هذه السماء، رايتُ حنتورا يجرُّه حصانان كان قادما، من شمال شرق الشام، بِ اتجاهنا و بِ نفس مسارنا. و حين اقتربنا من بعضنا، فُجِئتُ بِ ما رأيت، طبعا كانت مفاجأة سارَة. رأيتُ الخال عزّو يقود حنتوره و يحمل معه كائنين نورانيين جاء بهما من بلاد العَجَم (بلاد الفُرْس)، إنَّهما مَلاكَان من ملائكة الإله أهورمزدا الذي كلَّفهما بِ الانضمام إلى هؤلاء الذين يُصلّون خلف ذلك الإمام البدوي هناك في أورشليم. حين رأني الخال عزّو، انفرَجَت أساريره و ألقى عليَّ التحيَّة بِ الأرمنيّة قائلا: باريف (Parev) نيكوغوس! و تابع بِ الأرمنية، لقد طال غيابك عن البلدة و الأهالي يذكرونكَ في سهراتهم و تجمّعاتهم، و كذلك بيدروس و برصومو يتكلَّمون عنكَ. متى سَ تعود، و هل لديك ما تريد قوله لِ أبَوَيْك. إنَّني، كما ترى، في مهمَّة عمل سَ أنقلُ هذين الملاكيْن إلى أورشليم لِ أجلِ الصلاة، فَ هما مستعجلان. سُعِدْتُ لِ رؤية الخال آزاد (عزّو)، بِ الرغم من أنَّه ذكر الاسم الذي كان يُسَبِّبُ الألم النفسي لي، قلتُ له: إنّي مشتاق لكَ ولهم كثيرا، و لا زلتُ أتذكَّرُ لسعات السوط الذي كنتَ ترسله إلى خلف الحنتور بِروح أبوية، حين كُنّا نركض خلف الحنتور و نتعَرْبَشُ بِ العارضة الخلفية. لم تكن تفعل ذلك بِ قَصْدِ إيذاء أَحدٍ بِ تلك الضربات الصورية .

– لقد ذَكَّرتني بِ نلك الأيام الجميلة و بِشقاوتكم الطفولية يا نيكوغوس، و بِ هؤلاء الأطفال الزرزين. لقد التقيت في طريقي، و أنا قادم من بلاد فارس إلى أورشليم، بِ ذلك الشاب الذي خطفته الدوّامة المائية عند تخوم البلدة. رأيته يخرج من فقاعة مائية و يجلس على غيمة فضية اللون تسير في نفس المسار الذي كنتُ أطير فيه. و عند اقترابي منه، نظر إليَّ و صار يبتسم لي، و قال، بعد إلقائه السلام: كم أنا سعيد لِ رؤيتك يا خال عزّو! أنا لوكاس ابن البلدة التي أنتَ منها، ابن القامشلي، كيف هي فيرجين، هل رأيتها قبل صعودكَ إلى هنا؟ أرجوك يا خالي العزيز، حين تعود إلى البلدة، أنْ تهدي هذه الزهرة السماوية إليها، و أَخرجَ نجمة مشعشعة ذات شريط من زمرّد و قدَّمها إليَّ، و قُلْ لها بِ أَنَّ لوكاس ينتظر اكتمال أَجنَّة السماء في الحاضنة الكونية، وسوف يهطل مع الأجنَّة التي سَ تولد نوعا جديدا من البشر، أو بِ الأحرى، من الكائنات الحيّة. ربّما تشبهنا، و ربّما لا تشبهنا. إنَّ أرواح الكائنات، حين تنتقل إلى السماء، تدخل هذه الحاضنة و تشكو عن كلِّ المظالم و الوحشية التي يُمارِسها هذا الإنسان ضدَّ الحياة. من هنا، من هذه الحاضنة، تنتشر أصداء فَديد أجنحة الطيور، حفيف أغصان الأشجار، خرير مياه الأنهار والسواقي، وهي تحمل معها آلام و أوجاع وذكريات المجازر التي يرتكبها هذا الإنسان بِ حَقِّها، هناك على الأرض، و تُرْسَلُ كلُّ هذه الإشارات عبْرَ ذبذبات الأثير الكوني إلى العين الساهرة على الحياة، و تلك العين تُرسلُ تعليمات العقل الكوني إلى الأم الكونية. هناك أُمٌّ كونية تهتمُّ بِ هذه الأجنّة، وأنا أحسُّ بِ ما تفعله. إنَّها تدخل في أعماق خلايانا، و تُحَلِّلُ أَحماضنا النووية و الأمينية. إنَّها تُغَيِّرُ من تركيب هذه البروتينات بِ ما يتناسب مع تعليمات العقل الكوني. سمعتها تقول لِمساعديها:"سوف نقتلع مورثات الغرائز ونزرع مورثات الحُبّ والموسيقى و السلام في الكائن الذي سَ ننتجه من هذه الأجنَّة حين اكتمال حضانتها و نضوج مشيماتها". و قُلْ لها بِ أَنَّني رأيتُ دمعاتها الخمس التي سقطت من عينيها حين كنتُ أصعد إلى السماء، و إنَّني لا زلتُ أتذكَّرها، و لن أنساها حتّى بعد هطولي من حاضنتي الكونية .

– آه يا خالي عزّو! كم كنتُ أَودُّ رؤية لوكاس؟ لقد قرأتُ قصتهما، هو و فيرجين، إنَّهما رمز لِ العشق والحبِّ الخالد، إنَّهما أيقونة العُشّاق يا خالي العزيز. بَلِّغ سلاماتي إلى فيرجين، كما قال لوكاس بِ الرغم من أَنَّها من زمن آخر. بلِّغ سلاماتي و محبَّتي إلى أهل البلدة يا خالي العزيز!.

ذهبَ هو لإتمام توصيلته، و نحن صعدنا إلى السماء الثانية. قبل تجاوز تخوم السماء الأولى نحو الثانية، سمعتُ صوتا من خلفنا في أسفل طبقتنا يقول في صيغة سؤال:

– يا سيّد أنا ذاهب لِ مقابلة الله فَ هل تعرف من أَيّ مسلكٍ يجب أن أمضي؟ إنَّه أخبرني عن طريق الملاك جبريل، كما صَرَّح لي عن اسمه، و قال لي بِ أنَّه مختصٌّ بِ شؤن الأرض، ملوكها، أبطالها، أخيارها، أشرارها، سَحَرَتها و أنبيائها. حين جاءني كنتُ غائبا عن الوعي، أو كَ مَنْ كان يحلم في المنام. ظَنَنْتُه، في المرَّة الأولى، عفريتا أو شيطانا و تَمَلَّكني الرعب ممّا رأيت. أمّا في المرّات التالية، فَ كنّا نتجاذب أطراف الحديث في شَتّى المسائل. و في سياق الكلام طلبتُ منه أن يطرح اسمي عند الله كي يُعَيّنني ملكا على بلادي. و قبل مغادرته حلمي غمغمَ محدِّثا نفسه: "يبدو إنَّني أخطأتُ في العنوان، فَ هذا الشخص ليس هو المختارالذي كان عليَّ مقابلته.
أرجوك يا سيّد دلني إلى الطريق الذي يؤدّي إلى عرش الله! فَ جبريل غادرني دون أن يكشفَ لي المسالك والطبقات والشِعاب المؤدية إليه. لكنَّني يجب أن أُقابله من كلِّ بُد.

– إنَّه في السماء السابعة يا ملك الزمان! عليكَ أَنْ تصعدَ إلى الأعلى! حظّا سعيدا مع أمنياتي لك بِ لقائه و تحقيق ما تصبو إليه نفسك الأرضية. تابعنا تحليقنا في السماء الثانية، و في البعيد،على المستوِي الأُفقيِّ، رأيتُ لمعاناً يصدرُ من انعكاس أضواء السماوات على كائن، بيننا مسافة ثلاث خطوات بصرية، يطير في نفس الاتجاه الذي نحن نطير فيه، سألتُ صديقي ما إذا كان يعرف أَيّ شيء عن ذلك الكائن .

– مبدئيا، قال بوبي، أعتقد بِ أنّه ليس كائنا واحدا، وحين نقترب منه قليلا سَ نتعرَّف إليه و سَنعرفُ سرَّ وجوده في هذه السماء. في الخطوة التاسعة لِبوبي، كُنّا بِ محاذاته. فعلا كما قال بوبي إنَّه ليس كائنا واحدا. رأيتُ فارسا يمتطي ظهر حصان بِ جناحين. فارس ليس ك فرسان المعمورة كلّها. هيأته كَ هيأة أبطال روما و أثينا. يحمل ترسا صَقيلا و سيفا عجيبا في صِنْعَته، ليس كَ صنعة أَيّ معلّم ماهر على وجه الأرض. يعتمر خوذة على رأسه و يحمل حقيبة على ظهره و يلبس حذاءا غريبا في رجله. انتبه لِ وجودنا بِقربه. ابتسمت له. رَدَّ الابتسامة بِ مثلها، فَ بادرته بِ الكلام مُعَرِّفا نفسي و صديقي بوبي، و شرحتُ له سببَ وجودنا في هذه السماوات و قلتُ له بِ أننا سَ نُكملُ طيراننا نحو السماوات التالية لِ مقابلة الله هناك في الأعالي. بينما هو، و بِ حسَبِ ما قاله، سَيبقى يدور هكذا في هذه السماء إلى الأبد، فَهو يطير هنا فوق ظهر حصانه المجنَّح منذ آلاف السنين، منذ أنْ قتلَ الميدوزا، و راح يحكي صراعه مع الغورغونا التي تُحَوِّل الناظر إليها (إلى عينها) إلى حجر. و قال: أنا برسيوس الذي قطعَ رأسها. نعم لقد قطعتُ رأسها و وضعته هنا في هذه الحقيبة التي تحميني من

عينها. يا ناريك! ما كان بِ الإمكان الانتصار عليها لو لم أمتلك أربعة أنواع من الأسلحة في معركتي المصيرية ضدها. لقد حصلتُ على سيف قويّ و حادّ إلى الدرجة الكافية لكي أتمكَّنَ من قتلها بِ ضربة واحدة حتّى لا تتمكن من القيام و إيقاعي في مصيدتها. و السلاح الثاني كان هذا الحِذاء، حذاء هرمس، الذي بواسطته استطعتُ الطيران في السماء و الدخول إلى ساحة المعركة من الأعلى. و السلاح الثالث كان خوذة هادس التي غمرتني في الظلام كى لا تراني هي وأخواتها أثناء دخولي وخروجي من ساحة المعركة. و السلاح الرابع هذه الحقيبة التي تمنع إيذائي و أيّ أحد آخر من قوة عينها. طبعا لا تنسى دور هذا الترس الذي جعلني أرى صورتها دون النظر إلى عينها، و هي لم تستطع رؤيتي بِ فضل الخوذة فَ باغتُها بِ ضربة قَطَعَت رأسها، و من دمها المتدفّق تَكَوَّنَ(ولِدَ) بيجاسوس هذا الحصان المجنَّح، ومن جسدها ظهرَ (ولِدَ) خنزير محنَّح ضخم، لكنَّني في هذا الوقت كنتُ أطير على ظهر بيجاسوس بعيدا عن ساحة المعركة. لكن قُلْ لي يا ناريك مَنْ هو هذا الله الذي سَ تقابله هناك في الأعالي، كما قلت،!؟ هل هو شخص مثلنا، أم هو حيوان مثل بيجاسوس و بوبي؟

– إنَّه الله يا بيرسيوس! قلتُها بِ عَظَمة و خشوع، لكنَّني بلعتُ ريقي و صرتُ أبرطم بِ أَيّ كلام، حتّى أنا لم أفهم ما كنتُ أقول. سؤال بيرسيوس كان مفاجئا، بِ الرغم من براءته وتلقائيته، هل الله هو مثلنا أم هو حيوان مثل بوبي و بيجاسوس؟ ماذا أقول، هل هو فعلا مثلنا، أم هو مثل بوبي و بيجاسوس، أم هو مثلنا كلنا، حيوان و إنسان في كائن واحد؟ أم هو الريح، البحر، الشجر، الجبل...إذن، مثل مَن و مثل ماذا هو؟ أخيرا قلتُ له: إنَّه الله يا بيرسيوس! إنَّه خالق هذا الكون وهذه الحياة، إنَّه خلقنا و خلَق الحيوانات و النباتات وكلّ شيء كلّ شيء. في يده الحياة والموت، العطاء و الحرمان، السعادة و التعاسة، لديه كلَّ عطايا الدنيا.

– إنَّني فهمتُ منك يا ناريك بِ أَنَّه مثل زيوس كبير الآلهة لدينا، لكنَّنا نحن نعرف شكل زيوس و جنسه و قدراته الخارقة و مكان عَرشه. أَمّا أنتَ، فَ كيف عرفتَ كلّ هذه الصفات و القدرات عنه، و لم تعرف إنْ كان إنسانا أو حيوانا، و إنْ كان ذكرا أم أنثى. ثمَّ هل أنتَ على موعد معه، و لماذا سَ تقابله؟

– إنَّ إلهنا غير متجسّد لا شكل له و لا جنس له، ليس كَ مثله شيء. و عرشه لا يَحدُّه مكان، فَهو موجود في كلِّ مكان. أَمّا سببَ ذهابي إليه، فَ هو لِ أجْل الحصول على سرِّ مخطوطات مدفونة في بلدي، في وادي موسى.. هنا قاطعني بِ لطفٍ قائلا :

– لكنَّك كيف عرفتَ بِ أَنَّه من غير شكل و من غير جنس، و أنّه موجود في كلِّ مكان؟ و هناك كلام فلسفي قلتَه الآن و هو"ليس كَمثله أَحَد، أو ليس كَ مثله شيء" إنَّ هذا الكلام قمَّة في الفلسفة و قمَّة في الديالكتيك، لأنَّنا يمكن أن نُفَسِّرَ هذا الكلام: بِ أنَّ الله غير مُدْرَك حسّيا و شعوريا، و أيضا غير مُدْرَك معرفيا و غير مُدْرَك ماديا. فَ الاستنتاج، في هذه الحال، هو: إنّه غير موجود واقعيا، فعليا. إنَّه موجود في مخيّلتكم فقط. ابتسم لي و هو ينظر في عيوني، ثُمَّ بعد لحظات صار يضحكُ و يضرب الكفَّ بِ كَفّ و قال: الآن فهمتُ ما كان يجري هنا في هذه السماء، و فهمتُ حركة صعود و نزول كائنات بشرية و حيوانات طائرة تحمل فرسانها، و نزول و صعود ملائكة، من مختلف المراتب، من وإلى السماء. هؤلاء، الذين قابلتهم في هذه السماء، كانوا يقولون، حين كانوا يقتربون إلى هذه المسافة التي أنتَ فيها الآن بِ النسبة إليَّ، بِ أنَّهم ذاهبون لِ مقابلة الله، كما تقول أنتَ الآن .

– و هل قابلتَ أَحدا غيري يعْبرُ هذه السماء لِ مقابلة الله؟ و هل رأيتَ أَحداً ينزل إلى الأرض و يصعد منها سالكا هذا الطريق الأثيري، هل كانوا ملائكة، عفاريت، جانّ، أرواح...؟

– اسمع يا ناريك! لقد التقيتُ، قبل سنة كونية من مجيئكَ، بِ كائن ذي جناحين على هيئة إنسان يطير نحو الأرض و هو يحمل خروفاً ابيضَا. أَلقى عليَّ السلام. و بعدَ أَن ردَدْتُ عليه السلام، سألته عن سبَبِ حمله لِ الخروف، و سألته مِن أين جاء به، مِن أيّ المراعي أو الحظائر، و إلى أين سَيأخذه و لماذا، قال لي: إنّي في عجَلَة من أمري يا صديقي، فَ أمامي ثانيتان كونيتان يجب أنْ أكونَ في الأرض. إنَّ الله أرسل هذا الخروف، أو الكبش، إلى خليله (ابراهيم) العبراني الذي سَ يذبح ابنه بناءا على طلبه (الله)، كَ امتحان لِ خضوعه له، لذلك يجب أن أَلحَقَ قبلَ أنْ تقع الكارثة و يذبح ابنه اسحق. لقد تَفَهَّمتُ الحكاية تماما، لأنَّ مثلها كانت تحدث عندنا أيضا. وكلُّ حَدَث، أو حكاية مثل هذه كانت تَتْبَع إلى إله خاص بها دون غيره، لذلك سألته إنْ كان هذا الإله الذي أرسله هو مسؤل عن هذه الرهانات و الألعاب المثيرة. لكنَّه نفى ذلك، وقال بِ أَنَّ الذي أرسله هو الله و لا إله آخر غيره. قالها و مضى مسرعا إلى ساحة الرهان. أَنا استغربتُ لِ هذا الفعل، إذْ كيف يمكن لِ هذا الذي تسمونه الله الكلّي القدرة أنْ يطلب من أحدِ الناس أن يذبح ابنه، ثمَّ يعود عن طلبه و يعفيه من الأمر؟ وحين عاد الملاك من مهمَّته سألته عن سببِ هذه اللعبة، أو هذه المسرحية. فَ كان جوابه:

– "إنَّ الله كان يختبر إيمانه و مدى إخلاصه له". غريب هذا الأمر، أ لَمْ يكن يعرف، أو بِ الأَصَحّ، أ لمْ يكن بِ إمكانه معرفة إخلاصه و صدق إيمانه من عدمه دون هذه المسرحية المرعبة؟! تابع بيرسيوس رواية مشاهداته، و يبدو أنَّه صار ينظر إلى كلِّ ما رأه، بعد الحديث الذي دار بيني و بينه عن الله و الصفات التي عَدَدْتُها على مسامعه عنه(الله)، بنظرة أُخرى وكان يميل إلى الجانب الخرافي و الكوميدي لِ الموضوع .

– رأيتُ بعد زمنٍ كونيٍّ من عودة الملاك من مهمَّته، يقول بيرسيوس، مجموعة من الملائكة منتشرين على مساحة معيَّنة من يميني و هم يرمون قطع من حجارة، أو موادَّ سماوية إلى الأسفل. لم أنتبه إلى ماهية تلك المواد التي يرمونها إلى الأرض. لكن حين مرورهم من جانبي متجهين إلى معسكراتهم، سألتُ أحدهم عن تلك الحجارة، فقال لي:

– "إنَّها ليست حجارة، و إنَّما هي طعام السماء أرسلناه إلى قوم العبرانيين التائهين في صحراء سيناء". و بعد هذه الحادثة، رأيتُ ملاكا في يده ألواح حجرية، و كَ أنَّها ألواح زمرّد، ينزل بها مسرعا إلى الأرض. قابلني في طريقه، وبالكاد ألقى عليَّ التحية. لكنَّني سألتُه، بالرغم من استعجاله، عَمّا يحمله في يده وإلى أين سيأخذه في هذه العجالة .

– "إنّي مُكَّلَّفٌ من قِبَل الله بِ إيصال هذه الألواح، التي قال عنها الله حين أَمَرني: خُذْ هذا الكتاب إلى موسيس رئيس العبرانيين التائهين في صحراء سيناء".

– و هل هو كتاب شعر، أو فلسفة، أو سحر؟. أم إنَّه كتاب عن فنون الحرب و القتال، أو كتاب عن الخمر و الآيروتيك؟

– إنَّه كتاب الله لِ أتباعه، قال الملاك، فَ هؤلاء يعبدون الله و لذلك أرسل لهم هذا الكتاب، فَ المكتوب فيه هو كلامه، و كلامه غير قابل لِ التبديل أو التفسير حسب أهواء التابعين لِ هذا الدين، لأنَّ المكتوب في هذا الكتاب واضح و مبين لا يحتاج لِ أَيِّ اجتهاد في إعطاء معانٍ و تفاسير من عندياتهم. و كلام الله هذا، سَ يبقى صالحا لِ العبادة و التطبيق في كلِّ شؤنهم الدنيوية، و في كلِّ زمان و مكان إلى يوم القيامة.

– يبدو هذا أل موسيس جبارا، له علاقات قويّة مع الله، وكما هو واضح فَ هذا الإله لا يرفض له طلبا. هل هو من قادة جيوشه يُحارب لِ نصرته هناك على الأرض؟

– لا..لا.. إنَّه ليس كما تقول، بل هو نَبيُّ الله مثل ابرام الذي حصل على كبش الفداء لِ يذبحه بدلا عن ابنه اسحق. قالها و انطلق نحو موسيس لِ يسلِّمه الكتاب (الألواح).

كُنّا في وضعية الطيران الُحرّ، حيث بوبي و بيجاسوس لم يحرّكا أعضاء الطيران في أجسادهما، فَ هما يطيران بِ فعل السديم الحليبي الليّن الذي يحملنا على المدارات الحلزونية نحو أطراف الفضاءات اللامنتهية. في الأثناء قال لي: إنَّه التقى، بعد هؤلاء، بِ أشخاص كانوا يتجهون، هم أيضا، نحو السماء حيث الله الذي سمعتُ عنه هذه الأوصاف التي قلتها و قالوها. فَ رأيتُ شخصا اسمه، كما قال لي،(زارا) كان يمتطي ظهر طائر كبير يشبه إلى حَدٍّ ما الحصان أو الثور المجنَّح، كان في طريقه إلى الله، لكنَّه قال اسما آخر له، و قال عن نفسه إنَّه نبيٌّ من بلاد فارس سوف يلتقي الله لكي يستلم منه الكتاب الخاص بِديانته. و من بعده بِ فترة زمنية، التقيتُ بِ شخص آخر كان هو أيضا في طريقه إلى الله لِ يستلم منه الكتاب الخاص بِ ديانته، و قال لي اسمه و اسم بلده، إنَّه النبي (ماني) من أوروك.

– أريد منكَ أنْ تشرح لي يا ناريك معنى النبي، فَ هؤلاء و غيرهم كُثُر كلّهم قالوا بِ أَنَّهم أنبياء، ما الفرق بين النبي وبين أَيّ إنسان آخر، و ما العلاقة التي تربط النبيّ بِ الله. أطلب هذا لأنَّني رأيتُ، بعد هؤلا، شخصا، وكان الوحيد من بين الذين التقيتُهم هنا في هذه السماء وهم يقصدون عرش الله لِ استلام الكتب الخاصة بهم، يطير واقفا دون الاستعانة بِدابة، أو أيَّة وسيلة أُخرى لِ الطيران، وكان الوحيد الذي لم يذهب إلى عرش الله لِ استلام كتاب خاص لِ ديانته. كانت يده اليمنى مرفوعة نحو الأعلى وهو يقول: "انا هو القيامة، الأوَّل و الأخر، أنا هو الطريق و الحَقّ و الحياة و الخلاص".
لم يُكَلِّمني و إنَّما رسمَ إشارة على رأسي و مضى. لم أفهم مغزى الإشارة التي رسمها على رأسي، و لم أفهم معنى الكلمات التي قالها وهو يطير نحو الأعالي. و بعد نصف ساعة كونية من صعود ذلك الذي كان يقول: أَنا هو القيامة...إلخ. رأيتُ فارسا يتقدَّمُ بِ اتجاهي وهو يمتطي ظهر دابَّة لا هو بالحمار و لا هو بِ الحصان، لكن كان لها جناحان. سألني قائلا:"في أَيّ سماء نحن يا أَيُّها الكافر؟ فَأنا أريد الذهاب إلى السماء السابعة حيث عَرْشُ الواحد الأحد الذي لا شريك له، الذي لم يلد و لم يولد. سَ أُقابله لأنَّني على موعد معه". خَلَعَ عليَّ اسما غير اسمي، طبعا ما عرفتُ معنى هذا الاسم. سألته عن سببِ ذهابه إلى الله، فَ كان رَدّه بِأنَّه نَبيّه و رسوله إلى العالمين. سيجتمع معه لِ كتابة دستور متكامل لِ الحياة على الأرض، الصلاة، الضيام، الطعام، النكاح وحتّى كيفية التبرُّز و التبوُّل، وفيه العقوبات والحدود التي سَ تُطَبَّق على كلّ إنسان/ة لم يلتزم بها حرفيا. سَ أشرح له خطتي و بعضا من شروطي، لأنَّ أتباعي هم بدو يعيشون في الصحراء، كما قال. ولذلك يجب أن تكون هناك استثناءات وإغراءات، في الدستور السماوي الذي سَ يرسله لي فيما بعد، لِ تدفعهم إلى التمَسُّكِ بِ الدين الجديد

والقتال دفاعا عنه وعن الله. شَرَحْتُ له الاتجاهات و الطريق التي سَ يأخذها إلى الله الذي ينتظره هناك في السماء السابعة. و حين عادوا جميعهم، في فترات متباعدة، بِ دقائق كونية، فيما بينهم، صار كلّ واحد يحكي لي عمّا دار بينه وبين الله وعن الكتاب الذي أعطاه الله لِ يكون دستور ديانته. ومنهم مَن كان يحمل مسودة الكتاب بين دفَتين كَ غلاف مزَيَّن بِ لوحات ملوَّنة مزركشة جميلة. كانوا سعداء، و راح كلُّ واحد منهم يتركُ لديَّ تذكارا من ديانته و كتابه. أَمّا الذي كان يطير على دابَّة البراق، كما قال لي اسمها، حين عاد من عند الله، كان مشرق الوجه، في هذه المرَّة، عَرَّفَ عن نفسه قائلا: أنا محمد آخر الأنبياء كما طلبتُ من الله أن أكون أنا خاتم الأنبياء. و راح يشرح لي ما دار بينه و بين الله، و كيف أنَّه ناقشه في مسائل إيمانية كَ الصوم، الصلاة، نكاح الإناث، الجهنَّم والجنّة. و استطاع أنْ يكسبَ النقاش في موضوع الصيام و عدد الإناث التي يجوز له و لِأتباعه امتلاكهنَّ كَ زوجات، وعدد آخر،غير محدود، كَ إماء و سراري لِ الاستمتاع الجنسي بهنَّ. كان يحمل كتابا بِ يده قدَّمه لي قائلا: كنتُ قد قلتُ لك أثناء صعودي إلى الله بِ أنَّه سَيرسل كتابي فيما بَعد. إنَّه سَيفعل ذلك تماما، لكنَّني أَخبرته عنكَ حين قابلتُه وما كان منه إلّا أنْ أَخرجَ هذا الكتاب ومعه غلاف آخر و قال: خُذْ كتابك واعطِه لِ ذلك الذي قابلتَه في السماء الثانية، و اطلبْ منه أنْ ينشره في السماوات، و قل له اسم الكتاب "القرآن". وهكذا يا ناريك أعطاني الكتاب الذي جاء به من عند الله، و قال إنَّ الله سوف يُرسلُ نفس هذا الكتاب إليه تِباعا. أنظر هذا هو "القرآن" كما قال لي فارس البراق.

–آه... إنَّه كتاب المسلمين، هذا هو القرآن الذي يقولون عنه بِ أَنَّه مكتوب منذ الأزل وهو في اللوح المحفوظ، وإنَّ الله بِ ذاته كتبه بِ اللغة العربية، فَ هي لغة أهل الجنة، اللغة التي يتحدَّث بها الله مع عِباده. إنَّه الكتاب الذي يُقَدِّسه المسلمون. إنَّه مزخرف بِ شكلٍ جميل، و الغلاف الآخر أيضا زخرفته رائعة، و هذه الزخرفة أراها لِ المرَّة الأولى و هي ذات دلالات روحانية. أنتَ لا تعرف العربية يا بيرسيوس! انظر إلى الجملة المكتوبة بِ اللون الأسود في الرقعة الصفراء المرسومة على الطريقة الصوفية، فَالكتابة موجودة في مركز الشكل البضوي و هي مكتوبة بِ شكل فَنّي(القرآن الكريم)، وكَأَنَّها صَفار بيضة طائر الفينيق، أو جنين كونيّ في بيضة سماوية مُعَلَّقة من حلقاتها الست، أو آذانها الست المثبتة على محيطها. تأمَّلتُ مَليّا في تشابكات هذه اللوحة الصوفيّة، في الأثناء تراءت الألغاز والكتابات المشفَّرة في عقلي الباطن، و لأنّي قرأتُ وحفظتُ بعض الشيفرات، فَ صارت الأشكال الغريبة تَشدُّني لِتفكيكها و تحليلها و فَكِّ طلاسمها. و لذلك رحتُ أَتمَعَّن في منحنياتها، أقواسها، مستقيماتها و زواياها. لاحظتُ جمالية التشكيل و تناظر عناصره الداخلية (داخل البيضة). فَ هناك تقابل، أو تناظر، رؤس الزوايا الحادة المستندة على المحيط الداخلي لِ البيضة، فَبين كلّ زوج من الآذان يستند رأس زاوية حادة، فَهي متناظرة، هل تلاحظ ما أقول وما أُشير إليه يا بيرسيوس؟ تعال الآن لِ نأخذ نقطة من الحلقة(الأُذن) العليا ونوصِل بينها وبين الحلقتين اليمنى واليسرى الواقعتين فوق الحلقة السفلى مباشرة، لقد حصلنا على مثلث حادّ الزوايا رؤسها

الثلاث مستندة على الجدار الداخلي لِ البيضة الكونية. و بِنفس الطريقة، نأخذ نقطة من الحلقة السفلى ونوصِلْ بينها وبين الحلقتين اليمنى واليسرى الواقعتين تحت الحلقة العليا مباشرة، و هنا أيضا حصلنا على مثلث كما المثلث الأول. انظر يا بيرسيوس! لقد حصلنا على مثلثين متداخلين و في قلبهما تستقر الجملة الاسمية(القرآن الكريم).

هذا التشكيل المكوَّن من عناق المثلثين، إنَّما هو حالة عشق إلهي. إنَّه عناق حميمي بين مثلثين داخل البيضة الكونية، وهذا الحُبّ و هذا العناق أَنتجَ نجمة سداسية الرؤس و هي نجمة بني إسرائيل، نجمة العبرانيين، نجمة اليهود، نجمة النبي داؤد. إنَّ الله خَتَمَ قرآن محمد بِختم بني إسرائيل، وكأَنَّه يقول لِلمسلمين:"لا إله إلّا الذي تعبده بنو إسرائيل".

–هل تقصد، إنَّ الله كتب كتابين مختلفين، أو كتاب واحد بِ نسختين مختلفتين، في واحد منهما ألغاز و شيفرات تؤدي إلى الآخر؟ أَلا يمكن أن تكون، أنتَ مَنْ أَخْرَجَ هذه النجمة من توصيل النقاط و المستقيمات التي تخدم غرضكَ؟

–كيف أفعل ذلك يا صديقي؟ فَ أنتَ رأيتَ ما فعلتُه أمام عينيك. تعال قِفْ بِ جانبي و هات النسخة الثانية من غلاف الكتاب و انظر إلى هذه النقاط، رؤس الزوايا، التي لا علاقة لي بِ أماكنها، فَ هي كانت في هذه المواقع عندما أَرَيْتَني الكتاب. و كما

تلاحظ فَ توصيل هذه النقاط بِ بعضها يعطينا مثلثين متداخلين كما ترى، إذن يا بيرسيوس! النجمة المقدَّسة هي كامنة في هذا الكتاب على شكل لغز و شيفرة مخبَّأة عن العوام.

إنَّه العناق الحميمي نفسه بين مثلثين داخل البيضة الكونية، و إنَّها نفس النحمة المقدَّسة.النجمة السداسية. نجمة بني إسرائيل، نجمة النبي داؤد. أَمّا عن ذلك الذي كان يطير واقفا و هو يقول تلك الكلمات و الجُمَل المقدَّسة. إنَّه الله نفسه يا بيرسيوس! إلهنا الذي نعبده، إنَّه الربَّ يسوع المسيح الذي حَلَّ الله في جسده الطاهر. لقد عاش كَ إنسان، لكنَّه الوحيد بين البشر على الأرض كان دون خطيئة. أَمَّا الآخرون (الأنبياء)، فَ هم بشر مثلنا خَصَّهم الله بِ قدرات فوق طبيعية.

–أَنتم فلاسفة و روائيون مبدعون يا ناريك! فَ هذا النَصّ الذي تقوله عن إنسان كان على الأرض و إنَّ الله كان قد حَلَّ فيه، إنَّه أَجمل نصّ و أَجمل سيناريو أَسمعه بعد قصص زيوس و افروديت و لوسيفر و بوسيدون، و سيناريو بوليفيم و أوذيسيوس، و سيناريو بيرسيوس و غورغونا– الذي تراه أمامكَ– و سيناريو هرقل و السنطور الذي أعطى دمه المسموم، و هو يحتضر جَرّاء السهم الذي أطلقه هرقل في قلبه، لِ زوجة هرقل – و هو ينقلها من ضفة النهر إلى الضفة الأُخرى– لِ الانتقام منه. أَمّا أَنْ ينزل الله إلى الأرض و يعيش في جسد كائن بشريّ ومن ثمَّ يُقتل هذا الإنسان الإله و يطير إلى السماء، فَ هذه أَروع وأعظم رواية أَسمعها على الإطلاق. و الآن يا صديقي تريد

مقابلة هذا الشخص الذي رأيته يطير واقفا؟ و لكن هؤلاء الذين رأيتهم يطيرون لِ مقابلة الله، أين كانوا يذهبون، و مَن كانوا سِ يُقابلون، إذا كان الله على الأرض؟ فعلا أَنتم مبدعون في التحليق بِ أفكاركم و خيالاتكم! هَمَمْتُ توديع صديقي، البطل الاسطوري، بيرسيوس و الذهاب إلى الله هناك في السماء السابعة، لكنَّني سمعتُ دويَّ انفجارات هائلة، وبريق مقذوفات نارية و عويل كائنات طائرة تسقط جثثا ممزَّقة عِبْرَ السماء بين الكواكب والنجوم. في الأثناء، طلبَ منّي، بيرسيوس، بِالفرار من هنا لأنَّ معركة مدمِّرة سَ تندلع الآن بين حُرّاس السماء السابعة والجواسيس الذين يتسقَّطون أَخبار اجتماعات الله و أركان جيوشه، و بينما هو يتحدَّثُ إليَّ، مَرَّت قذيفة سماوية ملتهبة بِ قُربِ عُنُقِ بوبي، ممّا جعله يقفز عاليا و يوقعني من على ظهره، و رأيتني أَنحدرُ في فَجٍّ ملتهب. و ما أَنْ لامستني النيران حتّى وجدتُ نفسي أَلهثُ، و بوبي يلطع يديَّ.

- 16 -

لمَستُ رأس بوبي و مَدَدْتُ يدي إلى صدره و ظهره. كنتُ مصدوما من الرؤى التي رأيتها هناك عند بيرسيوس، و خاصة رسالة الله المشفَّرة على غلاف القرآن. و كنتُ مصدوما، أيضا، من الأسئلة البريئة التي طرحها عليَّ، وخاصة فيما يتعلَّق بِ المسيح و حلول الله فيه و صعوده، هو كان يقول طيرانه، إلى السماء. السؤال الذي صدمني و أَربكني كان التالي: أنتَ تقول إنَّ الذي طار، واقفا، إلى السماء هو الله نفسه، فَهل سَ يبقى موجودا بِ هيئته ملموسا، كما رأيتُه، هناك في السماء السابعة حيث عَرشه، كما يقول أَتباع الديانات الأُخرى، أَمْ أنَّه سَيتبخر، أو يتلاشى، ولم يعد يُرى ويُلمس و يُشَمُّ، كما قلتَ لي حين عَرَّفْتَ طبيعته الخارقة؟ هَزَّ بوبي ذيله و تَنحنحَ و نظرَ إلى عينيَّ و قال: كنتَ شاردا يا صديقي! و تابع، كنتُ أُلاحظُ تعابير متباينة على وجهكَ و في عينَيكَ. بالتأكيد كنتَ غائبا عنّي و عن المكان. هل سنبقى كثيرا هنا في هذا البلد يا ناريك؟

– صَدَقْتَ يا بوبي! لقد شردتُ قليلا. تعرَّضتُ خلال شرودي إلى امتحانات قاسية و دروس في الفلسفة واللاهوت و الأديان لا يمكن نسيانها أبدا يا صديقي. أمّا عن بقائنا، أو الوقت الذي سَ ۘنقضيه هنا، أرى بِأَنَّنا لن نبقَ طويلا هنا، فقط أريد مراجعة بعضا من المخطوطات التي لها علاقة بِالمَشاهد التي طافَت أمام عيوني و لامسَت خيالاتي هناك في السماوات، أثناء غيابي الروحي عنكَ.

أَمضى، بعد معراجه إلى السماء، سبعة عشر يوما. كان يبحث خلالها عن رموز و إشارات، أو كتابات و مخطوطات قد تكشف له العلاقة بين بابل و تدمر و روما، و بِ التالي بين كلّ هؤلاء وبين اليهود. كان يريد أنْ يصل إلى يقين بِخصوص اليهود، هل كان لهم وجود هنا، أو في هذه التخوم، جنوبا، غربا و شرقا. كان يقف إلى جانب الأعمدة الرخامية العملاقة يتأمَّل التيجان المصنوعة على رؤسها. كان يتمشّى في الطريق الرئيس لِ المدينة، أو الشارع المستقيم الذي تحيط به الأعمدة وقوس النصر و المسرح والمدرج والساحة العامة والقصور و المعابد و أهمها معبد بل (بعل) و المدافن الملكية وتماثيل وآثار كثيرة تنطق بعظمة المدينة التي أصبحت عاصمة لِ أهم ممالك الشرق "مملكة تدمر". زار قصر الملكة زنوبيا، و الحمّامات و أقنية المياه، بل شبكة الأقنية، التي كانت تُغذّي جميع المرافق الحيوية في المدينة. صعدَ إلى نقاط الحرس فوق التلال المطلّة على تخوم المملكة من الخارج، و على الساحات و المرافق العامة

من الداخل. زار آثار المعابد و الهياكل المقدَّسة التي كانت، في الأيام الخوالي،أماكن العبادات والصلوات. كان من بينها، الكنائس وأيضا الكنيس اليهودي ومعابد لِ متعبّدي النار والشمس والخمر و اللات و العزى. شاهد تماثيل لِ اللات وباخوس، اله الخمر، و عشتار إلهة الحب والجمال والخصوبة، و بل حامي المدينة اله الشمس. اهتدى إلى عدد من صوامع الرهبان المسيحيين في التلال المحيطة بِالمدينة، كان الاعتقاد السائد حول هؤلاء الرهبان، بِ أنَّهم من الهراطقة، أو كما كان شائعا وقتذاك، حيث كان يُطْلَقُ عليهم تسمية النصارى. قرأ في وثائق هامّة، في مكتبة المدينة، عن اهتمامهم بِ الدين والعبادات و الآلهة، كان شغفهم كبيرا في بناء المعابد. وكانت آلهتم و معبوداتهم كثيرة العدد و تقارب الثلاثين من الآلهة، حسبما جاء في تلك الوثائق، و على رأسها المعبود الأعلى(الإله بل التدمري) و الذي يظهر في المنحوتات التدمرية بشكل كبير. كان الثلاثي(بل – يرحبول – أغلبول) يتمتع بأكثر شعبية في مملكة تدمر. وجدتُ في المتحف، الذي يضمُّ آثارا و مكتشفات أثرية كثيرة، وثيقة مكتوبة بِ اللغة العبرية على أوراق كاكية اللون، عرفتُ ذلك من هذا العنوان " إنَّه في الساحل السوري" المكتوب أعلى غلاف الوثيقة، و في منتصفها رسمة الشمعدان السباعي، طبعا أنا التقطتُ السرَّ مباشرة، فَ الرسمة ما هي إلّا شعار يهودي. كانت الوثيقة تتحدَّث عن خلاص الشعب اليهودي من العبودية، و عن السنوات الأربعين في صحراء سيناء، و المعجزات التي صنعها يهوة خلال عبورهم الصحراء إلى فلستين. تتحدَّث أيضا عن دمار أورشليم و هيكل سليمان، و تَحثُّ الأحبار و رؤساء الكهنة عن البحث عن المختار الذي سَ يُخلِّص الشعب من نير الرومان ويُحرِّر أورشليم من حكمهم. إنَّ المخلِّص سَيظهر في تخوم الشام. هكذا كانت الوثيقة تتنبّأ عنه و عن مكان ظهوره. لقد أَرْبَكتني المعلومات الواردة عن المخلِّص و عن دوره، أو، عن المهمّة التي سَ يُؤدّيها على الأرض عند مجيئه. فَ نحنُ ننظر إلى المخلِّص بِ غير ما قرأتُه هنا في هذه الوثيقة اليهودية. أَضاف نسخة من هذه الوثيقة إلى تلك التي حصل عليها من الواقع، وتلك التي حصل عليها من الأساطير و الخيالات. كانت جميعها تُشير إلى مسائل غيبية متقاطعة في نقاط مشتركة، كما أنَّها تُشير، أيضا، إلى تخوم تحيط بِ مركز المكان المقدَّس لدى، هؤلاء، أصحاب الديانات الابراهيمية. أرى نفسي بين قوى متعدِّدة الاتجاهات تمسكُ بِ تلاليبي، و كلُّ قوة تَشدُّني إليها بِ حيث أصبحتُ أشعرُ بِ التمزُّق، أو بِتعبير أَخَفّ، بِ الضياع و التشوّش بين معتقداتهم و آلهتهم. قَرَّرْتُ المضي إلى نهاية البحث عن الحقيقة، طبعا بقيتُ محتفظا بِ إيماني المسيحي الذي يقول بِ ألوهية السيد المسيح و موته على الصليب وقيامته من الموت وصعوده إلى السماء و جلوسه عن يمين الاب.

بقيتُ هكذا مبدئيا إلى حين ظهور النتائج التي سَ تترتَّب على تفاعل تلك الصدمات و التي، بِالتأكيد، سَيكون لها تأثير في قناعاتي، أو، إيماني الأوردوذوكسي. كانت رحلته سَ تأخذه، بِحسب النَصّ المشفَّر، إلى القصر الوردي ومنه نحو الشمال عبْرَ أَذرعات، والآن صار لِزاما عليه، بِ حسب الوثيقة اليهودية، أنْ يتَّجه نحو الساحل السوري. أَمّا هو، فَ قد سلكَ دروبا مختلفة عن تلك التي كان عليه أنْ يسلكها وفْقا لِلإشارات التي كانت تواجهه. لقد عرفَ الأهالي من إحدى رسائله المتراكمة لديهم، بِ أَنَّه كان قد نزلَ إلى جنوب شرق تدمر بِ شكل مباشر، و بِ هذا المنحى يكون قد دخلَ بلاد بابل، أرض أوروك، بلاد جلجامش. قادته أبحاثه هناك إلى التعمُّق في مراتب الآلهة و مواصفاتها، والتعرّف إلى أساطير وملاحم وخرافات تلك الشعوب، أو بالأحرى، تَعرَّفَ إلى ثقافاتهم من أوسع أبوابها. توصَّلَ إلى استنتاجات مهمّة بِ خصوص روايات و قصص و أساطير من الأديان المتحكّمة في حياة شعوب بلاد الرافدين، بلاد الشام، بلاد فارس، الهند و السند و بلاد النوبة. كان قد دوَّنَ ملاحظات قَيّمة حول أساطير الخَلْق التي تَعجُّ بها أديان تلك الشعوب، وكذلك اساطير الموت، القيامة، الخلود...إلخ. كان قد كتبَ ملاحظات حول الولادات العجائبية لِرؤساء، أو، أنبياء الأديان. و أساطير الطوفان، المحكمة السماوية، عالم الأموات، الجنّة، الجهنَّم والجنس. كان قد أَبْرَزَ وجه الشبه بين تلك الأديان في مسألة الخلود، الطوفان و الولادة فوق الطبيعية لِ أنبيائهم، كَ ولادة ماني، بوذا، يسوع و محمد. كلّهم كانت ولاداتهم إعجازا لِلعقل البشري، فَ مثلا ولادة المسيح من العذراء مريم دون رجل، و ولادة بوذا و زراديشت، حيث تَنبَّأ العرّافون بِ ولادتهم و نبوَّتهم، وأيضا ولادة محمد العجائبية و التنبّؤ به و بِ نبوَّته، و كانت ولادته الإعجازية خير دليل على إنَّه سَيكون أَعظم الأنبياء وخاتم الأنبياء، حيث ولِدَ بعد أربع سنوات من موت أبيه، بعد أربع سنوات من حَمْلِ أُمِّه له كَ جنين في رحمها، أيْ أنَّه اَمضى أربع سنين في أَحشاء أُمِّه، إنَّها معجزة الإسلام الحقيقية، أَمّا مسألة الخلود، فَ قد اجتهد في هذا الموضوع أيضا و ذلك من خلال دراسة و تحليل سفْر التكوين و عشبة جلجامش. كان تفسيره أَنْ "لا خلود لِ الكائن الحيّ بذاته، وإنَّما الخلود هو لنوعه من خلال الجنس". ربطَ الخلود بِ الحَيَّة و ذلك بِ الاعتماد على ميثولوجيات شعوب مختلفة كَ الفراعنة، السومريين، اليهود و الهنود. و الصورة الأوضح هي في ملحمة جلجامش و التكوين اليهودي، حيث الحَيَّة أكلت عشبة الخلود التي أَخرجها جلجامش من قاع المياه، و عندها راحت تسلخ جلدها دلالة على تَجَدُّد حياتها، أيْ الخلود. امّا في التكوين اليهودي، فَ الحيَّة هي التي اَغْوَتْ آدم و حواء لِ يمارسا الجنس، و هي التي أَشارت إلى شجرة الحياة، شجرة الخلود، و كان ما قامت به كفيلا بِ إطلاق الله

لعنة ظالمة عليها و على الأنثى و جعلها(الحيَّة) العدوَّة الأولى لِ الإنسان بِ امتياز. و في أوراق أُخرى متأخّرة عن الرسالة، عَبَّرَ عن شكوكه و استنكاره لِ موضوع تحميل الإثم على حَوّاء في ممارسة الجنس. كان قد طاف في بلاد الهند، و زار الحديقة التي فيها وصلَ بوذا إلى المعرفة الكلية و تحت شجرة التين الكائنة في تلك الحديقة أصبح المنَوَّر، المستنير. اكتسبَ هذه الصفة بعد أنْ نال حقائق المعرفة. التقى بِ الرهبان البوذيين و دخل معابدهم، و المعبد الرئيس الذي بُني في نهايات حياة نبيّهم المستنير (بوذا). فعل الشيء ذاته في بلاد فارس، حيث زار المعابد التي تحتفظ بِ النار الأبدية التي لا تُطفأ. تَعَرَّفَ على الكهنة المجوس، مفسّري الرؤى، محلّلي الرموز و قارئي المستقبل، حرّاس الشعلة المقدَّسة. أَخذوه إلى المعبد الأوَّل الذي بُني في حياة نبيّهم زراديشت، و قدَّموا له نسخة من الكتاب المقدَّس– الأفيستا–. حَدَّثوه عن النجمة التي ظهرت في بلاد اليهود و كيف أَنَّ الرعاة الذين رأوها أَخبروا المجوس بِ امرها. أَمّا المجوس فَ قد قرأوا الإشارة و حلَّلوها و عرفوا دلالاتها، و هي أَنَّ ملكا قد ولِدَ لِ بني إسرائيل، و حَدَّدوا موقع النجمة –بيت لحم– حيث ولِدَ المسيح. كان قد عَرَّفهم على صديقه بوبي وعلى قدراته الخارقة، الروحية و المادية و العقلية. قال لهم إنَّه من سلالة الكلب الذي نام في كهف، في بلدتنا، مع ثلاثة فتية مدَّة ثلاث مئة سنة، و لأنّه ينحدر من سلالة ذلك الكلب المؤمن، ف قد خَصَّه الله بِهذه القدرات الخارقة. إنَّه يفهم اللغات ويحكيها، يُحَلِّلُ الوقائع و الأحداث ويستشرف المستقبل، يطير في السماء. وقفزة واحدة من قفزاته مسافتها هي على مدى الرؤية. إنَّه عفيف النفس، كريم العين وطاهر الروح. لم يكونوا يعرفوا شيئا عن هذه القصة (أهل الكهف)، فَ هي –كما قال صديقه أونيل– خرافة و كذبة خاصة بنا نحن أصحاب هذه الخزعبلات، و التي دخلت إلى الكتب المقدَّسة، أو التي يقولون عنها مقدَّسة. كان أونيل يرفض وَصْفَها بِ المقدَّسة، و كان يقول: "كيف تكون تلك الكتب مقدَّسة وهي تُحَرِّض وتدعو إلى قتل الإنسان، إلى نكاح النساء بِ غَيْرِ حدود، إلى سرقة أملاك و ممتلكات الناس و سَبي نسائهم و بناتهم و استرقاق أطفالهم الذكور، كيف تكون مقدَّسة و هي تذكرُ قصص خرافية و أساطير و خزعبلات و تؤكّد على إنَّها حقائق واقعية حصلت بِ أَمْر من الله، و إنَّ الله هو الذي يأمر المؤمنين لِ قتل غير المؤمنين، و هو الذي يُحَلِّل و يُبارك سرقات المؤمنين و جرائمهم. إنَّ تلك الكتب ما هي إلّا تأليف و كتابة البشر. يا ناريك أنا أَحترم إيمانكَ المسيحي! لكن يا صديقي هل من المعقول أنْ يَنزل الله إلى مستوى أنْ يمتحن ابراهيم في إيمانه بِتلك المسرحية التي قرأناها في العهد القديم، وهل يُعقل أن ينزل إلى مستوى أن يَخدعَ اسحق لِ يُعطي البركة إلى يعقوب بَدَلَ أخيه عيسو، و هل يُعْقَل أن يكون

لعَّانا و شتّاما و يروح يشتم أبو لهب و زوجته؟ ترى يا صديقي! إنَّ هذه الأفعال هي غير أخلاقية و منافية لِ الأدب، فَ هل يمكن أنْ يكون الله هو الذي كتبَها أو أوحى بها لِ هؤلاء الذين يَدَّعون النبوَّة؟ و إذا كان الأمر كذلك، أيْ إذا كان الله هو صاحب تلك الكتب، فَ في هذه الحال، و هنا مع كلّ أسفي و اعتذاري لكَ و لِ المؤمنين، يكون ذلك الإله مخادعا، ماكرا، داعرا، عديم الأخلاق، رئيس عصابة ومجرما. و يكفي أنْ تنظر إلى الجَنّة المحمَّدية التي يوعد المؤمنين بها لكي تتأَكّدَ ممّا قلتُه عنه، أو على أقلّ تقدير أنْ تعذرني على الأوصاف التي أطلقتُها عليه، فَجنَّته التي وصفها لِ نبيّه، محمد، هي عبارة عن ماخور وخمّارة ودون سترة،هكذا يحتسون السُّلاف من أنهار الخمر التي تجري هناك، و ينكحون الحوريات واحدة بعد أُخرى تحت أنظار هذا الإله وعلى الملأ، كما يقولون ويُفسِّرون الجُمَل التي تتحدَّث عن حور العين والولدان المخلَّدون".

كان قد صادق راهبا زراديشتيا متنسِّكا في إحدى صوامع العبادة في ضواحي شيراز اسمه سيروش. كان متفقِّها في ديانته وفي طبيعة الثنائية اللاهوتية الفارسية– إله الخير أهورمزدا وإله الشر أهريمان– وكان يُجري مقارنة بين الثنائية المسيحية(الله والشيطان). كان سيروش على دراية عميقة بِ اللاهوت المسيحي، كما كان متبحِّرا في العهد القديم و القرآن. قال لِ ناريك، عندما طلبَ منه أَنْ يرافقه إلى مهد المحمدية في شبه الجزيرة، يجب أَنْ تُغيِّرَ اسمك و تعتمد اسما اسلاميا، أو بدويا. و لمّا كان ناريك على اضطلاع بِ التاريخ الإسلامي و شخصياتها المهمّة، و كان قد صادف أسماء بدوية كثيرة (ذكورا و إناثا) خلال قراءته لِ التاريخ و التراث العربي الإسلامي، و بعد تفكير في معاني الأسماء و دلالاتها الثقافية، قال لِ صديقه: ما رأيكَ في اسم جَقل بن كُرَيْر؟ نظر إليه صديقه، مندهشا من هذا الاسم العربي البدوي الأصيل، مثنيا على اختياره. و الآن، قال سيروش :

–ماذا تريد انْ تعرف عن العقيدة المحمدية، و أَيّ الأماكن تريد زيارتها؟

–يا صديقي سيروش! أنا لا تنقصني معلومات عن العقيدة المحمدية، امّا الأماكن التي لا بُدَّ من التعرُّف إليها، فَ أهمّها هي مكان ولادة نبيّ الإسلام محمد، و زيارة قبره و رؤية بيوت أُمَّهات المؤمنين، زوجات النبي .

–إذا كنتَ، من أجل هذه الأماكن، تريد الدخول إلى بلاد الأعراب البدون، فَ اَنصحكَ بِ العدول عن هذه الفكرة، و أَنْ تُفَكِّرَ في مكان آخر، من أجل زيارة هذه الأماكن، بلد آخر غير هذه البلاد.

كان تأثير كلام سيروش عليه كبيرا و مفاجئا، كَ مَن تلقّى سطلا من الماء البارد على

رأسه بِ شكل مفاجئ. ظَلَّ صامتا مصدوما ممّا سمعه. كيف يقترح هذا الفارسيَّ، الملاصق لِ مكان النبوَّة، عليه بِ أنْ يصرفَ النظر عن زيارة مهد النبوَّة، و أنْ يبحث عن تلك الأماكن في بلد آخر، وهو أَدرى من غيره بِ ما حصلَ هناك في ذلك الزمان، و خاصة أَنَّ من بين أصحاب محمد كان هناك فارسيٌّ متبحِّرٌ في علوم الغَيْبِ و العقائد و الأديان ال ما قبلَ الديانة التي ساهم هو شخصيا في نجاحها و تَسَيُّدها. أَ لَمْ يكن سيروش على علْمٍ بِ ذلك؟

أَلْقى هذا المونولوج على مسامع صديقه، و كان الردُّ، في هذه المَرَّة، واضحا قاطعا، إذْ قال:" يا ناريك، يا صديقي العزيز! لو كان حصلَ أمرا عظيما كَ الذي نتحدّثُ عنه، لَ كان المجوس قد عَلِموا به، و لَ فعلوا مثلما فعلوا مع إشارة ميلاد المسيح في بيت لحم و قاموا بِ زيارة المولود هناك. لم تظهر أَيَّة إشارة غريبة، أو ملفتة، في سماء تلك الصحراء تجعل المجوس يتبعونها إلى هناك. أَمّا سلمان الفارسي الذي جئتَ على ذكره، فَ لا توجد معلومات، أو وثائق، أو أدلّة حسّية و مادية، في تاريخنا، متاحفنا، مكتباتنا، أديرتنا وبيوت النار المقدَّسة، تُثْبتُ القصص التي تُحكى عن شخصية فارسية كان حارس بيت النار و اعتنق المسيحية ثمَّ صاحبَ نبيَّ الإسلام و ساعده في كتابة، أو بِ الأحرى، في نَقْلِ قصص و أساطير وحِكَم و أمثال، من العهد القديم و الأفيستا و تجميعها في كتاب أَطلقوا عليه اسم القرآن المأخوذ من السريانية "قريانا" والذي يعني كتاب الصلوات، كتاب اللوترجيات المسيحية.

كان ناريك يعرف التفاصيل المتعلِّقة بِ محتوى القرآن التي أتى على ذكرها صديقه سيروش، لكن، بِ خصوص الأماكن و بِ خصوص سلمان، فَ هذه المعلومات كانت جديدة بِ النسبة له، بل، صادمة. لذا توجَّه إليه متسائلا.

– إذن! ما النصيحة التي أنتظرها منك يا صديقي؟ هل خاب ظنّي وفَقَدتُ الأمل في العثور على الأماكن التي أبحثُ عنها، و هل شخصية سلمان الفارسي وهمية، لا وجود لها في الحقيقة، أم إنَّه ربَّما يكون شخصا حقيقيّا أَخذَ من الأفيستا و إنجيل النصارى و نقلها إلى الكتاب الذي سُمّي بِ القريانا (القرآن)؟

كان بوبي شاهدا على الحوار الذي يدور بينهما، و كان يستمع بِ انتباه و ينظرُ إلى سيروش بِ فضول، و كَ أَنَّه يعرفه، أو أَنَّه رأآه في زمان و مكان قبل الآن. فَ تدخَّل في الحوار، لكن في منحى آخر، إذْ توجَّه إلى سيروش بِ الكلام:

– يا عزيزي سيروش! أعتقد بِ أنَّنا تقابلنا في مكان خارج الزمن، رأيتُكَ بِ رفقة فارس فوق ظهر حيوان ذي جناحين كان يشبه الثور المجنَّح. التفتَ إلى ناريك لِ يُذكِّره

قائلا: أَ لم يَتحدَّث لنا بيرسيوس عن صعود النبي زراديشت، من ضمن هؤلاء الذين صعدوا، إلى السماء السابعة؟ هَزَّ ناريك رأسه موافقا على ما قاله بوبي.

–صَدَقتَ يا بوبي! وفي طريق العودة إلى الأرض، قال لي زراديشت بِ أَنَّ الله أعطاه الكتاب المقدَّس – الأفيستا – الذي كتبه بِ خَطِّ يَده و قال له:" اذهب إلى قومكَ يا زارا و اقرأ عليهم آيات هذا الكتاب و اطلب منهم الالتزام بها و تطبيقها في حياتهم لِ ينالوا البرَكة و الجنّة. سَ أرسل أنبياء آخرين غيرك إلى أَقوامهم مزَوَّدين بِ كُتُب من عندي، و إذا رأيتُ بِ أَنَّ شعوبكم لم تلتزم بِ تعاليمي و يرتكبون المعاصي و الخطايا، فَ سَ أَنزلُ أَنا إلى الأرض لكي أُعَلِّمكم حياة الزهد و التواضع و لِ أَضربُ المثل في الخير و المحبَّة والتسامح و الأخلاق الحميدة و سَ يكون ذلك نهاية إرسالي لِ الأنبياء، أيْ لن أُرسل أنبياء بعد نزولي و صعودي من و إلى السماء ."

– و ماذا عن الأنبياء الذين أتوا بعد نزول الله و صعوده، كما جاء في الأناجيل المسيحية و الوثائق الرومانية؟ هل هم مدَّعو النبوَّة، أو كما يُقال عنهم، أنبياء كَذَبَة؟

–هذه المسألة لا تهمُّنا يا ناريك! فَ زارا قال ما سمعَه من الله(الكلام الذي قُلتُه لكَ). أَمّا أَنَّهم كَذَبَة، أو أَنَّهم أنبياء و رُسُل الشيطان، فَ هذه المسالة، أيضا، لا تَهمّنا لأَنَّنا لن نتبعَ غير الزردشتية و لن نرضى غيرها دينا لنا، و يمكنكم أَنْ تعرفوا ما إذا كانوا كَذّبة ومُرْسَلين من عند الشيطان، من خلال أعمالهم وتعاليمهم وثمارهم. أنصحكَ يا ناريك بِ تَتَبُّع مسار بلاد الشام و الساحل الشامي لِ الحصول على معلومات، أو، إشارات و رموز قد تكشف جوانب مهمّة من هذه المسألة. ابحث عن إنجيل النصارى، اليهود النصارى، وابحث عن اليهود الهاجريين الذين انحدروا من نَسْلِ ابراهيم و هاجر، كتابهم، موطنهم و زعمائهم!

عَلَّقَ حقيبته، بعد أنْ وضعَ الأفيستا فيها، على ظهره و أشار إلى بوبي بِ التحرُّك. ودَّعا سيروش و انطلقا في رحلتهما المثيرة و المحفوفة بِ المخاطر .

-17-

تَبَيَّنَ من إحدى رسائله المحفوظة لدى الخال برصومو، بِ أَنَّه كان قد اتَّجه، مع بوبي، نحو الجنوب، إلى موطن محمد وصحابته الأوائل. كان قد ذهب إلى مكّة لِ البحث عن البيت الذي ولِدَ فيه و عن أَحفاد الذين عاصروه، سواء من هؤلاء الذين رفضوا دعوته إلى الدين الجديد، أو الذين ناصروه و تَبعوه و أَيَّدوا دعوته. بعد سبعة عشر شهرا من دخولي إلى بلاد البدون، يقول ناريك، حيث كنتُ أَتجَوَّلُ في تخوم بَلْدة تَضجُّ بِ الحركة، تخرجُ منها قوافل الجِمال و الخيول مُحَمَّلة بِ البضائع فوق ظهورها، و تدخلُ إليها قوافل مماثلة. كانت البلدة تَمورُ بِ الحركة و الحيوية. كنتُ أَلتقي بِ الرعيان مع مواشيهم التي ترعى الأعشاب والنباتات البرية، تتسلَّقُ،أو تتعربَش، الأشجار والشجيرات الصحراوية ذات الأوراق الإبرية. كانت المراعي بِ معظمها فقيرة و تعاني من الجفاف المبكر. كنتُ أرى القوافل تدخل البلدة من الشرق و الجنوب والشمال، وتخرج منها إلى الاتجاهات ذاتها. هذه الاتجاهات تشير إلى أَنَّ البلدة كانت ملتقى القوافل التجارية بينها وبين بلاد الهند و السند و فارس و بلاد الشام. هذا الاختلاط المتنوّع بين تلك الشعوب المختلفة في الثقافات والعقائد والأديان، جَعَلَت من هذه البلدة مركزا ثقافيا أُمميّا تحتضن فلسفات الشرق، غيبيّاته، سحره، أشعاره وعقائده الدينية. مَرَرْتُ بِعدَّة قطعان من البعير في تخوم مكّة، كنتُ أَتبادل أطراف الحديث مع رعيان تلك القطعان و كنتُ أَتحاشى التطرُّقَ لِ العقائد الدينية و بِ خاصة العقيدة المحمدية. كانت معظم المواضيع تدور حول المراعي، الينابيع، الأنهار، النخيل و الأعشاب و الأشجار المثمرة، و في كثير من الأحيان كان الحديث يأخذ منحى أدبيا، لِ جهة الشعر، و كنتُ مُعجبا بِ هؤلاء الذين كانوا يقرأون، أو بِ الأحرى، يلقون الشعر عن ظهر قلب. و ذات يوم، و حين اقتربتُ من خيمة راعٍ في تخوم مكة، دعاني لِ الجلوس تحت بيت الشَّعْر (الخيمة). قَدَّمَ لي الماء وطلبَ منّي أَن أرتاح. كنتُ قد حصلتُ على شماغ بدوي لِحماية عيوني وجهاز التنفس و أذنيّ من الرمال الناعمة، بل من الذرّات الدقيقة، المتطايرة في الهواء جَرّاء الدوّامات المرافقة لِ الزوابع المنتشرة في هذه الصحارى. في الأثناء، ركضَ أَحد الكلاب المرافقة لِ القطيع بِاتجاه بوبي و هو ينبح نباح الاستفسار، كما قال لي بوبي فيما بعد، و راح يدور حوله لِ التعرُّف عليه و معرفة ما إذا كان صديقا أو عدوّا. في

الأثناء صاح عليه صاحبه زاجرا إيّاه، وفي الحال هدأ و راح يوأوِيءُ بِ صوت خافت. بينما بوبي تقدَّمَ إليه و شَرَعَ في شمشمته و ملامسته بِ رأسه و جسده إلى أنْ صارا يقفزان سويّا حول الخيمة و ملامح السعادة واضحة عليهما. بعد نصف ساعة تقريبا، قَدَّم لي حليب الإبل مع شرح لِ فوائده و مساعدته لِ الشفاء من مختلف الأمراض، و عادة تقديم حليب الإبل لِلضيوف والعابرين هي مدعاة لِ الفخر عند أبناء شبه الجزيرة، و يُعَدُّ من العادات النبيلة. ويُعرفُ تقديم حليب الإبل، عند أهل البادية، لِ ضيوفهم بِ أسماء حسب وقت تقديمه، فَ حين يُقَدَّمُ في وقت الصباح يُسمّى "صبوحا" و في وقت المساء يشمّى"غبوقا". ألقَيْتُ عليه بعضا من أشعار امرئ القيس، وتَقَصَّدْتُ انتقاء هذه الأبيات المشبْعة بِ الروائح العطرة والصوَر المتحرّكة الناطقة بِ روح العشق. أَمّا هو، فَ أَثنى على الأبيات التي أَلْقَيْتُها عليه و راح يسرح في خيالات العشق و الهوى.

دنت الساعةُ وانشقَّ القمر عن غزالٍ صاد قلبي ونفر

أحور قد حربتُ في أوصافه ناعس الطرف بعينيه حَوَر

مرَّ يوم العيد في زينته فرماني فتعاطى فعقر

بسهامٍ من لِحاظٍ فاتكِ فتَرَكْني كهشيمِ المُحتظِر

وإذا ما غاب عني ساعةً كانت الساعةُ أدهى وأمرّ

كُتب الحسنُ على وجنته بسَحيق المِسْك سطراً مُختصَر

عادةُ الأقمارِ تسري في الدجى فرأيتُ الليلَ يسري بالقمر

بالضحى والليلِ من طُرَّته فَرْقه ذا النور كم شيء زَهَر

قلتُ إذ شقَّ العِذارُ خدَّه دنت الساعةُ وانشقَّ القمر

أقبل والعشاقُ من خلفه كأنهم من كل حدبٍ يَنْسلون

وجاء يوم العيد في زينته لمثل ذا فليعملِ العاملون

....

كان واضحا حبّه لِ الشعر و التأمُّل و السكينة، حتّى إنَّه أَعاد تلاوة الأبيات بطيئا كَ مَن يستذكر مشابهات لها في ذهنه. كان شيخا في العقد السابع من عمره. بشرته

سمراء تميل إلى السَواد الباهت، ذا لحية بيضاء يخطّها بضع شعرات سوداء أَضْفَت جمالا بدويا عليه مع حاجبيه الكَثَّيْن اللذين يشكِّلان قوسيْن تتدلّى منهما نهايات شعيرات بيضاء، سوداء و شقراء تتشابك، بعض الأحيان، مع رموشه السوداء فوق عيون تَعِبة ثاقبة في نظرتها العميقة لِ الأشياء. أَبقاني لديه سبعة أَيّام من غير سؤال عن اسمي و عنواني و مأآلي من هذه الرحلة. لكنَّني كنتُ قد عَرَّفْتُ نفسي في اليوم الأوَّل بِ اسم جَقَّل بن كُرَيْر. كان يقدّمُ لي ممّا يأتيه من الطعام من لدن أهله في التخوم المجاورة لِ هذه المراعي. كان قد أَعطاني أَغطية لِ الاتّقاء من برودة مساءات الصحراء. وخلال هذه الأيام كُنّا قد تعرَّفنا على أرواح بعضنا وعلى طُرُق تفكيرنا وعلى كيفية قيام منظومات أدمغتنا في تحليل مفردات الحياة. ذهبنا بعيدا في رِحاب الشعر و الأدب في شبه الجزيرة، و تطرَّقنا إلى مسألة نَعْتِ هذا المجتمع بِ الجاهلية، بِ الرغم من أَنَّه أنجب سادة، بل، أمراء الشعر والبلاغة، والذي كان يُضاهي الحضارات العريقة من حيث امتلاكها لِمنظومتها الخاصة من الآلهة ومجموعة القيم الأخلاقية والتصوّرات الماورائية الخاصة بها، والتي كانت المؤشّر الحضاري، وقتذاك، بين الأمم والحضارات العريقة في العلوم والآداب والماورائيات، لقد تَمَّ وَصْف هذا المجتمع المتقدّم بِالجاهلية. كان مُعْجَبا بِ آرائي وثقافتي الواسعة، وخاصة ما يتعلَّق بِالمعتقدات الغيبية و الأديان الشرقية و بِ شكل خاص الأديان الإبراهيمية الثلاثة (اليهودية، المسيحية و الإسلام). و عَرفَ بِ ما أَمتلكه من مخزون و معرفة بِ الديانات الثلاث، و أَيقنَ بِ أَنَّني مُلِمٌّ بِ الإسلام و القرآن، و إنَّني مضطلع وعارف و حافظ لِ كثير من الجُمَلِ منه، و هنا انتابني شَكّ في احتمال اكتشافه لِسَبَبِ اختياري تلك الأبيات التي أَلقيتها عليه من شعر امرئ القيس، و خاصة إنَّه رَدَّدها من بعد انتهائي من إلقائها. ربَّما يعرف الأبيات التي دخَلَت في سوَر القرآن كَ آيات من عند الله، لو صَحَّ ذلك، فسأكون في موقف صَعب. لكن لماذا سَ أكون في موقف صعب، و لماذا أُحَمِّل نفسي وزْرَ خطيئة لم أَرتكبها، لكن أين هي الخطيئة أو الجرْم؟ فكل ما هنالك إنَّه وجِدت آيات في القرآن هي نفسها أبيات لِ امرئ القيس، فَ أين هي المشكلة، أو أين هو الجرْم أو الخطأ في ذلك؟ المشكلة في هذه المسألة، هي في أَنَّ المسلمين يُرَدِّدون نفس الكلام الذي تناقله قدماءهم منذ مئات السنين و الذي مفاده: إنَّ القرآن كان مكتوبا بِ اللغة العربية منذ الأزل، و اَنَّ الله هو نفسه الذي كتبه و تركه لديه هناك في اللوح المحفوظ، و إنَّه لم يتعرَّض لِ أَيِّ إضافة، أو نقصان، أو تغيير في الكلمات والجُمَل، وإنَّه كُتِبَ بِ لغة عربية خالية من الكلمات الأعجمية. واضحة ومفهومة لا تحتاج لِلتكهّنات و التفاسير و الشرح من عندياتهم.

في نهار اليوم الثامن من وجودي تحت بيت الشّعر، و بعد الإفطار و صعود الشمس إلى ربع القوس من السماء، بادرتُ بِ الحديث إليه :

–يا عَمّي فَزّاع! – هذا كان اسمه فَزّاع بن حنيش– أَرجو المعذرة على بعض الأسئلة التي تدور في رأسي و التي أُريد طَرْحها عليك، و هي تتعلقُ بِ مسائل اجتماعية، تاريخية، ثقافية و عقائدية لعلّي أَحصل على إجابات تُهَدِّءُ من اضطرابات تفكيري و تَضعُ حَدّا لِ شكوكي و آرائي الخاصة حول تلك المواضيع .

–ما الذي يُشْغِلُ بالك و تفكيرك يا جَفَلْ؟ اسأل عَمّا يَخطرُ لكَ على بال من المسائل المقلقة، الشائكة، المُحَيّرة و المُلتبسة! لا تخَفْ من أَيّ شيء و لا من أَيّ إنسان، فَ أنا أَتوقَّع أن تخوض في العقائد، في الأديان و منها الدين الإسلامي، و أعتقد بِ أَنَّكَ ترغبُ في اقتحام الخطوط الحُمْر المرسومة لكلّ العقائد والأديان. إنَّكَ رأيتني و عشتَ معي الأيام السبعة التي مَضَتْ، وعرفتَ الشيء الكثير عنّي، وعرفتَ بِ أَنَّني انعزلتُ عن أَهلِ مكّة و عن الناس. آثَرْتُ التعامل مع الحيوانات، مع الطبيعة. التواصل مع النجوم و الأفلاك، فَ أنا أجد الراحة هنا تحت هذه الخيمة، و هذه الكهوف المحفورة في التلال المحيطة بي والتي تحتضن هذه الأشجار والأجمات والنباتات على سفوحها، وقليل منها على قممها. إنَّها العناصر الباعثة لِ الأمان والراحة و السلام و الاطمئنان.

– تماما هذا هو الانطباع الذي تولَّدَ لديَّ في اليوم الأوّل حين التقيتُ بكَ. و بِ مرور الأيّام صار ذلك الانطباع حقيقة. يا عَمّي فَزّاع! أَنا واثق من أَنَّكَ اكتشفتَ، منذ الساعات الأولى من اليوم الأوّل، بِ أَنَّني قد انتحلتُ هذا الاسم الذي تقدَّمتُ به إليكَ، و لأنّكَ بِ هذه الصفات النبيلة، فَ لم تحرجني و تكشفَ أمري. لكن أَرى لِزاما عليَّ بِ الاعتذار لكَ عن حيلتي، التي أَجدُها الآن سخيفة، و أرجو المعذرة يا عمّي العزيز .

– لا عليك يا بُنَيّ! أَنا أُقَدِّرُ الموقف و حيثيات المكان الذي أنتَ فيه الآن. و بِإمكانكَ التصرُّفَ بِ شكلٍ طبيعي جدّا، و بِ راحة نفس و ضمير مرتاح، و كأنَّ شيئا لم يكنْ، و كَ أَنَّكَ في بيتك مع أَبيكَ.

– أنتَ الآن عرِفتَ توجُّهاتي العامّة في الحياة، و عرِفتَ، أيضا، المخزون الثقافي الذي أتمتَّع به، والأهمّ من كل ذلك،إنَّكَ لمَستَ منحنيات عواطفي، أَحاسيسي و مواقفي من القضايا الإنسانية. و لذلك أَتمنّى عليك أَنْ تُوَضِّحَ لي مسألة في غاية الخطورة، أو بِ الأحرى، في غاية البشاعة والوحشية والتي لا أُصدِّقها مهما كلَّفني ذلك من متاعب، أو مخاطر على حياتي، أَلا و هي مسألة وأد البنات، قتل المولود الأُنثى، في مجتمعكم

(شبه الجزيرة العربية) قبل البعثة المحمدية، أيْ في الجاهلية. مجتمعكم الجاهل، قبل الإسلام، كنتم كُفّارا، متوحشون تقتلون المولود الأنثى، و تعبدون الأوثان، الأصنام من غير الله. يا عمّي العزيز! هل، فعلا، كان أَجدادكم يقتلون المولود الأنثى؟!

لبثَ ساكتا لِ لحظات و هو ينبش الرمل بِ عصاه البنيّة ذات العُقَد الإهليليجية، رفع راسه و راح ينظر إلى السماء، إلى الكهوف المحفورة في سفوح التلال، إلى الأشجار، إلى الإبل و الأغنام، إلى كلبه و إلى بوبي، ثمَّ نظر إليَّ بِ عيون منكسرة تلمع الدموع فيها متشبّثة بِ الجفون، تغسلّ البؤبؤ و أرجاء عينيه دون سقوطها إلى الخارج. حينها أَخذَ نفسا، بل، شهقة عميقة و قال :

– لقد تَمَّ تشويه و شيطنة مجتمعنا المسالم المتقدِّم، مجتمعنا الذي كان متسامحا مع المخالفين لِ ثقافتنا ومعتقداتنا و أديانناً. لقد تَمَّ ذلك على يد الغزاة الهمج قطّاع الطرق، هؤلاء الصعاليك القَتَلة و اللصوص الخارجين على القانون والأعراف المجتمعية. و بعد انتصارهم على المجتمع المكّي، راحوا يُدَمِّرون المعابد و الهياكل و الأديرة و صوامع النسّاك، و يدعون إلى دينٍ جديد مُغاير لِ الدين الذي كان سائدا و مسالما في الوقت نفسه. و لكي يُظْهروا دينهم على الأديان الأُخرى، راحوا يُشيعون الدعايات الكاذبة و يُلَفِّقون التُهَمَ بِ سادة القوم آنذاك و ينعتونهم بِ الكُفّار أعداء الله و أعداء الدين الجديد (الإسلام)، و بِ التوازي مع ذلك، أَشاعوا بين أَتباعهم و عصاباتهم بِ أَنَّ المكّيين، و كلّ محتمع شبه الجزيرة كانوا يقتلون مواليدهم من الإناث، و اخترعوا مصطلح– وأد البنات– و عملوا السيف في رِقاب الذين رفضوا ادّعاء محمد النبوّة و رفضوا الاعتراف به كَ نبي، ورفضوا الإيمان بدعوته و بِ الدين الجديد، لم يرحموا لا الشيوخ ولا النساء و لا الأطفال و لا الزرع و الضرع إلى أَنْ بسطوا سيطرتهم على الجزيرة كلِّها. و يكفي لِ فَضْحِ أَكاذيبهم حول هذا الموضوع بِ الذات(وأد البنات) أَنْ يُطرَح السؤال البسيط: إذا كان أَسلافنا يقتلون الإناث من المواليد، فَمن أين جاء هؤلاء الغزاة، من أَيّ الكائنات ولِدوا؟ هل خرجوا من أرحام النساء، أم من أَرحام البهائم؟ إنَّها كذبة شنيعة بِ حَقِّ أسلافنا، بل، بِ حَقِّ الإنسانية. كيف لِ هؤلاء القتلة أتباع الشيطان أَنْ يُلْقوا هكذا تهمة بشعة على مجتمع سابق على الدين الإسلامي، وهم أَنفسهم وآباءهم قد ولِدوا من أرحام النساء؟ أسلافنا كانت لديهم آلهة إناث، فَ هل يُعْقَل أَنْ يَقومَ ذلك الإنسان الذي يَعبدُ آلهة إناث كَ (اللاة و العزّة و مناة) بِ قَتْلِ المولود الأنثى التي هي على شكل و هيئة آلهتهم؟ إنَّه اتّهام باطل اخترعه هؤلاء الذين ارتكبوا أَبشعَ المجازر بِ حَقِّ أسلافنا، و ذلك لِ تشويه أَخلاقهم و قِيَمهم و بِ التالي معتقداتهم الدينية. إنَّها كذبة من اختراع الشيطان نفسه، إنَّها كذبة يا ولِدي، كذبة شنيعة يا ولِدي! قالها بِ اللهجة البدوية. كان

يُرَدِّدُها بِ حزن عميق، و ظَلّ نظره مُثبتا على الكهوف وما فوقها، و صار يفرك كفَّيه و يُمسد لحيته البيضاء و هو يُرَدِّدُ الجملة الأخيرة بِ صوت خافت و بِ بطء موزون. كانت إجابته شهادة مؤيِّدة لِ ما كنتُ أعتقد بهذا الخصوص. أَنا أيضا لم أُصدِّق تلك الأكاذيب والترّهات على مجتمع فيها بانثيون آلهة متكاملة، و أكثر من ذلك، فيها آلهة إناث كَ البانثيون السومري، البابلي، الفينيقي، القبطي واليوناني، فَ لماذا لم يَتَّهم أَحد أَبناء تلك المجتمعات أَسلافه بِهذه التهمة الشيطانية؟ هناك قصص وخرافات على تقديم فتيات قرابين لِوحشٍ ما، أو لِقوّة طبيعية معيّنة وذلك لِاتقاء شرورها على المجتمع، أو المملكة. لكنَّها تبقى أساطير خرافية لا أكثر. طلبَ منّي مرافقته إلى التلال المحيطة. أَخذني إلى سَفْحِ تَلَّة حيث توجد عدّة كهوف و أَشجار مورقة. جلسنا عند مدخل أَحد الكهوف حيث الفيء يُخَيّمُ علينا و يَقينا من حرارة الشمس الحارقة. كان بوبي بِرفْقة كلبه، كانا يستكشفان الأجمات و الكهوف المجاورة. هنا أَفْصَحتُ له عن اسمي و تفاصيل رحلتي التي بدأتْ من القامشلي إلى نصيبين، ومن ثمَّ بِ اتجاه القصر الوردي مرورا من تدمرتو، حيث انحرفتُ قليلا بِ اتجاه الشرق وأنا أسير جنوبا إلى أنْ وصلتُ إلى هنا. و حَكَيْتُ له عن رحلتي الخيالية إلى السماوات و لقائي بِ البطل الإغريقي بيرسيوس الذي خَلَّص شعبه من شرور الغورغونا –ميدوزا– ذات العين الواحدة حيث قطع رأسها وحمله معه إلى السماوات في حقيبة معزولة تماما، ممتطيا صهوة الحصان المجنَّح (بيجاسوس). هَزَّ رأسه، كَ مَن أَخذَ علْما بِالموضوع، و كَأَنَّه كان يتابع رحلتي ويعرفُ مجريات الأحداث التي حصلَتْ معي، وإنَّه تَأَكَّد الآن مِمّا كان يراه في مُخَيّلته. ظَلَّ صامتا وهو يرى إلى البعيد، خَلْفَ المراعي وخلف قطعان البعير و الأغنام، ينظرُ إلى البعيد و كَ أَنَّه يبحثُ عن شيء ما، كائن سماوي، إشارة لا يراها سواه. كان غائبا في عالم لا مرئي، يتواصل مع كائنات غير مرئية بِعيونه و أَنفاسه. بعد بعض الوقت من الصمت الذي ساد بيننا، قلتُ له :

– يا عمّي العزيز! أَنا أيضا لم أُصدِّق هذه الأكاذيب الدنيئة، المُغْرِضة بِ حَقِّ مجتمعكم، الما قبل الإسلام، الحيوي المزدهر الذي كان ملتقىً لِ قوافل التجار، من الشرق و الغرب، القوافل التي كانت ترتاح، ذهابا و إيابا، في هذه الأرض و هذا البلد الذي كان يُقَدِّم لهم كلّ أسباب الراحة و الأمن و الأمان و المتعة. ثمَّ أَنَّ مجتمعكم كان يذخر بِ الحِوارات و البدَع اللاهوتية، و محاولات تأسيس أديان غير الدين الرسمي لِ البلاد، و منهم رحمن اليمامة و وَرَقة بن نوفل. فَ كيف لِ هذا المجتمع المنفتح على الآخر أَنْ يكون بِ تلكَ الوحشية و الهمجية التي لفَّقها محمد بن آمنة، وهنا مسألة تدعو لِ الاستغراب و التساؤل، و هي لماذا لم تُوأد آمنة عند ولادتها، أَ ليست أُنثى، أَ لَم تَكن

في نفس الزمن الجاهلي الذي، حَسَبَ ادّعاء زعيم هؤلاء الصعاليك الجياع، كان فيه يتمُّ وأد الإناث أَثناء الولادة؟

– أَحسَنت يا ولِدي، يا ناريك! و أكثر من هذا، لو كان صاحب هذه الكذبة (التهمة البشعة) إنسانا طبيعيا من ناحية العقل و الضمير، لَ كان سألَ نفسه عن أُمِّه و عن جَدَّته و جَدَّة جَدَّته، لماذا لم يُقْتَلْنَ أَثناء الولادة، لماذا لم يتم وأدهنَّ علما بِ أَنَّهنَّ كُنَّ في نفس الزمن و نفس المجتمع الجاهلي؟ إنَّ مجتمعنا لا علاقة له بِ هؤلاء شُذّاذ الأفاق، اللصوص القَتَلة، قطّاع الطرق. هؤلاء الذين تَمَّ تجنيدهم لِ تدمير صروح و معابد الأديان التي كانت في الحجاز و بلاد الشام، و فَرْض هرطقة اليهود النصارى بِ حَدِّ السيف. مجتمعنا لم يعرف أَحدا، ادَّعى النبوَّة وادَّعى بِأَنَّه رسول الله وحبيبه، و إنَّ الله كان يُرسلُ إليه أَحكاما، حدودا، أوامر وحلولا لِمشاكله ومآربه المادية والجنسية. لقد لَفظَ حرف أل (E)من اسمي ياءا، هكذا (NARIG) بَدَل(NAREG) ، و كان نطْقه لِ اسمي مُحَبَّبا إليَّ .

– يا عمّي فزّاع! أَرجو أَنْ تَدلّني إلى بيت النبوَّة، حيث ولِدَ النبي، و إلى غار حرّاء الذي كان النبي يختلي فيه، و إلى بيت خديجة، و أخيرا، إلى قبره حيث دُفِنَ فيه.

عند سماعه هذه الطلبات، بل، هذه الأمنيات، راح يُحَرِّكُ عصاه، ينكشُ التراب و يُبرطم كلاما، بِ الكاد يُسمَعُ، غير مفهوم و كان يبدو غائبا عن المكان ومنفصلا عن الزمان، وهكذا، شَرَعَ في رحلة خارج الزمكان تاركا جسده رهينة عند الكهف ريثما يعود ويلبسه ثانية. لا أعلم كم من الوقت استغرق العَم فزّاع صامتا، ساكتا. لكنَّه كان، خلال تلك البرهة الفلكية، يَتكلَّمُ بِلغة السماء، حيث كانت الكلمات والنبرات ترتسم على وجهه والأصوات تَشعُّ من عيونه. في الأثناء سمعتُه يقول بِ بطءٍ، كَ مَنْ يَتحدَّثُ مع كائنات سماوية، غير مرئية :"أَ رأَيتَ يا سَيّدَ الكون، يا واهب الحياة و الهواء، يا خالق الشمس و القمر و الأفلاك كلّها، أَ رأَيتَ كيف انزلق الشيطان من تحت بَصَرِكَ، في غفلة من رفيف جفونكَ، إلى الأرض و صارَ يُفْسدُ الحياة، بل، يُسَمِّمها و يُلوِّثُ الهواء؟! هل سَ تَدَعه حُرّا طليقا يعبثُ بِالحياة مستخدما اسمك وشِعاركَ؟ لقد يئسَ الإنسان من الوصول إلى الخلاص من هذا الشرّ المطلق. إنَّ الشَرَّ صارَ يفتكُ في عناصر الطبيعة كلِّها إلى درجة خطيرة جدّا، وصارت الطبيعة تُخطِّطُ فعليا للتخلُّص من هذا الشرِّ المطلق، و راحتْ تستكشف تخوم الكواكب و أَشكال الحياة و أَجناس الكائنات الحيَّة. لقد رأيتُ من هنا، من هذا المكان الذي، فيه، أَرعي الإبل و المواشي، ظواهر و كائنات غريبة تنتقل إلى السماوات، رأيتُكَ تَتقَدَّمُ جحافل القَتَلَة و تَفتكُ، معهم، في الحياة. أَخبرني أَحدُ

المنتقلين إلى السماء، إنَّ التَغَيُّرَ قادم، و إنَّ الطبيعة منهمكة في تغيير شروطها لِ الحياة. تُخَطِّط ل دورة فلكية من دونكَ، لِ أَنَّكَ فشلتَ في قيادة الحياة بِ شكل عادل، لطيف، دون شَرّ و قتل. إنَّكَ أَخذتَ فرصتك و فَشلتَ في تقديم النموذج المثالي".
نظرَ في عيوني منكسرا و قال :

–أَنتَ في المكان الخطأ يا بُنَي! فَ كلُّ المسائل التي تسألُ عنها، إنَّما هي أَكاذيب و أَوهام. لم يولَد في هذه البلاد شخص ادَّعى بِأَنَّه رسولٌ من عند الله، ولم يكن في هذه البلاد أشخاص أَشباح، خياليين رافقوا الرسول المزعوم.
في هذا المكان تَمَّ اختراع وفبركة أَشخاص و رموز مقدَّسة. من هنا، من هذا المكان تَمَّ استيلاد الأكاذيب التي تَضَخَّمت و تسرطنت حين تناقلت بِالتواتر مِن فَم لِ فَم، إلى أن تحوَّلت إلى أساطير وخرافات وأُحيطت، وأيضا بِالتواتر، بِ هالات مقدَّسة، و بِ التالي أَصبحت من التابوهات يُمنعُ المساس بها، ويُقْتَلُ مَن ينكر صحَّتها، أو حتى ينتقدها.
عليك البحث عنهم في مكان آخر يا ناريك. اصعد إلى الشمال، إلى بلاد الشام لعَلَّكَ تعثر على إشارات تُفيدكَ في مسعاك! و قبل أَنْ يضعني على الطريق، حَمَّلَني رسالة شفهيّة إلى كاهن اسمه ياماإيل يتعَبَّد في أَحد كهوف أَذرعات. طلبَ منّي أَنْ أبلِّغه سلاماته إنْ كان لا يزال على قَيْدِ الحياة. هذه كانت كلماته الأخيرة التي سمعتها منه، بِخصوص إله الصحراء ورسوله وكتابه، عند الكهف. والجملة التي سيطرت عليَّ كانت: "أَنتَ في المكان الخطأ"

صارت هذه الجملة الراية التي لا تغيب عن ذهني و ناظري.

نسيَ ناريك أَنْ يسألَ العَم فَزّاع عن جهة الشمال، و كيف يمكن الاستدلال إليها. إنَّه سَ ينطلق من مكّة إلى بلاد الشام. كان يعرف موقع مكّة بِ النسبة إلى الشام. يعرف بِ أَنَّها تقع أَسفل الشام، جنوبها، و تقعُ أَسفلَ يَثرب أيضا. كان قد قَرَّرَ القيام بِ زيارة يَثرب و التعرّف على مضارب قبائل اليهود، و خاصة يهود بَني قُرَيْظة، لكنَّه لم يكن يعرف كيف يختار الجهةَ التي سَ تأخذه إلى الشمال. راح يُفكِّرُ في المسألة و يَستعيد ذكرياته حين كانوا يلعبون في الحارة، كيف كانوا ينظرون إلى الشمس و هو ينزلق خلف الأفق، و تذكَّرَ حينئذ أَنَّ نصيبين كانت تقع إلى يمينه حين كان ينظر بِ اتجاه الغروب، أَيْ أَنَّ نصيبين كانت تقعُ إلى الشمال من القامشلي. و تَذكَّرَ أيضا أنَّ أحد فتيان الحارة حدَّثهم عن زيارته لِ صديقه في طرطوس، عندما كانا يسبحان في البحر، و عندما كانا ينظران إلى الغروب، إلى جمال الألوان و التشكيلات السريالية الرائعة التي كانت ترتسم عند الأُفق، كان صديقه يقول له:" يا صديقي! في بعض الليالي، عندما تكون السماء صافية، يمكن رؤية اللاذقية من هنا، أَقصد أَضواء اللاذقية. في ليالٍ كثيرة كُنّا نَتَفَرَّج على الأضواء التي كانت تتلألأ على يميننا". فَكَّرَ في الحالتين و استنتجَ منهما بِ أَنَّ الشمال يَقعُ، دائما أو غالبا، إلى يمين الناظر لِ غروب الشمس، و بناءا على ذلك شَدَّ الرحال شمالا.

كان ناريك يعتمد في تَأريخ رسائله على ظواهر الطبيعة و دورة الأفلاك و النجوم. أَمّا الأهالي، و خاصة هؤلاء الذين كانوا يقرأون رسائله و يتداولونها فيما بينهم، لم يعرفوا كيفية تفسير الرمز (التأريخ) الذي كان يَضعه في أَسفل رسالته. فَ كان يُذَيِّلُ رسائله المبكّرة هكذا:" كَتَبتُها في المَطْرَةِ العاشرة من خروجي". أَمّا الرسائل المتأخرة، فَ كان يُذَيّلها كَ التالي:" انتهيت من كتابتها في الاغتسال الأربعمئة و ثمانين لِ القمر". كانوا محتارين في تفسير التاريخ الذي يُدوّنه على رسائله. حاولوا كثيرا البحث في مقاصده من هذه التواريخ التي اخترعها، و تَطلَّبَ ذلك منهم أَنْ يعودوا إلى رؤيته اللاهوتية و الفلسفية ل الطبيعة و ظواهرها الفلكية. و أَخيرا توافقوا على اعتبار مصطلح (المَطْرَة) سنة شمسية، و عليه يكون التاريخ المقصود من (المطرة العاشرة) هو السنة العاشرة. اَمّا مصطلح اغتسال القمر، فَ توافقوا على اعتباره شهرا قمريا، وفقا لِ الدورة القمرية التي تستغرق شهرا كاملا من اغتسالها بعد الطمث- اختفائها من السماء- إلى ظهورها النقي، النظيف، الجميل و الطاهر. و بناءا عليه يكون، الاغتسال الأربعمئة و ثمانين

لِ القمر، يعني في السنة الأربعين. أَمضى زمنا بِ مقدار ثلاث مطْرات في يثرب، و هو يبحث عن آثار و معالم أَحداث دموية حَصَلَتْ فيها. كان قد استفهم من العَم فَزّاع عنها، وخاصة عن مذبحة بني قُرَيْظة. كان جواب العَم:"إنَّ شعب الحِجاز الأوائل، في زمن اللاة و العزّى و مناة و دوشر، لم يغزوا قبائل أُخرى و لم يرتكبوا مجازر بِ حَقّ أَيَّة قبيلة لا يهودية و لا مسيحية و لا عربية. كانت الحجاز مزدهرة، على قَدّ حالها، كانت بلاد مسالمة، مركزا لِ قوافل تجارية و منتديات أدبية، شعرية و فلسفية".

تَعَرَّفَ، في يثرب، على شخصيات مُلِمَّة بِ أمور مجتمعهم و تاريخه البعيد و القريب. تحاور معهم في القضايا التي تُشْغِلُ باله كَ الغزوات التي قام بها الأعراب، أَتباع القائد أل مُحمَّد، على قبائل في تخوم يثرب، و المقتَلَة التي أَمرَ بها أل مُحمَّد ضد يهود بني قريظة، و قَتْل الشاعرة العجوز فاطمة بنت ربيعة(أُمُّ قِرْفة) بِ أَمْرٍ منه. كانت نتيجة نقاشاته و حواراته مع هؤلاء صادمة له، إذْ أَنَّهم نفوا حصول مثل هذه الأمور في بلدهم، وإنَّهم لم يسمعوا بشخص اسمه أل مُحمَّد ولا بِ شاعرة اسمها فاطمة (أُمُّ قِرْفة)، حتّى أنَّهم نفوا وجود معلّقات شعرية في بلاد الحجاز. كانوا يعتمدون في معرض نفيهم لوجود قصائد–ذهبية أو فضية– مُعَلَّقة لِشعراء في القرون الأولى لِ الميلاد، على عدم اكتمال أركان اللغة العربية، إذْ لم تكن هناك علامات الترقيم ولا علامات التشكيل. فَ كيف كانت الكلمة سَ تُكْتَب من غير نقط و من غير الفتحة، الضمة، الكسرة و السكون...إلخ؟. إذا كانت هذه الأحداث و الأمور حقيقة، فَ هي سَ تكون قد حدثت في مكان آخر، غير يثرب و بلاد الحجاز عامة .كان بوبي قلقا في يثرب. استشعر بِ وجود مجموعات عنيفة تَتَوَجَّسُ من الغرباء و تُلْحِقُ الأذى بهم و قد يصل إلى القتل. اكتشف بوبي، نتيجة متابعته لِ هؤلاء، بِ أَنَّهما مستهدفان و إنَّهما في خطر حقيقي. عَرفَ بوبي بِ أَنَّ اسم جَقَل الذي قَدَّم ناريك نفسه به إلى أهل يثرب لم يَدُمْ طويلا، فَ في أَواخر المَطْرَة الثالثة كان قد شَكَّ فيه بعض من هؤلاء الذين لا يُرَحِّبون بِ وجود الغرباء بينهم. كانا مراقَبَيْن من قِبَلِ هؤلاء، و تَعَزَّزَتْ شكوكهم حولهما حين فاجؤوا ناريك وهو يتلو الصلاة الربّانية، بصَمتٍ، في خلوة في معبد قديم لِ اليهود النصارى، في تخوم يثرب، كان قد فَقَدَ معالمه الدينية ولم يكن يشبه معبدا لِ إقامة الصلوات فيه. كان كَ أَيّ كَهْف مهجور بين الكهوف المجاورة. كان قد أَخذَ الشرق قبْلة له لِ صَلاته الهادئة، وحين حاجَجوه في أَدائه لِ هذا الطَقْس التَعَبُّدي وعقيدته، استطاع التخلُّص من تهمة، الكُفْر، الكافر، من خلال شَرْحه لهم بِ أَنَّه كان يُصلّي بِ اتجاه الكعبة، و إنْ كانت هناك فَرْقا في الزاوية قرابة أَربعين درجة بين القبلة التي كان هو عليها (الشرق) و قبلة مكّة. و لأنَّه يحفظ سُوَرَ و آيات كثيرة من القرآن، و منها سورة الفاتحة، تركوه

دون إلحاق الأذى به، لكنَّهم لم يقتنعوا بِما قاله، و الشكُّ بَقيَ في نفوسهم. بعد خمسة أيام من ذلك اليوم الذي فيه حاججوه، و بينما هما (ناريك و بوبي) في نفس الكهف جالسان والوقت كان بعيد مغيب الشمس، شعَرَ بوبي بِخطر داهم، خطر حقيقي يحيقُ بهما. تناهى إلى مسامعهما لَغطا وأَصواتا غاضبة قادمة من مشارف البلدة. في الأثناء لم يكن أَمام بوبي من خَيار سوى أَنْ يُنْقِذَ صديقه ناريك، و لذلك عاد إلى طبيعته السماوية التي كانت طبيعة سلفه الأوَّل، حين نام مع أصحابه قرونا من الزمن الأرضي في الكهف، إذْ أنَّه كان ملاكا مرافقا لِهؤلاء الشبّان الصالحين و لم يكن كلبا، و لكنَّه تقمَّص في هيئة الكلب لِ تَستمرَّ الحكاية كما تناقلته القصص و الكتب المقدَّسة و الأجيال المتعاقبة فيما بعد. و في الحال، حَوَّلَ بوبي (الملاك) الكهف و محيطه إلى مكان مهجور، جَعَلَ فيه نباتات شوكية و أَجمات و أَشجار عليها بيوت عناكب سوداء و صفراء، و ثمار متعفّنة على الأرض، و بعض الحيوانات البرية كَ القنافذ، الجرذان، الأرانب، الغربان و البوَمَة. مكثا صامتَين في الكهف، بينما الأصوات الغاضبة تقترب شيئا فَ شيئا، إلى أنْ وصلت الجموع إلى تخوم الكهف الذي يختبأن فيه. نظرَ ناريك إليهم من خلال الفراغات التي بين الأغصان المتماسة من شجيرات الأجَمة الكثيفة المتشابكة، والتي لا تَدَع مجالا لِ الشكِّ أبدا في أنْ يعتقد المرء بِ وجود كهف خلفها، أو في جوارها. كانوا يحملون مشاعل، عصي غليظة، خناجر و سيوفا لامعة. صاروا يُفَتِّشون المنطقة بِدقّة، يضربون أغصان الأجمة بهراواتهم الضخمة و سيوفهم الطويلة، و بِسَبَبِ الطبيعة التي شَكَّلها بوبي(المَلاك)، والتي توحي بِ أَنَّ المكان مهجورٌ تماما، اكتفوا بِ هذا المقدار من البحث و التفتيش، لكنَّهم، و قبل مغادرتهم المكان، أَضرموا النيران في الأعشاب و الشجيرات على امتداد أمتار عديدة يمين و يسار الكهف. تظاهروا بِمغادرة المكان وكمنوا في جوار الكهف منتظرين خروجهما هربا من الاختناق و الاحتراق في الكهف المموَّه. في الأثناء، كان بوبي قد تَلَبَّسَ ناريك، بعدَ أَنْ أَفقدَه الوعي بِ إيحاء من الروح القدس، و خرجَ من الكهف إلى التَلَّة المقابلة يراقب المشهد من هناك. كانت الجموع تتحرَّكُ بِعصبية و الغضب ظاهر على وجوههم. كانت رائحة شواء لحوم القنافذ و الأرانب و الجرذان، التي لم تستطع الفرار من المحرقة، تصعد إلى أنفاس الله. لبثوا في حالتهم المستنفرة إلى أَن خَمَدَت النيران لِ انتهاء وقودها، ثمَّ مضوا في اقتحام الكهف و هم يُكَبِّرون بِ أصوات تَشقُّ عنان السماء. فَتَّشوا كلَّ ركن فيه. خرجوا كما دخلوا، لم يعثروا عليهما. اقترب بوبي (ناريك في هيئة الملاك) منهم، كانوا يتحدَّثون بِانفعال مؤكِّدين بِ أنَّهما كانا في الكهف. أَلْقى زعيمهم نظرة ملؤها الاستغراب و الدهشة مِمّا حَصَل. طَلَبَ من رجاله أَنْ يصطفوا خلفه لِ أداء صلاة الجماعة، و أَمَّ

الزعيم المصلّين، و بدأها بِ سورة الفاتحة، و أضافَ، بعد ثلاث ركعات مُشْبَعات بِ الأدعية، و بِصوت مسموع لِ الجميع: اللهمَّ اغفر لنا قصورنا في القبض على الكافر عدوّك و عدوّ الرسول. اللهمَّ اغفر لنا فعْلَتنا إنْ كان مِنَ الصالحين. اللهمَّ أَرسلْ لنا إشارة من اليمين إنْ كنّا على صواب، و من اليسار إنْ كُنّا على خَطأ. عادوا أدراجهم و هم حائرين مشوَّشين ممّا حصل. سلكوا الطريق المؤدي إلى أَطلال بَني قُرَيْظة، فَتَّشوا كُلَّ فَجٍّ في هذه التخوم التي يُخَيِّمُ عليها السَواد و التي يُرَدِّدُ هواؤها صدى صوت الدماء التي سالَت في أَخاديد هذه الأرض. جَمَعَ زعيم هؤلاء الأغيار على دين الله، مشايخ و ملالي و أَئمَّة البلدة و شرحَ لهم ما حصل في تخوم يثرب من بداية شَكِّه بِ جَقَّل و كلبه مرورا بِ مداهمته له، و هو يُصلّي، في أَحد كهوف مضارب بني قريظة، وانتهاءا بِ إحراق محيط و مدخل الكهف الذي كانا يبيتان فيه، وكيف أَنَّهما غابا عن النظر و عن المكان كلِّه، و لم يعثروا لهما على أَثر لا في الكهف الذي تَحوَّلَ إلى أتون، و لا في جواره. إنَّ الذي حصلَ يَدلُّ على معجزة حقيقية، فَ إمّا أَنَّ الشيطان تدخَّل و هَرَّبَهما من وسط النيران الملتهبة، و إمّا أَنَّ الله تَدَخَّل و أَنقذهما من الموت حَرقا؛ لذلك يجب أَنْ نبحث عنهما في كلِّ الأمصار و القبض عليهما و تحويلهما إلى المحكمة الشرعية هنا في يثرب المدينة المقدَّسة المنوَّرة بِ نور رسول الله و أصحابه و أتباعه، لِيُصار فيما بَعْد إلى تطبيق شَرْع الله عليهما. منذ ذلك اليوم، صاروا يُطاردون الكلاب أَينما وجدوها ظَنًّا منهم قد يكون هو صاحب الشاب (جَقَّل) المختفي، الهارب من وَجه العدالة. و مِن ذلك التاريخ لم يُرَ أَيّ كلب في تخوم يثرب خوفا من ملاحقة الأهالي لهم وقتلهم، و من ذلك التاريخ، أيضا، أَصبح الكلب منبوذا في موروثهم الديني والشعبي مثله مثل الحمار الذي يسخر الله (خالقه) منه و يزدريه .انتشرت هذه الحكاية في يثرب و من ثمَّ في الحجاز كلّها. و بعد أَكثر من مئة و خمسين سنة من الحادثة تَعَرَّضت الحكاية لِ تحديث و تطوير في جوهرها، و صارت الرواية منذئذ تتحدَّث عن معجزة حصلت في يثرب. تتحدَّثُ عن خمسة شُبّان دخلوا الكهف مع كلبهم، وإنَّ نيزكا من رجوم السماء ضربَ الحرش والشجيرات المحيطة به، و إنَّ حريقا هائلا شَبَّ في فَمِ الكهف ومحيطه. أَمّا الشبّان وكلبهم فَ لم يُصابوا بِ أَذى، و لم يظهرْ لهم أَثر يُذكَر، ربَّما يكونوا قد احترقوا و تحوَّلوا إلى رماد اختلط مع أَتربة الكهف. و قِيل في روايات أُخرى بِ أَنَّهم تَحَوَّلوا إلى أَرواح خَيِّرة تحوم فوق الحجر الأسود، و في ليلة القدر، من كلِّ سنة، تزور قبرَ الرسول و من ثمَّ تسكبُ الدموع فوق منزل، أو خيمة، زينب بنت جحش، و في الساعة الأخيرة من ليلة القدر، تُباركُ بيوت أُمَّهات المؤمنين.

كان ناريك و بوبي قد أَخذا الشمال و انطلقا في المسير نحو بلاد الشام.

في المطرة الخمسين كان ناريك و بوبي قد دخلا وادي موسى في جنوب بلاد الشام. هكذا سمعَ اسم البلدة من الأهالي. و وادي موسى هو الاسم الحديث لِ المدينة التي تضم في طياتها المدينة الأثرية(البتراء)، و كانت تسمى قديما ب(إلجي) بِ سبب لجوء الناس إليها لِ الحماية و التحصُّن بها وقت الاضطرابات. لجأ إلى دير قديم مبني فوق تَلَّة مطلَّة على البلدة. كان الباب مغلقا. قعدَ على حجرة كبيرة، إلى حَدٍّ ما، مركونة إلى اليمين من الباب الخشبي الكبير الملبَّس بِصفائح من التَنَك السميك بِ واسطة مسامير حدوات الأحصنة. كان الباب مؤلفا من درفتين، يُغْلَق من الداخل بِثلاثة أقفال مختلفة، واحدٌ منها عبارة عن قضيب ذي مقطع دائري طويل قطره 10سم(سيخ مبروم طويل) يَمرُّ من حلقات معدنية ثخينة(ثلاث حلقات، متباعدة عن بعضها، في كلِّ درفة) مثبتة في درفتي الباب بِ نفس المسامير (المستعملة في تلبيس حدوات الحصان)، و الأأقفال الأُخرى هي عبارة عن زقّاطات، مبسطّات و حلقات مع ألسنة معدنية سميكة و قوية تتداخل و تتشابك بِ إحكام بعضها في بعضها الآخر. من الخارج كان الباب مُجَهَّزا بِ مطرقة معدنية على شكل قبضة كَفّ يد الإنسان مثبتة بِ المسامير ذاتها في الدرفة اليمنى. كانت ظلال الأشجار، الملاصقة لسور الدير من الداخل، تُخَيِّمُ عليهما وكانت الفسحة التي تحتهما مزدانة بِالأشجار المثمرة ودوالي العنب الأحمر والأصفر، وصوت مياه النهر والسواقي كان يتناهى إلى مسامعهما، و كانت أصوات الدواجن و الأبقار و الحملان والحمير و الكلاب تختلط مع زقزقة الطيور و البَطِّ البَرّي. يحملها النسيم فوق موجاته الناعمة مع أصوات الفلاحين و الشغّيلة الآتية من الحقول و البساتين التي يعملون فيها. إنَّها طبيعة بلدتي الحبيبة قامشلي، الأشجار ذاتها، نفْس الأنهار والجداول و السواقي. نفس الطيور و النباتات و المروج. أَعادتني، هذه الطبيعة، إلى القامشلي يا بوبي!. تهيّأُ لي و كأنَّني أسير على كتف نهر الجغجغ، حيث أشجار الحور و الكينا و الكولات التي كُنّا نسبح فيها وكَأنّنا في معركة كَسْر العظم. كنّا نتحدَّى الخوف، نتحدَّى القوة الخفيّة التي تدور مع دوّامات مياهها متربِّصة بِالضحيّة لِ تخطفها إلى الأعماق . وجدتُني أسير بِ اتجاه كولة لوكاس و في يديَّ باقتان من الورود. وقفتُ أمام تمثال لوكاس وتمثال فيرجين، حيث الفقاعات الست الخارجة من فم لوكاس و الدموع الخَمس النازلة من عيون فيرجين. أَخذتِ الورود أَماكنها على القواعد الرخامية لِتماثيلهما. خَيَّمَ

الحزنُ عليَّ و راحتِ الدموعُ تتدحرج من عينيَّ. أَلقَيتَ عليهما بضعة أبيات من قصيدة العاشق سارو التي كان قد كتبها لِ حبيبته ندى، كان قد قال فيها :

_____

_____

طَيَّرتِ الفراشات في المروج

رسمتِ سياجا شفَّافا لِ الطيور

وضعتِ لحنا جميلا–

فوق سلالمَ من حرير

علامة تحتضن علامة

و علامة ترفع علامة

رحتِ عميقا في ترتيلة الحبِّ

أنتِ الهواء و ضوء الشمس

انصهرتِ في آتون الكواكب المتصادمة–

في جوف الله و مآقيه الدامعة

أرسلك حبًّا و نورا لنا.

طنين الله أنتِ في فضائنا الملتهب

الوتر السابع في آلته الكونية

أنتِ السلَّم الذي يقرأه في معزوفاته الليلية

قيثارته أنتِ، و كلُّ آلاته الموسيقية

لا بل أنتِ موسيقاه و ألحانه الرقيقة

أنتِ الكلمة التي أبحث عنها

اللون الذي لم أره في المجموعة الكونية

الصورة المختزنة في خيالي.

معاً حَدَّدنا تضاريس أجسادنا الطرية

رسمنا بيوت الحارة في صباحات الربيع الندِيّ

كنتِ تختبئين خلف الهواء في الأمسيات الملوَّنة

و كنتُ أداعب طفولة الهواء

و أمتصّ براعم الأثير من حول خيالكِ–

يا خيال الحبِّ، و عذاب الطفولة

يا أمنيات الدهر، يا جمال الورد و الياسمين

_____ _____

سارو الذي تحوَّلَ، هو الآخر، إلى أيقونة احتلَّ مكانا له بين العشاق هناك في السماء بين النجوم. رفعتُ رأسي إلى السماء أُفَتِّشُ عنهم(لوكاس، فيرجين، سارو) فوق الغيوم بين النجوم. رَجَوْتُ انْ أَحظى بِ بركاتهم و صلواتهم العذرية.

– كم هو جميل هذا المكان يا بوبي! قال ناريك، و هو يتأمَّل الأشجار، الأنهار، الحقول، البساتين و الطيور .

– إنَّه امتداد الشام يا صديقي، إنَّه شقيق البحر من شمال الغرب و جنوبه! هذا المكان، يقول بوبي، يَخصُّ أملاك السماء، أرض الرسل و الأنبياء و الكتب المقدَّسة. أرض الأباطرة و الحضارات العظيمة، أرض الحُبِّ و الحروب الشرسة، أرض الورود، الزنابق، الياسمين و شقائق النعمان. أرض الدماء و الدموع و الأحزان العميقة .

دَقَّ ناريك باب الدير بِالقبضة المعدنية ثلاث طَرْقات وانتظر مدَّة من الوقت أمام الباب خارج الدير لعلَّ أحدا يفتح الباب، لكن الباب بقيَ مغلقا في وجهه. نظرَ إلى صديقه و التساؤل واضح في عيونه، وكَأَنَّه يطلب مشورته. في الأثناء أومأ له(بوبي) بِأنْ يطرقَ الباب مَرَّة أُخرى. أَمْسَكَ ناريك القبضة المعدنية و راح يُقلِّبها، يرفعها، يُؤرجحها يمينا و يسارا، لبثَ على هذه الحال لِلحظات، ثمَّ عاود الطَرْقَ على الباب. بعد دقائق معدودات سمعَ أصواتا خلف الباب، وما هي إلّا لحظات حتّى فُتِحَ الباب، الدرفة اليسرى منه، و

ظهر رَجُلان(راهبان) في الداخل مع ثلاثة كلاب ضخمة بِ رفْقَتهما. لم تبدرْ منها حركات، أو علامات عدوانية، ممّا يدلُّ على أَنَّها مروَّضة بِ شكل جيّد. أَلقى ناريك السلام عليهما، و شرحَ وضعه بِ ما فيه حاجته إلى مأوى. تساءل ما إذا كان بِ إمكانه، هو و كلبه، قضاء بضعة ايام في هذا الدير. رَحَّبَا به و بِ كلبه، توجَّهوا إلى الداخل، حيث استراحة الدير. بعد اَن أمضى وقتا كافيا لِ الحصول على الراحة التامة، كانت علامات النشاط والحيوية ظاهرة على وجهه وعيونه. استقبله راعي الدير، الأب حبصونو، بِترحاب وخَصَّصَ له غرفة مستقلة في الركن الغربي من باحة الدير، حيث يتوسطها بئر ماء تُحيط به أشجار التوت، الدراق، السفرجل و دوالي العنب الأبيض و الأحمر. و من الداخل تنتصب عدَّة صفوف من أشجار السرو، الصنوبر و الكينا الملاصقة لِ سور الدير، و عند الباب الخارجي ترى، على الطرفين، أشجار الحور، الصفصاف، السنديان و الزيزفون. كان في الدير رهبان و نسّاك في صوامع منفردة. كانوا مكتفين ذاتيا. يعيشون على ما تُقَدِّمُ لهم أرضهم، دواجنهم و حيواناتهم. كانوا يستغرقون في التأمُّل و الصلوات و التواصل الروحي مع كائنات سماوية غير مرئية. أَمضى قرابة أربع مطرات في الدير مع هؤلاء الرهبان و النسّاك. تحاوروا كثيرا في الفلسفة، الأدب، اللاهوت و العقائد الدينية المختلفة. تَعَلَّمَ منهم الكثير، و خاصة في اللاهوت والهرطقات التي كانت منتشرة في المنطقة. اكتشف ناريك العلاقات المنتظمة التي كانت تربط راعي الدير مع أحبار مكّة و نصارى يثرب، أو بِ الأحرى، مع بقايا نصارى يثرب، و تبَيَّن له بِ أنَّ القائمين على إدارة الدير، بِ مَن فيهم الأب حبصونو، على علْم بِ كلِّ ما حصلَ معه في بلاد الحجاز، و أنَّهم على تواصل مع فَزّاع بن حنيش. تذكَّر كلام صديقه أونيل حين قال له:" بقي أنْ أَدلَّكَ إلى صومعة، لِراهبٍ من أبناء البترا، تقعُ إلى الجنوب الغربي من القصر الوردي. إنَّه في العقد السابع من عمره. اذهب إليه عند الحاجة يا ناريك، سوف تجده خيرَ مُعين لك!".

أعاد ناريك الأيام التي كان فيها يتفاعل معهم و مع الراهب(الأب حبصونو)، توصَّلَ إلى قناعة بِ أَنَّ الراهب ما هو إلّا ذلك الذي ذكره صديقه أونيل. كان ناريك قد أَظْهَر رغبته في التعرُّف على القصر الوردي الذي يقع على بُعْد مرمى حجر من وادي موسى. كانت البتراء معروفة في المدوَّنات و الوثائق التاريخية الموجودة في المكتبات والأديرة وصوامع النسّاك، و كان ناريك قد قرأَ عن هذا الصرح التاريخي العظيم و الذي يُعتَبَرُ أعجوبة حقيقية كَ حدائق بابل المعلَّقة والأهرامات الفرعونية، و كان يعتقد بِ أَنَّه يَجثمُ على مخطوطات مهمّة ووثائق ملغَّزة قد تُفَسِّر أسرارا في غاية الأهمية و الخطورة لِ جهة حقائق الأنبياء و الكتب السماوية، أو المقدَّسة. كان قد تحدَّثَ مع راعي الدير

حول نفس المواضيع التي تناولها مع العم فَزّاع في مكّة . بِالطبع زار البتراء، فيما بَعْد، مع راعي الدير. كان مندهشا من جمال و عظمة هذه البدعة الفريدة، هذه التحفة المعمارية الوردية المحفورة في الصخور بِ هذه الأناقة و الدقّة الهندسية العجيبة. في إحدى ليالي نيسان، و حين أَخذَ الحديث يدور حول المواضيع التي كان ناريك يبحث عن حلول لِ اسرارها، أَخرجَ راعي الدير مخطوطا طحيني اللون مربوطا بِشريط حريريّ عريض بنفسجيّ، و أعطاه لِ ناريك. المخطوط هو من الوثائق السريّة المحفوظة في الدير، بالطبع يوجد نفس المخطوط منسوخا بِ يَد الأب حبصونو، و هو معروف من قِبَلِه، أيْ أَنَّه مضطلع على محتواه، إذْ أَنَّه يضمُّ خمس أوراق مختلفة عن بعضها. كلُّ ورقة تعود إلى تاريخ مستقل عن تواريخ الأوراق الأُخرى وهي مكتوبة بِ خمس لغات، فَالورقة(الصفحة) الأولى مكتوبة بِ السريانية، الثانية بِ اليونانية، الثالثة بِ العبرية و الرابعة بِ الأرمنية، أمّا الخامسة فكانت بِ اللغة العربية الشامية. قرأَ ناريك نصوص المخطوط بلغاته الخمسة، وكان الأب حبصونو يسمع ما يقرأَه، بالرغم من أَنَّه كان قد قرأَها منذ زمن قبل مجيء ناريك إلى الدير. لاحظَ الأب علامات التساؤل و الاستغراب على وجه ناريك، فَ المخطوط كان يحتوي على معلومات وأسماء خارج هذه الجغرافية التي هم فيها، بالرغم من أَنَّها تتبع نفس الأحداث التي تذكرها كتب السماء. الأب كان يعرف تلك المعلومات، ولذلك مضى في شَرْحِ جوهر المخطوط لِجهة أسماءالشخوص والأماكن و الأحداث التي وردَ ذكرها، وكانت رؤية الأب عنها تقول: بأَنَّ الذي يتحدَّثُ عنه العهد القديم، إنَّما هو في بلاد غير هذه البلاد، كان الأب حبصونو يَشكُّ في سِفْر الخروج من الكتاب المقدَّس، و أيضا في قصة الطوفان، لكنه لم يُصرِّح عن آرائه و شكوكه تلك لعامة الناس، وختّى لِ الرهبان و النسّاك الذين يتعبَّدون الله في هذا الدير. كانت ملاحظاته، حول خروج اليهود بقيادة موسى من مصر، تتمحور في نقاط محدَّدة منها، كما كان يقول لِ ناريك أثناء الحديث في هذه القضايا الإيمانية:"أنا لا أفهم قول التوراة، في سِفْرِ الخروج، بأَنَّ اليهود هربوا من العبودية في مصر في الوقت الذي كانوا قد حصلوا على أفضل الأراضي الزراعية ومواشي، و تسهيلات و مساعدات جَمَّة من المصريين خلال حياتهم هناك، ثمَّ كيف استطاع الشعب اليهودي العيش في صحراء سيناء لِ مدّة أربعين سنة، في صحراء قاحلة و هم بِ عشرات الآلاف. كان الراهب يَشكُّ في أَنَّهم كانوا مظلومين، أو أَنَّ الملك القبطي كان قد استعبدهم. كان يخجل من أفعال اليهود ضد الأقباط قبيل خروجهم، إذْ أَنَّهم سرقوا المصريين بِ خسَّة مستغلين طيبتهم و نبْلهم. فعلوا ذلك بِ مباركة الإله نفسه. كان يَشكُّ في جغرافية الخروج، بِ صرْفِ النظرِ عن صحَّته من عدمه، إذْ أَنَّه يُرَجِّح حصول الخروج (إنْ كان ولا بُدّ من

اعتبار إنَّه قد حصل) من شبه الجزيرة العربية، أو من جنوبها، أي من بلاد اليمن حيث جَنَّة عدن و ليس من أرض المصريين بِ الرغم من أَنَّ هناك باحثين من مِلَلٍ مختلفة (عرب، أجانب، مسلمين و مسيحيين) قد طرقوا هذا الباب، فمنهم مَن قال بأَنَّ الخروج قد حصل في شبه الجريرة العربية، و يعتمدون في رواياتهم على شهادة الراهب ياماإيل حيث أَنَّه شوهِدَ في عام العقرب في مكة يبحث عن أثرٍ أو دليل يكشفُ قصّة هروب العبرانيين، بقيادة موسى، من جيش الفرعون، من أرض مصرايم. حينما سألَ مستفهما من الأهالي عنه(عن موسى)، أفاد الكبار منهم: بِ أَنَّه من أصل عبراني، مجهول الوالدين. ولِدَ في المستعمرة المصرية، قربَ خميس مشيط، المسماة أرض مصرايم، أو مدينة مصرايم. و قد تربَّى هناك تربية المصريين من الطبقة الحاكمة. كان ناشطا سياسيا في المدينة، وهناك دلائل تشير إلى أنَّه كان في صفوف المعارضة بِمصرايم و أنَّه اضطر إلى الهرب منها إلى مديان، المدينة التي تقع إلى الشرق من مصرايم. و لمّا انتصرت المعارضة وقُتِلَ الملك(حاكم المستعمرة) و أتباعه، و استلمَ حاكم(فرعون) جديد القيادة، تمكَّنَ موسى من العودة إلى مصرايم. كان قد اتَّخذَ قرارا بِأَنْ يقود هجرة لِ بَني قومه من أرض مصرايم إلى مكان آخر يستقرون فيه كَ شَعب مستقل. أمّا فرعون فكان يعارض هجرة العبرانيين من أرضه لحاجته إليهم كَ يَد عاملة. لكن، وكما يبدو، كان له اعتراض أيضا على الوجهة المقترحة من قِبَل موسى لِ هذه الهجرة. أمَّا إله العبرانيين(يهوه) كان قد أَمَرَ موسى و هارون بِ إخراج بني إسرائيل من أرض مصرايم إلى الضَبَطَيْن، أيْ واحة الضَبَطَيْن في نَجد، إلى الشمال من وادي اليمامة. كان بنو إسرائيل مصمّمين على الخروج من أرض مصرايم، بِاتجاه داخل الجزيرة العربية، و ليس إلى أيّ مكان آخر. إنَّ الرب يهوه شَدَّدَ قلب فرعون ملك مصرايم حتى سعى وراء بني إسرائيل. و قال الأهالي، نقلا عن قدمائهم:" أنَّ بني إسرائيل اجتمعوا في سُكّوت، في سراة بلقرن، استعدادا لِ الرحيل من أرض مصرايم. و أنَّهم انتقلوا من هناك جنوبا إلى قرية الريمة بِ المنطقة ذاتها، فخرجوا من هناك، و عن طريق وادي الريمة، إلى منطقة بيشة، ثمَّ انطلقوا شرقا من هناك باتجاه الخماسين في وادي الدواسر".

كان ياماءِل يبحث عن رأس خيط يأخذه شمالا إلى سيناء والبحر الأحمر، حيث انشقَّ إلى أنْ اجتاز بنو إسرائيل إلى الشطِّ الآخر، إلى صحراء سيناء و صعودا إلى أرض الميعاد. قرأ في مدوَّنة، بِ الخطّ العبري، حول هذه الجزئية؛ بِ أنَّ المصريين ماطلوا في القبول بِ خروج بني إسرائيل(العبرانيين) من أرض مصرايم. ثمَّ سمحوا به بِ شَرْط أنْ يكونَ الخروج بِ اتجاه الحجاز عن طريق الفلستيين، أيْ بلاد خَثعم بِ شمال سراة عسير. لكن بني إسرائيل خدعوا المصريين، فَ تَجَمَّعوا في قرية آل سكوت من سراة

بلقرن و منها انتقلوا جنوبا إلى الريمة، و من هناك انحدروا بِ وادي ريمة في محاولة لِ الوصول، مباشرة، إلى وادي اليمامة عن طريق الخماسين بِ وادي الدواسر.

دَهْشَتُه كانت عظيمة حين قرأ هذا المقطع الذي ينسف قصة، أو خرافة، شَقّ البحر الأحمر و غرق جنود الفرعون بعد انتقال العبرانيين إلى الضفّة الثانية منه. إذْ جاء فيه... إنَّ منطقة وادي نجران و ما يحاذيها من الأودية إلى الشمال و الجنوب، هي أكثر مناطق الجزيرة تعرّضا لِ السيول الجارفة. إنَّ المصريين سَعَوا وراء بني إسرائيل بِ جيشهم و فرسانهم و مركباتهم، و أدركوهم و هم نازلون بِ أعلى صفن بين وادي حَبونا و وادي نجران. فَ سارع بنو إسرائيل إلى الخروج من هناك إلى وسط بلاد يام، وكان هناك سحاب كثيف يحول دون تَرَقّبَ المصريين لِ تحرّكات بني إسرائيل، و ينذر بِسيل عَرِم. في الغداة تَبعهم المصريون إلى وسط بلاد يام، و لاحظوا قدوم السيل، فَ انثنوا عن ملاحقة الهاربين وحاولوا العودة من بلاد يام عن طريق وادي حبونا، فَلحقهم السيل هناك و أَهْلَكَ ما أهلك منهم. أمّا بنو إسرائيل فَ مَشوا على اليابسة و الماء سورٌ لهم عن يمينهم(سَيْلُ وادي نجران) و عن يسارهم(سَيْلُ وادي حبونا). و هكذا تَمَّ خروج بني إسرائيل من أرض مصرايم بِيَد حزقة، أي عن طريق "وادي حزقة" الذي هو وادي حبونا، وخروجهم لم يكن إلى(هـ – يم) أي البحر، بل إلى بادية بلاد يام، والتي ما تزال بِاسمها هناك وبمحاذاتها يَم سوفْ التي هي رمال"بحر صافي"وليس مياه البحرالأحمر.

وفئة أُخرى ترى بأَنَّ خروج العبرانيين قد وقع في اليمن، حيث هناك تطابق بين أسماء الشخوص و الأماكن الجغرافية، كَ البلدات والقرى والجبال و الوديان و الأنهار، وحتى أسماء آلهة اليمن والملوك الذين كانوا معاصرين لِ ذلك الحدث. أمّا بِ النسبة لِ قصة الطوفان، فَكان يرى تناقضا بين صفات الله وجوهر الحدث، بغَضّ النظر عن أَنَّ هذا الطوفان مأخوذ من الطوفان البابلي أو، فَلْ نقُل، إنَّه يشبه الطوفان البابلي، إذْ أَنَّ الله، بِحسب تفاصيل القصة، قد قتَلَ البريء مع المذنب، وقتل الأطفال والرُضَّع دون رحمة، أي إنَّه أباد الشعب بِ أكمله مُبْقيا، فقط، على نوح وزوجته و أولاده و زوجاتهم و بقية المفردات، التي أُضيفت إلى القصَّة. هل الذي فعله الله في هذا الموضوع يَتّفق مع صفاته الألوهية(كليّ القدرة، الرحمة، المغفرة، الحُب، التسامح...إلخ)؟ وهناك مسالة في غاية الخطورة و التعقيد تَخصُّ قدرات ومعارف الله وحكمته رؤيته الصائبة، ألا و هي نَدَمه على ما يقوم به من أفعال بِ حَقِّ خَلْقه من البشر. هل يُعْقَل أَنْ يكون بِ هذا القدر من الجهل بحيث لم يستطع تقدير النتائج التي سَ تترتَّب على الحياة بِشكلٍ دقيق جرّاء الفعل الذي يقوم به مما يجعله يندم على فعْلته؟!

كان ناريك متَّفقا مع الأب الراعي في تفسيره لِ النقاط التي تحدَّثَ عنها في قصة

الطوفان، أمّا مسألة جغرافية العهد القديم فَ كانت جديدة بِ النسبة له. أَفْرَد ناريك الصفحة التي فيها الكتابة المشفَّرة أمام الأب حبصونو، و صار ينظر إليها بِ تمعُّن. فَ الأسطُر تلك كانت مكتوبة هكذا .

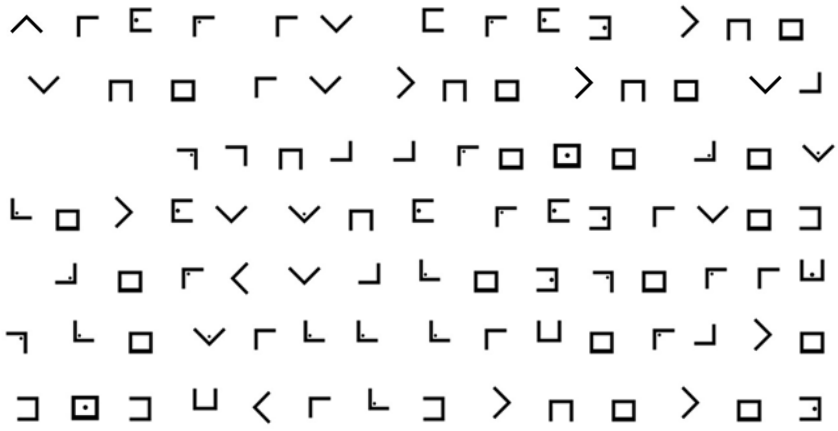

في الأثناء، أشار الأب إلى المقطع الذي يسبق هذه الكتابة المشفَّرة و قال:"أنا واثق إلى حَدِّ اليقين، بِ الرغم من أنَّني لم أضطلع على الرموز المشفَّرة و مفاتيحها، بِ أَنَّ محتوى هذه الكتابة يتعلَّق بِ المُخَلِّص الذي ينتظره الشعب اليهودي".

–هل تقصد بِ أنَّهم ينتظرون قدوم السيد المسيح؟

– لا يا بنيّ! فَ النَصّ أعلاه، الذي قبل هذا المقطع المُشَفَّر، يتحدَّث عن عذابات و معاناة الشعب اليهودي، وعن خراب أورشليم ودمار الهيكل. ولأنَّ الأمر يتعلَّق بهم، لذا نرى كاتب النص قد لجأ إلى تشفير هذه الأسطر المتعلِّقة بِالتيه و الخراب و الدمار الذي لحقَ بهم كَ أُمَّة يهودية.

–هناك احتمال كبير في أن يكون الأمر كما تعتقد فيما يتعلَّق بمضمون هذه الشيفرة. أنا لديَّ كُتَيِّب صغير فيه بعض الشيفرات و مفاتيحها. سَ أُراجعها، هذا المساء، و سَأُحاول فَكَّ لغز هذه الشيفرة إنْ كانت من ضمن الشيفرات التي هي في الكُتَيِّب.

– حسنا إلى الغدِّ إذن!

انكبَّ ناريك على قراءة الشيفرات، أو بِ الأحرى، على النصوص المشفَّرة، أنواعها، أسرارها ومفاتيح حلولها. بعد محاولات و تجارب عديدة لِ فَكِّ رموز الكتابات المشفَّرة، عثرَ على نوع الشيفرة التي استخدمها كاتب النَصّ، إنَّها "شيفرة الصليب الوردي" و هي على الشكل الآتي، كما هو مبيَّن أدناه.

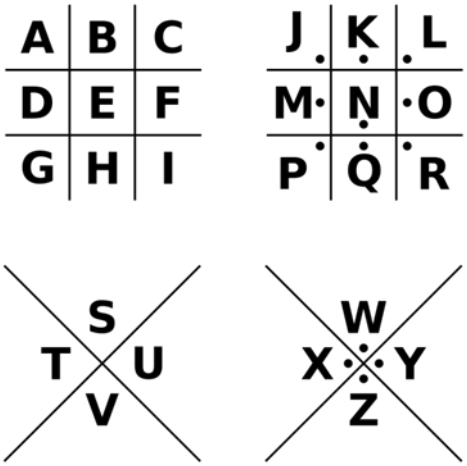

و مضى في تفكيك الأحرف و مقابلتها مع الخانات المتوضِّعة فيها. فَ الحرف **A** مثلا يقابله الرمز ⌟ و الحرف **W** يقابله الرمز ⌄ و الحرف **S** يقابله الرمز ⌄ و هكذا. و لِ تسهيل قراءة النص، شرعَ في تفكيك الشكل أعلاه و مقابلة كلّ حرف بِ الرمز الموافق له. وضعَ الأحرف و رموزها أمامه و راح يقرأُ النَصَّ اعتمادا عليها.

حصلَ على النصّ التالي.

The savior is from the Hagarene Jews. He is the promised Perikletos who will liberate Jerusalem and build the temple

نظرَ إلى النصِّ نظرة شاملة سريعة واعتقد، لِ الوهلة الأولى، بِ أنَّ ترجمته إلى العربية بسيطة و سهلة. لكنَّه شعرَ بِ ارتباك حينما دقَّقَ في كلماته، لذلك فَضَّلَ اعتماد النصّ النهائي لِ الترجمة بِ مشاركة الأب حبصونو.

في اليوم التالي راحا يتناقشان في معاني الكلمات التي يمكن تأويل تفسيرها إلى أكثر من معنى كَ (Hagarene Jews) و (Perikletos) و (savior). افترضا الترجمة على الشكل الآتي:" المنقذ هو من اليهود الهاجريين. إنه البيريكليتوس الموعود الذي سَ يُحَرِّر أورشليم و يبني الهيكل".

دَقَّقا في هذه الترجمة و وقفا عند كلمة (المنقذ) و تناقشا فيما بينهما حول ما إذا كانت متوافقة مع معنى كلمة البيريكليتوس القريبة جدا من كلمة شبيهة و هي باراكليتوس.

إنَّهما يعرفان معنى الكلمتين، بِ حكم دراساتهما المُعَمَّقة لِ اللاهوت المسيحي و الهرطقات و البدَع والأناجيل المنحولة التي كُتِبَت بعد ظهور وانتشار العقيدة المحمدية.

فَ كلمة (Savior) يمكن أن تُقرأ المنقذ، و أيضا يمكن أنْ تُقرأ المُخَلِّص، و كلمة الهاجريين يمكن أن تأخذ معنى المهاجرين، و يمكن أن تُفَسَّر بِ نسل هاجر خادمة سارة. تلك التي قَدَّمتها سارة لزوجها ابراهيم لِ ينكحها لَ علَّها تحصل على مولود منها، وفعلا، فَ قَد ولدت هاجر مولودا ذكرا سُمّيَ اسماعيل(اسماإيل). وهنا يمكن أن تُفَسَّر هذه الكلمات (Hagarene Jews) بِاليهود الهاجريين، نسبة إلى هاجر خادمة سارة، أي اليهود من نسل ابراهيم وهاجر من خلال اسماعيل. و لمّا كان الأنبياء محصورون في سلالة ابراهيم، اسحق، يعقوب...إلخ، فَ ايُّ حديث عن نبوَّة اسماعيل، أو أيّ نبي من صلبه إنّما هو هراء وضدَّ إرادة الله و أمره بِ خصوص أنبياء اليهود، أنبياء بني إسرائيل. لذا فَ ادّعاء المسلمين بِ نبوَّة محمد ابن آمنة التي حافظت على فَرْجِها، و إنَّه من نسل اسماعيل، إنْ هو إلّا ادّعاء مفضوح و محض هراء و اختلاق لِ نَبيّ عربيّ ورَبْطه بِ اسماعيل الذي لا علاقة له بالعرب العروبة البتّة، لأنَّ هاجر المصرية، هذا إنْ كانت مصرية، لم تكن عربية،لا بل مصر كلها، قبل آلاف السنين من الميلاد وقبل آلاف السنين من دخول العرب كَغزاة إلى مسرح التاريخ، كانت قبطية ولم تكن عربية. فَ الأنبياء، كما جاء على لسان الله، يكونون من نسل إسرائيل حصرا، و حتّى الإله الموصوف في كتاب المسلمين(القرآن) هو، حصرا، إله بني إسرائيل و ليس سواه.

كانت هذه الأفكار والآراء جديرة بِ الاهتمام و التمَعُّنِ فيها. في هذا الوقت كان ناريك قد صاغ نظرية في ذهنه حول هذا الموضوع ومضى في طرحها على الأب حبصونو، إذْ قال:"أنا أعتقد بِأنَّ المقصود من– المنقذ هو من اليهود الهاجريين– هو ظهور قائد، أو مختار من الشعب المجاور لِ اليهود، أقصد بِهذا القوم من اليهود، بِ اليهود الذين انقسموا عن اليهود الأرثوذوكس و اليهود المسيحيين. إنَّهم الفئة التي آمنت بِ المسيح كَنبيّ أعظم و لم تؤمن به كَ إله، وفي الوقت نفسه يؤمنون بِناموس(الشريعة) موسى. إنَّهم ليسوا مسيحيين في إيمانهم الديني، و في الوقت نفسه لم ينكروا المسيح كَ غيرهم من اليهود. هذه المجموعة من اليهود هم النصارى، و هم ينتظرون المخلِّص الذي سَ يُحَرِّرهم من العبودية. فهذا القائد الموعود هو ذلك الشخص الذي سيختاره الشعب، هو ذلك القائد الذي سَيُمجِّده الشعب، هو نفسه الذي سَ يُعَظَّم ويُكرَّم و يُحمَد على الدوام. إنَّه الشخص، القائد أل مُحَمَّد أل مُعَظَّم من نسل الهاجريين المقاتلين الأشدّاء. و بهذا المعنى يكون هو المنقذ، المخلِّص، ألْ ."(Perikletos) نظرَ الأب حبصونو إلى ناريك، و قال بعد لحظات من التأمُّل؛ إذن يمكن أنْ نقول عن النص كَ الآتي:

"إنَّ المخلِّصَ هو من اليهود النصارى. إنَّه المخلِّص الموعود الذي سَ يُحرِّر أورشليم و يُعيد بناء هيكل سليمان".

كان هذا التفسير الذي طرحه راعي الدير منطقيا، أيْ أنْ يكون هناك قائدا شجاعا من النصارى يستطيع أنْ يَجمعَ العربان من حوله، ويُجَنِّدهم لِلهجوم على أورشليم وتحريرها من الرومان. أنْ يكون هناك مقاتلا نصرانيا شرسا يستحوذ على إعجاب و ثقة ورضوخ النصارى والعربان المحيطين به. أنْ يكون هناك ذلك المقاتل المحنَّك المفوَّه والمضطلع على انجيل النصارى، يمضي في نسخه وتحريفه وتحوير بعضا من محتوياته، ويجعله كتابا مقدَّسا لِجيشه وأتباعه من العربان ويجبرهم على التصديق بِأَنَّه كتاب من عند الله، وأنْ يُسارع رأس الكنيسة النصرانية إلى تَبَنّي هذا القائد النصرانيّ و إقناعه بِ أنْ يَدَّعي النبوَّة، ويمضى الحَبْر الأعظم، رأس الكنيسة النصرانية، في إلباسه هالة مُقدَّسة و تقديم نصوص إنجيله إليه، ويخلع عليه صفة المُمجَّد، ألمُعَظَّم، أل مُحَمَّد. كان بوبي يستمع إليهما بِانتباه شديد، خاصة الجزء المتعلّق بِ النصارى، هنا أخبرهما عن القصة التي حاكها هؤلاء النصارى حول جدّه الذي، كما زعموا، أمضى مئات السنين نائما مع فتية في كهف مهجور. كانت مداولاتهما متشعِّبة حول هذا الموضوع، و كانت وجهات نظرهما متقاربة، إلّا أنَّهما وقفا عاجِزَيْن أمام البلد الذي ظهر فيه هذا القائد النصراني، وهذا الحَبر الكبير (رأس الكنيسة النصرانية). هل كانت جغرافية هذه القصة في الشمال، أم في جنوب غرب الجزيرة العربية، أم في اليمن السعيد؟!

و هكذا انهى ناريك مكوثه في دير الراهب حبصونو، حيث وَدَّعه متَّجها نحو الشمال.

المدوَّنة رقم اثنان

-تقلّصات الرحم الكوني في المياه البدئية-

-1-

كان ناريك يُفَضِّل السفر في الفجر، قُبَيل شروق الشمس، حيث لحظة استيقاظ الطبيعة وبداية انطلاقة الإشارة السحرية من عصا المايسترو الكوني لِ أوركسترا الطبيعة التي تشرع في العزف على آلات حَيّة أجمل الأنغام وأرَقّ الألحان. في هذا الوقت بِ الذات، تبدأ ظلال الأرواح بِالانسحاب من المسرح لِإفساح المجال لِهبوط البنفسج وانتشاره على وجه الطبيعة، و من تحته يبدا البرتقالي بِ التسلُّق إلى حيث الليلك يستعدُّ لاحتضانه و الامتزاج به. هنا، يرى ناريك نفسه في دار أوبرا كونية مزيَّنة بِلوحات متحرِّكة ومؤثرات خلفية أزلية مرافقة لِ سمفونية الخلود التي تعزفها عناصر الطبيعة و أرواحها الخالدة. كان بوبي يقفز إلى جانبه، وفي بعض الأحيان يسبقه و يختفي بين الأشجار لِ يُفاجئه من بين حرش، أو من فوق تَلَّة، أو في زاوية من غابات الحور على جانبي الطريق. أشارَ ناريك إلى صديقه لكي يسير بِجانبه. يا بوبي! أريدكَ أنْ تكون منتبها لِ الكهوف التي سَنراها حين دخولنا إلى أذرعات (درعا)، فَ هناك كان الراهب النصراني(ياماإيل) يتعبَّدُ في أَحَد الكهوف المنتشرة على طريق القوافل القادمة و العائدة من، و إلى، بلاد الهند والسند مرورا بِالحجاز إلى بلاد الشام. بعد أيام عديدة من انطلاقهما من البتراء، أو بِ الأحرى من تخوم البتراء، دخلا إلى حقول و بيارات و كروم أذرعات. كانوا على تخوم درعا من الجنوب. كانت غابات البلوط و الكينا و الخيزران و الزان التي كانت أشجارها تَشقُّ منافذها من تحت الصخور البازلتية لِ تعانق سماء الشام جنوبا، كانت تحيط بِ الحقول والبساتين، وفي بعض الفسحات منها كانت المغاور والكهوف تتراءى لِ المارّة، ذهابا و إيّابا، من هناك. أشار بوبي إلى صديقه أنْ يسلكوا دربا جانبيا يؤدي إلى منطقة فيها جبال خضراء ذات ارتفاعات منخفضة تكتسي بِ النباتات و الأجمات والأشجار المثمرة. في أسفل وجوانب تلك الجبال و المرتفعات كانت توجد دروب عديدة تؤدي إلى أماكن عديدة من أذرعات، و كان من تلك الدروب طريقا عريضا تسلكها القوافل التجارية من أنحاء متفرِّقة من البلدان المجاورة. على يسار هذا الطريق يوجد طريق أضْيَق يؤدّي إلى تَلَّة طولانية يرتفع ظهرها، من بين الأشجار و الشجيرات، كَ سنام جَمَل فتيّ. تنتشر صخور بازلتية ضخمة فوقها، بعضا منها كانت محفورة على شكل مغاور، والبعض الآخر كانت على شكل كهوف بِ فعل الطبيعة و قوتها الجبّارة. من هناك كان المرء يرى كلّ الكائنات التي تتحرَّك على الطريق العريض، طريق القوافل، و الطرقات الضيقة في الشِعاب و التخوم المحيطة. صَعدَ بوبي إلى تَلَّة

ياماإيل، كان الأهالي قد ورثوا هذا الاسم من قدمائهم، وشرعَ في الطواف بين الأجمات والأخاديد والكهوف المنتشرة يمينا ويسارا. كان ناريك يتبع خُطى صديقه صعودا باتجاه التلَّة. في الأثناء ظهرَ بوبي من بين الشجيرات في منحدر التلَّة وراح يقفز أمام صديقه قفزات متواترة. قَرْفَصَ ناريك أمامه و راح يداعب راسه مستفسرا.

– ما بكَ يا صديقي، هل تَعَرَّضتَ لِ مخاطر يا بوبي؟

– لا..لا يا ناريك لا شيء من هذا القبيل! إنَّ الذي جعلني في هذه الحالة هو أنَّني رأيت خيالا، أو شبحا لِ إنسان يخرج من كهف فريد في تكوينه، الكهف الذي وجدته هناك يبدو أنَّه كان لِ ناسكٍ صبور متصالح مع الحرمان و الآلام الجسدية. هيا نصعد إليه ربَّما يكون هو نفسه الهدف الذي تبحث عنه، أو ربَّما يكون دليلا مساعدا لِ معرفة المكان المنشود. سبَقَ بوبي صديقه إلى ظَهْرِ التلّة، وتبعه ناريك إلى المكان الذي أثار فضوله. هناك فوجِئ لِ ما رآه. كهف في صخرة ضخمة، فيه آثار تَدلُّ على فَرْزه إلى أقسام، وفي العمق كانت توجد آثاراً تدلُّ على حيوية الناسك المتعبّد الذي كان قد اختار هذا الكهف. و في الحال، و هو أمام هذا الصرح المقدَّس، عادت ذاكرته النشطة إلى المخطوطات التي كان قد قرأها والتي كانت تتحدَّث عن سيرة الراهب يامَاإيل. و بحسب المخطوطات تلك، كان شابا في الخمسينات من عمره، كان معتكفا في صومعة في حوران. قويّ البنية ذي قامة معتدلة، خَطَّت لحيته السوداء خصَل بيضاء أضْفَت هيبة على سماره الشرق أوسطي و عيونه السود الاوساع ذات الرموش الطويلة. كان يرتدي سترة، أو عباءة سوداء طويلة تصل إلى القدمين تكاد تغطيهما، ويربط خصره بِ حزام، أو بِ الأحرى، بِ كَمَرٍ مصنوعٍ من الصوف المجدول مع شرائط من الحرير القرمزي، و ينتعل صندلا يونانيا بِ لون الزيتون الأخضر. كانت صومعته عبارة عن كهف في صخرة ضخمة، وكان قد رَتَّبَ الفسحة وقَسَّمها إلى منامة ومكتبة ومطبخ. مكتبته كانت تضمُّ مخطوطات جلدية ومخطوطات من ورق البردي، ورُقم هيروغليفية وسريانية و لاتينية. خلف الصخرة وعند مدخل الغابة كان قد صنع ما يشبه الكوخ لِقضاء حاجته. الراهب ياماإيل كان يصوم أربعة أيام في الأسبوع، و في أيام الصيام تلك، كان يقتصر طعامه على الخبز و الماء. الكائنات السماوية كانت قد أَخْبَرَتْه عن وجود أسماك برية تحت الأرض، و عَلَّمَتْه كيفية اصطيادها، أو بِ الأحرى، كيفية استخراجها من تحت الأرض و هي حَيّة. و هكذا، كانت لديه كمية من السمك المدَخَّن، و مخزون، لا بأس به، من الجراد المجَفَّف و عدة قطرميزات من مخلَّل شرانق القزّ. خَلْفَ صومعته، في الغابة المطلّة على صخرته، كانت تنمو أصناف من الفطور البرية. كان قد استدلَّ

على السامَّة منها، بِحكمِ التجربة والخبرة. لذلك كان يلتقط غير السامَّة منها بِ سهولة، و كان يُفَضِّل الورديّ منها. كانت توجد، أيضا، بضعة أوكار من خلايا النحل، حيث يقطف العسل الأسود مع يرقات النحل المغموسة في شمعها الطريّ. إنَّ مكوّنات طعامه، في الأيام التي لم يكن فيها صائما، كانت كفيلة بِ تزويده بِ الطاقة اللازمة لِ الحفاظ على قوته و حيويته. كان الراهب ياماءيل متبحّرا في الماورائيات و الغيبيات، وكان يُحاجج في أعقد القضايا اللاهوتية. لم يكن يعتقد بِ نظرية الشمس تجلّياته من الضوء والحرارة. لم يقتنع بِ فلسفة الثلاثة في واحد. كان يتَّصل بِ الكائنات السماوية. كان يتقنُ قراءة الرموز التي ترسمها الأفلاك و النجوم في صفحة السماء. التفتَ ناريك إلى بوبي سائلا إيّاه ما إذا كان قد رأى أحدا يخرج من الكهف، أو كان يحوم بِ جواره، وحين أكَّدَ بوبي مشاهدته له، قَرَّرَ ناريك أنْ يبيتَ في هذه التخوم، إمّا في الكهف نفسه أو في كهف آخر في جواره. كشفَ نيَّته لِ بوبي مع استشارته في هذا الأمر.

– أفَضِّلُ المكوث في هذا الكهف يا ناريك! قال بوبي.

وافق ناريك على رأي صديقه. دخل الكهف بِ بطء، و من ورائه كان بوبي يستكشف الأرجاء والزوايا. راح ناريك يتفقَّد الكهف بِدقَّة متناهية. في الفسحة بعد المدخل كانت توجد مصطبة(دكَّة) بارتفاع ثلاثة أرباع المتر من الأرض وعرض 70 سنتمتر، كانت مشغولة بِ حِرَفيَّة معلِّم ماهر في البناء. كانت هناك بقايا خشبية منخورة ومفتَّتة مبعثرة على الأرض أمام المصطبة المصنوعة من جسم الصخرة ذاتها. اعتبرَ هذه الفسحة بِ مثابة قاعة مطالعة، فَ المصطبة هي، بِحسب تفسير ناريك، مقعد الجلوس، أمّا بقايا النثار الخشبية أمام المصطبة فَ هي بِ التأكيد الطاولة التي كان الراهب يستعملها لِ القراءة و الكتابة. ألقى نظرة فاحصة على الجدران و الأَسقف في المدخل الأمامي والفسحة الداخلية التي كانت بِ مثابة غرفة نومه، وجدَ بعض الشقوق الطولانية في جدران المكتبة، أمّا في غرفة النوم، فَلاحظَ كتابات بِ السريانية و العبرية محفورة نقْرا على الجدار الملاصق لِدكّة نومه قريبة لِ جهة رأسه. هنا، وأمام هذه المشاهد والآثار المبعثرة في أرجاء الكهف، رأى بِ أنَّها تتطابق مع الوصف الذي قرأه في المخطوطات المتعلِّقة بِ سيرة الراهب ياماإيل، و تأكَّدَ الآن، بل وصل إلى يقين تام، من أنَّ هذا الكهف إنْ هو سوى كهف الراهب ياماإيل نفسه. رَتَّبَ ناريك أغراضه في الكهف واتَّخذَ الدكَّة الداخلية كَسرير للنوم مستفيدا من أغصان الأشجار والأعشاب الخضراء الطريّة، إذْ أنَّه شَكَّلَ منها دَوْشَكا لَيّنا لِلتسطّح والنوم عليه. أَمّا الدكّة التي في الفسحة الأمامية، عند مدخل الكهف، فَ جعلها مقعدا يجلس عليه أثناء القراءة و الكتابة و التأمُّل. في الليلة الأولى من نزوله في الكهف راح في نوم عميق إلى أنْ استفاق على أصوات

الطبيعة مع الفجر، حيث تبدأ الطيور و الدواجن و عناصر الكون كلّها بِ التفاعل مع إيعازات مايسترو الطبيعة. عند شروق الشمس علَّقَ حقيبته على كتفه وأمسك عصاه و خرج إلى الغابة خلف الكهف، حيث مساحة من الأرض، قبل الغابة، كَأنَّها بستان فيها بعضا من الأشجار المثمرة و مستعمرات من أزاهير وردية اللون بين نباتات و أعشاب خضراء تشبه السلق الأخضر والجرجير و الهندباء. عَثَرَ على خلية نحل في فجوة بين جذع شجرة سرو عملاق و صخرة ملاصقة لِ جذعها. حصل ذلك حين رأى عددا من نحلات برية ترشف من رحيق الزهرات الوردية، و لأنَّ المشهد كان جميلا، و وجود النحلات هنا أثار اهتمامه وشجَّعه على تعقُّب مساراتها إلى أنْ وصل إلى قرص العسل الأصفر داخل الوكر في الفجوة الطبيعية. قطع جزءا من قرص العسل وجمعَ كمية من تلك النباتات وكؤوس الزهرات الوردية مع بتلاتها المتدرِّجة بِالألوان، بدءا من البنفسجي في الجزء السفلي من البتلات مع الكأس التي تحتضنها، و اللون الوردي إلى منتصفها حيث يأتي البرتقالي الفاهي و ثم الأبيض في الأعلى منها. أثناء انحدار الشمس نحو المغيب، كان في جولة استكشافية، مع صديقه بوبي، في تخوم الكهف وتعزَّزَت قناعته السابقة، من خلال بعض اللقى و الآثار، من أنَّه نازل في صومعة الراهب النصراني ياماإيل. إننا في الجولة الأخيرة من رحلتنا يا بوبي! قال ناريك، و أضاف:"لا بُدَّ لنا من الحصول على إِشارة،أو معلومة تكشف أسرار الله الذي زلزل الشرق، وتاليا العالم كلّه".

-2-

-عودة الأشباح من زوابع العَجاج-

في المساء، بعد أنْ تناول قليلا من العسل مع بتلات من الزهرات الوردية، قعد على دكّة المطالعة و راح ينظر، من مدخل الكهف، إلى الأفق الذي ما زال يعكس الأشعة البرتقالية من الشمس الذي ينزلق إلى الطرف الآخر من الأرض. كان الظلام يتسلل من قبّة السماء على الأشعة التي كانت تتلاشى رويدا رويدا. أخذ قبضة من الزهرات مع تويجاتها وراح يمضغها بِ بطء. مشى باتجاه الخارج متكئا على عصاه و في جيبه كميّة من بتلات الخشخاش السحري. استفقد صديقه، لكنَّه لم يخشَ عليه، فَالمكان خالٍ من الضواري بِسبب قربه من مناطق مأهولة، فَ أهالي المنطقة لم ينقطعوا من زياراتهم لِ هذا الكهف، فَ هم توارثوا، من آبائهم وأجدادهم، قصة الراهب اليهودي ياماإيل الذي كان يتعبَّد فيه. تابع طريقه إلى يمين الكهف حيث أشجار الجوز و الصنوبر و الغار والسنديان و التوت الأحمر القاني. كان يحسُّ بِ دغدغة في دماغه. صارت الطبيعة تتراءى له في ألوان مزركشة و بدأ يسمع موجات فوق صوتية، و يرصد حركة أغصان الأشجار وحفيفها. كان يسمع فديد أجنحة الطيور البعيدة غير المنظورة، وحتى إنَّه كان يسمع أنفاس العصافير والفراشات التي خلدت لِلنوم كَ عادتها. راح يتهامس مع كائنات غير مرئية، أو كائنات لا يراها سواه. لَقَّمَ كَمشة من البتلات الوردية في فمه. كانت القمر في أوج جمالها، ذات وجه نقيّ شفّاف مرسوم في القرص البرتقالي الصاعد من الأفق إلى مملكة الحُبِّ حيث العشّاق مزروعون في دروب العشق المؤدية إلى عرش الحُبِّ و الجمال. كان ينظر إليها كَ مَن ينظر إلى عشتار، أو أورنينا، أو أفروديت. جلس تحت السنديانة وأَسندَ ظهره إلى جذعها. تَلَمَّس الأرض بِ كَفّيه. دَعَكَ ظهره بِ الشجرة لِيتأكَّدَ من أنَّها ثابتة في مكانها وأنَّه، هو الآخر، ثابت مع الشجرة، فَ الأشياء كانت قد بدأت بِ اتخاذ مناحٍ غريبة، كانت تدور أو تتحرَّك أمامه و من حوله. رأى النجوم تتراقص حول موكب عروس السماء، و رأى جوقة من المنشدين يحيطون بِ

عرش العروس و يعزفون سريناداتٍ ليليَّة تملأ موسيقاها طبقات السماء و فضاءات الكون. كان ينظر إلى الأزواج من العشاق الذين يؤدّون الفالسات بِ رشاقة و جمال خارق على مسرح عشتار هناك بِ القُرْب من مدار الجدي على يمين برج العذراء.
حاول التحدُّثَ إليهم، أراد أنْ يسألهم عن الكهف و عن الناسك اليهودي ياماإيل، أنْ يستفهم منهم ما إذا كانوا يرونه في كهفه، أو في الحديقة الخلفية، أنْ يستفهم منهم ما إذا كان قد رحلَ أو قُتِلَ أو أُفتُرِسَ أو مات ميتة طبيعية. هَمَّ في الكلام مع عروس السماء نفسها، لكنَّه قبل الشروع في الكلام، أخذَ ما تَبَقَّى من زهرات الأحلام و الخيال، بتلات الخشخاش الوردي ووضعها في فمه. كان القرص البرتقالي قد صعد إلى الأعلى وصارت تضيء بِ اللون الأبيض الفضيّ، لون الفلورسانت. نزلت العروس من العرش وراحت تمشي بِ اتجاهه. كانت تَشعُّ نورا فوق جمالها، و تسحبُ فستانها الأبيض من خلفها وسْطَ وصيفاتها اللائي ينشدن أغاني الحُبّ و يرتلنَ أناشيد الخير و السلام و المحبَّة. في الأثناء، رأى عاصفة هوجاء تَهبُّ خَلْفها و تقترب منها. راح يصرخ مُحذِّرا طالبا منها الهروب والاختباء، فَالعاصفة كانت قد اقتربت، والجحافل التي كانت تحمل الفؤوس و الخناجر و السيوف و مشاعل النيران كانت تصرخ و تلوّح بِأسلحتها الفتّاكة، كانت تَشْتُم عروس السماء، قمر الحُبِّ والسلام. التفتت العروس ناحية العاصفة وراحت تباركهم وتنشدُ تراتيل الحُبِّ والسلام والخير والحياة، لكنَّ الجحافل الهائجة لم ترَ أمامها سوى الصورة التي لُقِّنَت و رُسِمَت في أدمغتها من قِبَل أسيادها مخترعي الشرور والكراهية. لقد هجمَ هؤلاء الغوغاء عليها. حين رأهم في حالة الهجوم، أطلقَ صرخة مدوّية، قفز في الهواء محاولا الوصول إليها لِ حمايتها من هؤلاء المهاجمين، لكنَّه لم يتجاوز شبرين من أمام السنديانة، في الأثناء رأى خيال ثلاثة أشباح من خلف الجموع الهائجة يرتدون جلاليب ترابيَّة اللون(هكذا تراءى له اللون من هذه المسافة)، كانوا يسيرون تحت رايات سوداء مرسوم عليها جماجم بشرية وسيوف متقاطعة. سمعَ صوت صديقه يقول له: إنَّ الأشباح التي تراها، هم قادة هؤلاء الرعاع، هم الذين يصدرون الأوامر إليهم. تعال اصعدْ فوق ظهري حالا!. اندفع بوبي في الهواء متجاوزا الجموع الهائجة. تقابل مع الأشخاص الثلاثة وجها لِ وجه. قفزَ عن ظهر بوبي إلى فسحة أمامهم، حيث دار الحديث بينهم بِشكل مباشر. ألقى ناريك السلام لهم وبادر بِ الكلام قائلا:" أنا ناريك و هذا صديقي بوبي! إنَّنا رأينا هؤلاء الجموع تهجم على عروس السماء، إنَّهم سَيقتلونها بِالتأكيد، و لِ أنَّنا، أنا وصديقي، نحبُّها و لِ أنَّها تبعثُ السلام و الطمأنينة في نفوسنا، و تملأُ أرواحنا بِ الحُبِّ و السَكينة، و لِ أنَّنا وجدنا بِ أنَّكم أنتم المسؤلون عنهم وأنتم الذين تُسَيّرونهم وتملؤون أدمغتهم بِ تعليماتكم و توجيهاتكم،

لذلك جئنا إليكم طالبين منكم مَنْعَهم من قتلِ رمز الحُبّ و السلام(القمر)، هذه العروس الحلوة التي تزيّنُ السماء بِ جمالها و نورها المقدَّس.

كانوا ثلاثة أشخاص، رجلان و امرأة، الرجلان يرتديان ثياب رهبان و قسّيسين. الذي في الوسط، كان يضع شالا حنطيّ اللون على رأسه، و من تحته تلمع عيون سوداء و خدود متورِّدة تظهر من تحت جلده الناعم شرايين حمراء دقيقة تُجاور لحيته البيضاء التي تغطي نحره. يحمل عصىً بنيّ اللون، في يده اليمنى، ينتهي بِ رأس أفعى، و كتابا أسودا في يده اليُسرى ممهورا بِ خَتْم فيه شكل كَ الذي مرسوم على الرايات السوداء. على الطرف اليمين منه، كان الشخص الأصغر يعتمر قلنسوة سوداء و يحمل مخطوطات صفراء اللون مربوطة بِ ريبان بنفسجيّ في يده اليسرى، أمّا عن يساره، فَ كانت إمرأة ترتدي عباءة خمرية و تَشدُّ خصرها بِ كَمَر برتقاليّ اللون و تعتمر كوفية مزنَّرة بِ شبكة ذهبية ناعمة تتدلّى منها صفائح رقيقة مستديرة فضيّة على داير رأسها، و تُزَيّنُ أذنيها بِ أقراط ذهبية فيها أحجار من زمرّد بنفسجيّ و عقيق فيروزيّ. على صدرها، يلتفُّ جنزير(سلسلة) من ذهب أحمر ثلاث لفّات، و ينتهي بِ شراشيب تحمل أحجارا كريمة، و في معصميها برمات من أساور الذهب الخالص. كانت عيونها سوداء و قد بَدَتْ أوسع و أكبر من الطبيعي بِ سَبَبِ التكحيلة الواضحة و المبالغ فيها. كانت الأوشام مرسومة على خدودها، أرنبة أنفها و استدارة حنكها، إنَّها تُشير إلى جذور قبيلتها ورموز معتقدها الديني. واحد منها كان على شكل صليب فرعوني مرسوم على خَدِّها الأيمن، و واحد آخر مرسوم على خَدِّها الأيسر على شكل خيمة، أو هيكل قائم على أعمدة واضحة، و ثالث الأوشام كان مرسوما على استدارة ذقنها الملساء آخذا شكل شمعدان، أَمّا على أرنبة أنفها، فَ كان الوشم عبارة عن نقاط خضراء اللون موضوعة على رؤوس نجمة سداسية صغيرة. حين رأهم ناريك عن قُرْب، لباسهم الكهنوتية، أوشام المرأة، أساورها، أقراطها و كوفيتها المزنَّرة، عرف بِ أنَّهم يهود من سبْط يوسف. تقدَّمَ الرجل الأكبر سنّا و راح يتمعَّن في ناريك و بوبي. حَوَّلَ الكتاب إلى الشخص الذي على يمينه. أَمالَ عصاه إلى الأمام قليلا و أَسْنَد كَفَّيه على رأس الأفعى مُدَقِّقا المشهد كلّه. قال بعد لحظات من التأمّل:

– إذن يا ناريك أنت تريد الحفاظ على القمر، تريد سيادتها على غيرها من الكواكب و النجوم! لَ علَّكَ نسيتَ بِ أنَّ الشمس هو السيّد الأوحد المطلق، أوَ نسيتَ زمنَ تتويجه على عرش الكون و انتشار كلمته، روحه، شريعته و ثقافته بين البشر؟ لقد تمَّ إزاحة القمر إلى الظلِّ، فَ شريعتها و ثقافتها لا تصلح، بل، لم تَعُدْ تلائم العلاقات بين البشر، لم تَعُدْ تناسب طبيعة الحياة على هذا الكوكب. فَ لا يمكن لِ الإنسان أنْ يتبع

مصدرا باطنيا أموميا ولّادا متغيّرا لا يمكن تحديد مكانه و شكله في كلِّ الأوقات، أمّا الشمس، فَ هو واضح و ثابت، وكلُّ الكائنات تعرف مكانه في كلِّ الأوقات والأزمان، و لذلك يجب أنْ تنساها يا ناريك! و الآن قُلْ لنا و بكلِّ صراحة، عَمّا كنتَ تبحث في رحلتك هذه؟ ما الذي كنتَ تريد معرفته من فزّاع، و ماذا تريد من الكهف الذي مكثتَ فيه أنتَ و بوبي؟

– إنّي انجررتُ، رغما عنّي، إلى هذه الرحلة حين بدأتُ أستمع إلى ما كان يقوله العم بيدروس في الأمسيات الدينية التي كنتُ أحضرها و أنا طفل صغير، حين بدأتُ أُفكِّرُ فيما كان يقوله، وحين بدأتُ أطرح الأسئلة حول ما كان يقول. الآن وصلتُ إلى السؤال الأخطر على صعيد الإيمان، ألا و هو التالي: مَن هو البيركليتوس(Perikletos)?. لقد لخَّص ناريك نتائج اكتشافاته و أبحاثه التي استمرَّت لِ عقود من الزمن في هذا السؤال، واكتفى به. و قبل أن يبدأ الكبير بِ الإجابة على سؤاله، قفزَ بوبي إلى الأمام و طرحَ السؤال التالي: هل الكهف الذي نام فيه جَدّي مع ثلاثة، أو خمسة، فتيان يقع في تخوم الكهف الذي نزلنا فيه، و ماذا كان معتقدهم، جنسهم و دينهم؟

تبادلوا الأنظار، و عقدوا خلوة فلكيّة فيما بينهم و اتفقوا على قول الحقائق و الأحداث كما حصلت، اتفقوا على كَشْفِ حقيقة البيركليتوس، حقيقة المنقذ الممجَّد المعظَّم المحمَّد. نقلَ الراهب الأصغر سنّا المخطوطات التي كان يحملها في يده اليسرى إلى اليمنى التي كان يحمل بها كتاب القس حين أعطاه إيّاه، و بدأ بِ الحديث قائلا:

– أهلا بكَ في ممالكنا، في فضاءاتنا التي نسبناها إلى كائن وهمي مُتَخَيَّل! أنا هو الذي تبحث عنه يا ناريك، أنا الراهب ياماإيل! كُنّا نتتبَّع خُطاك في كلِّ الأمكنة التي دخلْتَها، من الشمال إلى الجنوب و من الشرق إلى الغرب، و مجَدَّدا من الجنوب إلى الشمال. إنَّ المنقذ الذي تبحث عن حقيقته هو ابني. حصلَ ذلك عندما كنتُ في مهمة لاهوتية إلى الحبر الأعظم القس ورقاإيل في كهوف الحجاز، و أشار إلى القس مع انحناءة احترام و وقَار، و هناك سقطتُ في خطيئة الزنى مع واحدة من صاحبات الرايات. لم أستطِع إخفاء الأمر عن الحَبْر الأعظم، لقد شرحتُ له الظروف التي أدَّتْ بي لِ الإنزلاق في طريق الخطيئة، أمّا القس، فَ فرضَ عليَّ استتابة كهنوتية صارمة. و بعد ولادته، تَمَّ ترتيب كلّ الأمور المتعلِّقة بِ مستقبل ولدي بِ دقّة متناهية. قَرَّرْنا بِ أنْ تتزوَّجه ابنة عمّ القس الجليل، خديلّا. التقيته مرتين هناك في صومعتي التي نزلتَ فيها. في المرَّة الأولى كان عمره أربعة عشر عاما، وحينها أدخَلتُ فكرة التمجيد و النبوَّة في ذهن كفيله الذي كان قد تبنّى إعالته، و فيما بعد تَكفَّل الحبر الأعظم بِ الخطوات التي صَنَعت منه قائدا ثمَّ نبيّا، طبعا بِ التعاون مع خديلّا التي أكَّدَت له بِ أنَّه سَ

يكون نَبيَّ النصارى و العربان، و هكذا عملْنا سويّا و كتبنا، أو بِ الأحرى جمعنا نصوصا من كتب أسلافنا، أضفنا، حذفنا، غيَّرْنا و حَرَّفْنا محتويات تلك الكتب و جعلناه كتابا مقدَّسا مكتوبا بِ يَد الله و بِ اللغة السائدة آنذاك، و هكذا أصبح ولدي، الذي أَسْمَيناه (نوا)، هو المنقذ المخلِّص المُمجَّد المُحمَّد. تكلَّمَتْ خَديلّا عن زوجها، عن الإرهاصات التي كان يَمرُّ فيها و الرؤى التي كانت تأتيه في اليقظة و المنام، و العفاريت التي كان يراها بين يوم و آخر، و كيف أَنَّها أَقْنَعته بِ أَنَّ العفاريت التي يتحدَّثُ عنها إنْ هي إلّا ملائكة مُرْسَلة من لدن الله، و تحدَّثت عن إخلاصه لها في جميع مناحي الحياة. قالت:" كنتُ أَستعين بِ ابن عمّي القس في موضوع تعليمه و تلقينه الآيات التي كنّا ننتقيها من كتب أسلافنا و من بعض شعراء عكاظ، طبعا مع التزوير و التحريف، و كان ابن عمّي يُلَقِّنه الجُمَل و يطلبُ منه أنْ يقول لِ أتباعه بِ أَنَّه يتلقَّاها من ملاك يُرسله الله إليه، و الذي أعطاه اسما غريبا(جبريل) غير موجود لا في التوراة و لا في الزبور و لا في الإنجيل. هناك مسائل كثيرة تَمَّ اختلاقها لِ إتمام هذا المخطَّط الخطير، ألا و هو صناعة ديانة عنصرية، عنيفة، حاقدة و إرهابية تُعادي كلَّ الأديان و المعتقدات الأُخرى السابقة عليها، و يمكن لِ ابن عمّي القسّ ورقاإيل (قَس مكّة) أنْ يوضِّح جوانب خَفيَّة في هذه المسألة. في الأثناء، عَدَّلَ القسّ من وقفته و أخذَ الكتاب من الراهب ياماإيل بِ يده اليُسرى و راح يقول:

– أنتَ تبحث عن حقيقة ما قرأتَ و سمعت من حكايات وقصص عن الله و مملكته، عن الجنة والجهنَّم، عن كيفية الخَلْق، وعن شرائع الله، أنبيائه، رسله و دساتيره، و عن الأديان الأخيرة المتداخلة، المتناقضة و الخيالية. إنَّ الأديان الثلاثة، التي نبتت هنا في هذا الشرق، هي من صناعتنا، من صناعة العقل الذي انتصر على عقول الفراعنة و الآشوريين و الفرس و الفينيقيين و الأورارتيين، طبعا بِ الاستفادة من منظوماتهم الأخلاقية، القيَمية، الفلسفية، العقائدية و الدينية، إنَّها(الأديان الثلاثة التي أَسْمَيْناها بِ الديانات السماوية) من عقل أسلافنا الذين خطَّطوا لِ إنقاذ الشعب من الأسْرِ و الظلم و الاضطهاد ليس بِ السلاح، و إنّما بِ العقل، بِ السيطرة على عقول الآخرين، على تفكيرهم، أرواحهم و إراداتهم. و السلاح الفتّاك الذي صنعناه، بعد تجربتين فاشلتين، هو هذا السلاح، هذا الكتاب(و رفعه عاليا بِ يده اليسرى). أمّا هؤلاء الذين، تكلَّمتَ عنهم يا بوبي و قلتَ بِ أَنَّهم ناموا، مع جدِّكَ الأوَّل، في كهف لِ مدَّة ثلاثمئة ستة، أو أربعمئة سنة، فَ لَ عمري إنَّها أَطرف خرافة صنعها أجدادي، و جعلها حكاية يُصدِّقها المغفَّلون إلى هذا اليوم. كما ترى يا ناريك، إنَّ أجدادي قد تَحكَّموا بِ عقول أجدادك، لا بل، بِ عقول سكّان هذا الكوكب، و لكي لا يذهب تعبك

سدى ها أنذا أُقَدِّمُ لك هذا الكتاب الذي أُضيفَت إليه نظرية تأسيس العصابات الإرهابية، و مبادئ غرائزية لا أخلاقية حاقدة و كارهة لِ الآخر المُخالف. و ليكن معلوما لديك يا ناريك بِ أنَّنا لسنا نحن مَن قال، أو لَفَّنَ، أو كتب تلك الملاحق المخزية، المنحطة و التي دخلت في متن هذا الكتاب. إنَّ الذين كتبوها هم بنو العَبّاس الساسانيين بعد حوالي القرنين من مغادرتنا لِ الأرض إلى هذه الممالك. أمّا تلك المخطوطات الصفراء التي يحملها الراهب ياماإيل، فَ هي تكشف أسرار و خَبايا نشأة جيش نوا بن ياماإيل، الذي لُقِّبَ بِ المنقذ المحمَّد، هي الأُخرى نُقَدِّمها لك هديّة، لكن عليكَ أنْ تُدركَ بِ أَنَّ مفاعيل هذا الكتاب و هذه المخطوطات سِ تبقى ناشطة، و أنَّ هذا الجيش المحمَّدي، جيش نوا بن ياماإيل، سَ يبقى كما بذرة البرباريه(PRPARE) و الفطر و الأرانب في تكاثرها، و كما الذئابب و الضباع في غدرها و وحشيتها.لا توجد قوّة تحت الشمس بِ إمكانها الحَدَّ من استباحة الجيش المحمدي لِ الحياة ما دمنا نحن أحياء في هذا الكتاب و هذه المخطوطات وما دامت هي في متناول(جيش نوا) المُغَيَّبين. طلبَ القس من ياماإيل بِ تقديم المخطوطات الصفراء مع الكتاب الأسود إلى ناريك. تقدَّم الراهب و في يديه الكتاب و المخطوطات لِ يُسلِّمها إليه، في الأثناء هجمَ هؤلاء الذين كانوا قد غرسوا، لِ التوّ، سيوفهم و خناجرهم في قلب عروس السماء، القمر (عشتار)، و منعوا تسليمها لِ ناريك. كانت دماء عشتار تقطر من سيوفهم. أمسكوه مع صديقه بوبي، و قذفوهما بِ اتجاه الهاوية. تَمسَّكَ ناريك بِ حوافِّ الكوكب و إلى جانبه بوبي متمسِّك، هو الآخر بمخالبه، حيث العتمة الليلكية و نقاط ضوئية تبرق في أرجائها. كان يسمع ضحكات القسّ والراهب و خديلّا تبتعد رويدا رويدا، و كانت الكلمات الأخيرة التي نطقها ياماإيل قد سمعها بِ وضوح تام، حيث قال:" اذهب يا ناريك و أَخْبِرهم بِ ما سمعته عن ابني نوا المعظَّم المحمَّد، و قُلْ لهم بِ أنَّه سَ سيستولي على هذا الكوكب، و كلّ الكواكب و المجرّات التي سَ تطأها أقدام جنوده الشرسين عشّاق الموت و النكاح". و قبل أَنْ يغيب الثلاثي (القس ورقاإيل و الراهب ياماإيل و خديلّا)، صَدَحت أصوات رخيمة قادمة من الركن الأيمن، حيث حنتور ذهبي يحمل كائنا بشريّا متوَّجا بِ إكليل من أغصان الغار و أوراق من سعف النخيل مع مسحوق من رمال أورانوس و ماسات بَرّاقة من تخوم المجرَّة اللبَنيَّة. كانت هالة نورانية تَشعُّ فوق رأسه، و الحنتور تَجرُّها كائنات نورانية تنشد قصائد مكرَّسة لِ الأمّ الكونية فيرجين، كانت كلماتها تقول:"مباركة أنتِ من بين عناصر الحياة كلِّها. لقد حَبلتِ من بذور المياه البدئية. حَبلتِ دون أنْ يَمسُّكِ رَجُل. حَبلتِ بِ قوّة الطاقة البدئية. إنَّكِ الآن تحملين أَجنَّة جنسٍ جديدٍ، إنَّه من سلالاتنا المنتشرة في هذه الأكوان و المجرّات و

الخلاءات المرئية و اللامرئية. إنَّكِ أُمُّ الحياة الجديدة التي سَ تَحلُّ مكان هذه التي في طريقها لِ النهاية و الفناء الأكيد. إنَّكِ تُدْعين، الآن، فيرجين. لكنَّكِ أنتِ نفسكِ هي القمر، عشتار، إيزيس، أفروديت، فينوس و آناهيد. نحن حُرّاس طيفكِ هنا في هذه الفضاءات، و حُرّاس الأجنَّة التي تحملينها في أحشائك. سَ تبقين في غيبوبة النشوة السماوية هنا بين سلالاتنا الفضائية. سَ تمْطِرين أَجِنَّة الجنس الجديد من أحشائك على الكوكب الذي صَعَدْتِ منه إلى عوالمنا".

لقد سمعَ القسّ الترتيلة التي كانت تنشدها جوقة الأم الكونية، وسمع كلماتها بِ وضوح تام و التي سَبَّبَت له صدمة هائلة ممّا أدَّتْ به لِ الرجوع والسير بِ اتجاه ناريك عند حافَّة الكوكب الذي يتدلَّى من طرفه المُحَدَّب. التفتَ ناريك إلى صديقه مندهشا ممتلئا بِ السعادة الروحية و هو يقول:"إنها فيرجين يا بوبي!... إنَّها فيرجين ابنة بلدتنا التي سَتقضي على جحافل الموت، سَ تقضي على الكراهية، على الحقد، القتل و الإرهاب، سَ تقضي على أشباح الثلاثي و شبح ابن الراهب نفسه، نوا الملقَّب بِ أل محمد".

في الأثناء، كان القسّ و أصحابه قد وصلوا إلى حيث ناريك مُعلَّق في المكان الذي قُذِفَ إليه. نظرَ القسُّ إليه و هو يقول:"هل رأيتَ ذلك الموكب المهيب؟ هل سمعتَ ما قاله ذلك الشخص القادم من هناك؟ لا أدري إنْ كنتَ سَ تصدِّقُ ما قاله عن الجنس الجديد و عن الآلهة؟! في كلِّ الأحوال، نحن قرَّرنا إعطائك هذا الكتاب الأخير الذي كتبه الله، و الذي وضعَ فيه الشريعة التي ألغَت كلّ الشرائع السابقة عليها، هذا الكتاب يدعو البشرية كلّها، و بِ وضوح تام، غلى اتِّباع الشريعة نفسها تحت طائلة القتل لِ مَنْ يرفض الانصياع لِ أَمْرِ الله".

كانت أصابع يديه ترتخي و كانت قبضته تنزلق بطيئا. كانت رجليه تنوس، متدليّة، من أطراف الكوكب. بِ الكاد استطاع بوبي، الذي كانت قوائمه الخلفية متدلّية في الفراغ الكوني إلى جانب أرجل صديقه، أنْ يقترب منه. في الأثناء كانت يد ناريك اليمنى قد ارتخت كليّا، و اليسرى كانت تنزف جَرّاء احتكاكها بِ الأحجار الكوارتيزية و كان في طريقه لِ السقوط الحتمي. أَدار رأسه بِ اتجاه صديقه، حيث كان بوبي يُزلقُ نفسه إلى جانبه، و قال له:" ها إنَّهم يريدون تحميلي كتابهم و مخطوطاتهم الصفراء لِ إلزام الناس بِ اتباعها، كما قال القسُّ، لقد سمعتَ الرواية من المؤسِّسين يا بوبي، لكن لِ الأسف سَ تبقى طَيّ الكتمان لأنّنا في طريقنا إلى هذا الفراغ الكوني و لا أدري على أَيّ كوكب سَ نستقر يا صديقي. كم كنتُ أريد تبليغ هذه المعلومات السريّة لِ الخال برصومو والعم بيدروس، و كم كانوا سَ.... و عند هذه الكلمة التي لم يستطِع إتمامها، لأنَّه رفع يده اليسرى لِ استلام الكتاب الأسود و المخطوطات االصفراء من الراهب

ياماإيل والد نوا، وفي الوقت نفسه انفكَّت أصابع يده اليمنى من تراب و أحجار الكوكب و انزلقَ نحو الهاوية حيث الظلام البدئي بِ لونه الكحليّ يلفُّ الأكوان و النجوم و الكائنات الفضائية. أراد أنْ يلحق الموكب الذي صار على بُعْد دقائق ضوئية منه. امسك بِ رقبة بوبي، الذي كان، هو الآخر، قد سقط معه، آمرا إيّاه بِ الانطلاق نحو موكب فيرجين، لكن بوبي كان قد أمسى جثة هامدة تتحرَّك بِ فعْل العطالة في ذلك الفضاء السرمدي. أَطلقَ صرخة من أعماقه بِ اتجاه بوبي و الأفلاك جميعها:"أَلا ليتني كنتُ ترابا و لم أشهدَ موتكَ يا صديقي العزيز. عُدْ إليَّ يا بوبي!" في الأثناء سمعَ نباح بوبي حيث كان مقعيا أمام أرجله عند شجرة السنديان التي يسند ظهره إليها. ابتسم في سرِّه و راح يدلك رأس بوبي و رقبته بِ رفْق.

-3-

كان ناريك يدلك رأس بوبي و هو غارق في التفكير. استحضر صوَرَ الشخصيات الثلاث الذين التقاهم هناك في السماوات فوق السُحب و الغيوم، بين الكواكب و النجوم. هؤلاء الذين أسَّسوا لِ ديانة جديدة، حيث جمعوا و كتبوا و ألَّفوا أساطير و حكايات خرافية من تلك التي تَعجُّ بها كُتُبُ الأوَّلين. و بعد رحيلهم عن الحياة تَمَّت إضافة شرائع دموية، و ولاءات عنصرية و ثقافة منحطة حاقدة كارهة تستحقر الآخر و تدعو إلى إلغائه بِ كلِّ الوسائل. كان قد قرأ عنهم في الصحائف التي ألَّفها و جمعها أنصار نوا بن ياماإيل بعد قرون من رحيل هؤلاء المؤسسين. لم تكن الصورة واضحة في ذهنه. كان المشهد كله ضبابيا، بدءا من الإله نفسه و انتهاءا بِ بوبي. عاد إلى خطواته الأولى التي بدأها في بلدته العزيزة على قلبه-القامشلي- مع العم بيدروس و الخال برصومو و كل هؤلاء الذين التقى بهم في مدن و بلدات مختلفة. شرعَ في تجميع أجزاء اللوحة التي بحث عنها في كلِّ تلك الأماكن التي دخلها، لكنه لم يوفَّق في مسعاه. راح يستعيد تفاصيل لقائه مع العم فَزّاع. أبيات الشعر التي ألقاها على مسامعه، أحاديثه، أو بِ الأحرى، أسئلته عن بانثيون الجزيرة و الآلهة الإناث، عن الذين كانوا يدَّعون النبوَّة من ذكور و إناث، عن النبي الذي نَسَبَ نفسه إلى قبيلة قريش، بيته، أو بيوته، و بيوت زوجاته، قبره، متعلّقاته الشخصية...إلخ. تذكَّرَ جملته الصاعقة " أنتَ في المكان الخطأ". و بناءا عليه، بدأ يفكِّر بِ شكل جدّي عن مسرح الأحداث التي قرأ عنها من مصادر متنوعة، طبعا تلك التي وضعها اليهود الأُرثوذوكس و اليهود المسيحيون و اليهود النصارى. صار يلقي أسئلة بسيطة و واضحة على نفسه، لم يكن يُعر لها الاهتمام فيما مضى، كَ: لماذا سَ يتم تأسيس ديانة جديدة و تشكيل جيش من أتباع قائد الدعوة النصرانية في شبه الجزيرة، أو في اليمن، بينما موطنهم الأساس هو في بلاد الشام؟ فَ قبيلة قريش هي في بلاد الشام، كما أبو قبيس و وادي النصارى و معكة و كهوف رهبان النصارى و قسّيسيهم و أديرتهم، حتى آلهتهم اللاة و العزّى و مناة و دوشر...إلخ. و هنا تذكَّر كلام العم فزّاع حين قال له: "عليك البحث عنهم في مكان آخر يا ناريك. اصعد إلى الشمال، إلى بلاد الشام عَلَّكَ تعثر على إشارات تُفيدكَ في مسعاك!".

بعد عدة قرون من مغادرة ناريك وكلبه كهف ياماإيل،عثرَ أهالي البلدة على مخطوطات، مكتوبة بِ السريانية، مخبَّأة في شقوق طولانية في جدران الكهف. لقد قرأها العارفون بِ المخطوطات و الرُّقُم المدوَّنة بِ العبرية و السريانية، و كانت محتوياتها تحكي عن مرور رحّالة، أو باحث، أو ناسك بِ الدير ومكوثه فيه لِ مدة زمنية غير معلومة. كان برفقته كائن، ما عرفوا طبيعته، يشبه كلّ شيء. بعض الأهالي أكَّدَ على أنَّه كلب، و البعض الآخر قال إنَّه شَبَه الإنسان لكنَّه ليس بِ إنسان، وآخرون قالوا بأنَّه ملاك. كلُّ فريق كان يأتي بِ أدلّة دامغة(كما يعتقد) على ادّعاءاته. فريق منهم أكَّدَ بِ أنَّهم رأوا الناسك يطير في الهواء فوق هالة نورانية على هيئة سلحفاة بَحْرية بِ اتجاه الشمال، و قالوا: بِ أنَّه كان واقفا فوق ظهرها ممسكا بِ حِبال ضوئية مشدودة إلى رقبتها رافعا ما يشبه المنجل، و أنَّه- بعد مسافة لم يستطيعوا تقديرها- مال قليلا نحو الغرب و هو ينادي قائلا:"ها أنذا قادم إليك يا مَنْ وُلِدْتَ في الوادي المقدَّس، قادم إليكَ لِ تُبَيّنَ أصل الحكاية، كلَّ الحكاية!". في الأثناء لَمَعَت اشعَّة

ملوَّنة من تخوم البحر، و أصوات النواقيس الصادرة من كنائس الآراميين تصدح في وديانهم، تلالهم و جبالهم. أمّا الناسك، فَ قد امتزج في الأشعة النورانية التي أخذته بعيدا عن أنظارنا، لكننا كنا نراقب مساره من خلال قطيع السنونوات التي كانت تطير فوقه، و التي كانت تعكس لمعة الشمس من فوق ريشاتها السوداء الفحمية. و البعض الآخر جَزَمَ بِ أنَّهم، في فجر أحد أيام الربيع، شاهدوا الناسك يخرج من الكهف ممتطيا خيالا، بِ الكاد كان يُرى، يشبه حيوانا يقفز فوق كُتَل السديم بِ اتجاه الشمال. منهم مَن قال: بِ انَّهم رأوا شخصا راكبا على ظهر أسدٍ ذي لبدة ذهبية كثيفة، و أنَّهم سمعوا زئيره المرعب يَشقُّ عنان السماء، حتى أَنَّ بعضا منهم وقع على وجهه من شدَّة الخوف، و البعض الآخر لم يقوَ على الثبات واقفا. وبعد بعض الوقت من انطلاقه فوق تلك الكتلة التي كانت على شكل أسد هصور، رأوا جناحان هائلان يخرجان من خاصرتَي الأسد الجبّار و رأوه ينزلق بين السحب شمالا مع ميلانه سبع درجات دائرية نحو الغرب، و قالوا بِ أنَّهم سمعوا هتافا عظيما، كما هدير الرعد، يأتي من تخوم الساحل و كَ أنّه استجابة لِ نداء حليف أو صديق عزيز. فريق آخر ادَّعى بأنَّهم رأوا شبحا انبثق من فَمِ الكهف نحو السماء وراح يخترق الصخور والتلال والأشجار، و كَ أنَّه يمشي في فضاء خال من كلِّ شيء سوى الهواء والسحب الرقيقة. كان ينساب كما الماء و الهواء في الأشياء و بينها بِ اتجاه الشمال و هو يردِّد:"إنّني قادم إليك يا مخلِّصَ الشعب، يا مُحَرِّرَ أورشليم".

كان هناك الكثير من القصص و الروايات التي كان الأهالي يتداولونها فيما بينهم، و استمرَّتِ الأجيال في تناقلها، جيلا بعد جيل، و كانت تخضع، أثناء ذلك، لِ التحوير و الإضافات والتشويق و التزويق في بنيتها الأصلية. كان ناريك قد كتبَ، في نهايات رحلته، مدوَّنة خطيرة على صعيد الإيمان المسيحي جاء فيها بِ حسب الرواة الذين قرأوا النسخة الأصلية المحفوظة في المتحف الكبير في عاصمة العالم(آنذاك)

دمشق:"صعدتُ إلى كتف التلَّة فوق كهف ياماإيل، كان الوقت غروبا و الشمس كان في رحلته إلى الطرف الآخر من الأرض. كنتُ أراه من فوق قامات الأشجار، لم يكن هناك ما يحجبه عن الأنظار سوى بعض السحب الرقيقة المهاجرة، والتي كانت تتلوَّن بِ الأحمر البرتقالي، و في أسفلها كانت اللمعة الصفراء الذهبية تبهر العيون. أمّا فوق السحب، فَ كان اللون الأحمر يأخذ بِ التكاثف و يتدرَّج من الأحمر الكرزي إلى الخمري والبنفسجي حتى إلى اللون الكحلي في صدر السماء، ثمَّ الأسود النيللي الذي يبدأ بِ استقبال الأزهار و البراعم السماوية الفضية. و حين غاب الشمس نهائيا، صارت السماء كَ تلك التي كنتُ أمعن النظر فيها في بلدتي الحبيبة قامشلي. لوحة كحلية مزروعة في أرضيتها نجوم و كويكبات في تشكيلات هندسية و فنية رائعة. في الليل صعدتُ مجدَّدا فوق الكهف، و في هذه المرّة رافقني بوبي إلى هناك. جلسنا فوق صخرة متوسطة الحجم، و راح كلّ واحد منّا يغوص في أعماق ذاته. رفعتُ أنظاري إلى السماء، إلى القبّة المشعشعة، إلى التشكيل اللونيّ الخلّاب حيث تتداخل المصابيح الفضية في المدى الكحليّ الغامق. بَدَتِ السماء كَ صالة عَرْض مفتوحة على المدى عُلِّقت على جدرانها الليلكية لوحات سريالية مرسومة من نجوم الكويكبات البرّاقة. تأمَّلتها كما كنتُ أفعلُ في طفولتي حين كنت أستلقي على سطح الدار في ليالي الصيف المقمرة. حينذاك كنت أَعدُّ النجوم و أتابع واحدة منها، في مدى رؤيتي، تسير إلى مكان مجهول، أو هكذا كان يبدو لي، و عندما كنتُ أقف عاجزا عن إحصاء العدد، كنتُ ألتفت إلى تلك التي تسقط وأراقب مسارها من خلال الشهب التي ترافق سقوطها. و قبيل استسلامي لِ سلطان النوم، كنتُ أُحدِّدُ مواقع نجوم كويكب بِ عينه، وأرسم أشكالا خرافية مستوحاة من القصص التي كان الأهالي يروونها على مسامعنا، تلك الأشكال التي كانت تدخل في أخيلتنا الطرية و أرواحنا الصغيرة. رأيتُ نجوما متوضِّعة(بِ مَحْض الصدفة) على شكل إنسان يده اليمنى ممدودة لِ الأمام، و تحتها

بِ مسافة قصيرة تتبعثرُ حفنة من النجمات، و كَ أنَّها قُذِفَت من يده إلى الأرض. و رايت خلْفه شكلا لِ إنسان يحمل ما يشبه سيفا لامعا من طرف نصله الفضي يتجه نحوه. أرسلتُ أشعة بصرية إلى تلك الأشكال، و منها إلى الاتجاهات المحيطة بها. عندذاك قدَّرتُ بِ أنَّها تقع فوق وادي النصارى في تخوم دمشق شمالا. تقول المرويات بِ أنَّه كان، في نفس الزمن، قد أفصحَ لِ صديقه بوبي عن شكوكه بِ خصوص السردية العبرانية حول الإله الذي بدأ معهم ثم مع المسيحيين و تاليا مع المحمديين، و أنَّه يرى اختلافا واضحا بين آلهة المنظومات العقائدية الثلاث، و بِ التالي، هناك صناعة بشرية واضحة لِ الكتب و الشخوص و الرموز التي تمَّ تقديسها، و أنَّ البشر هم أنفسهم مَن خلق الآلهة و أشباه الآلهة و الملائكة و الشياطين، و هم أنفسهم الذين اختلطت عليهم حكاية أهل الكهف، حكايتك مع هؤلاء الفتية. لقد عرفت حقيقتك يا بوبي و عرفت بِ أنَّ الأسلاف قد فسَّروا كلمة (كلئهم) التي وردت في القصة الخرافية، أي راعيهم، حاميهم، مُطعِمُهم، حارسهم، قد فسَّروها على أنَّها (كلبهم)، في حين أنَّك، يُفترض أن تكون، الملاك الذي كان يحميهم. و عرفتُ أيضا لماذا أطلقوا اسم الشام على دمشق و تخومها(الاسم السرياني، دمشق، و الذي يعني الأرض المروية)، فعلوا ذلك لِ إخفاء انتمائها الآرامي السرياني و ربطها بِ العبرانيينو العربان، و ذلك من خلال سام بن نوح، و لذلك هناك سعي حثيث لِ طمس الهوية السريانية عن دمشق و تبديلها بالهوية النصرانية اليهودية البدوية. بعد اعتراف ناريك بِ النتيجة المزلزلة لِ إيمانه، عاد بوبي إلى هيئته السماوية و بقي إلى جانب صديقه الرائع، كما وصفه، و صار ناريك يناديه بِ اسمه الحقيقي. ماذا أفعل يا صديقي ميكاإيل؟ إنَّني في أخطر مرحلة من حياتي الروحية. أعترف بِ أنَّ الذي يراود عقلي و تفكيري قد يدمِّر روحي، و مع ذلك يا صديقي، فَ أنا في طريقي لِ إنكار السردية اليهودية، سردية العبرانيين، سردية بني العبّاس الساسانيين،لا بل أنكرها الآن و أرفض تصديقها، و إنَّ الذي يتمُّ تداوله بين اتباع الديانات الثلاث التي أنشأها الحاخام اليهودي الأكبر إنْ هو إلّا أساطير و حكايات خرافية و روايات فانتازية. و إني أرى الآن بِ أنَّ هؤلاء حُماة الهيكل و سدَنَة المعبد و جيش الفقهاء، إنَّما هم مهرّجون، مشعوذون و مضلِّلون. إنَّ المحمد، الذي جمع المقاتلين النصارى و العربان و هجم على أورشليم، قد خرج من وادي النصارى، من تخوم دمشق الشمالي، و قد يكون هو نفسه خرافة أوجدها نصارى خراسان. إنّي تائه بين كثبان هذه الصحراء المُحرقة، هذا المحيط المتلاطم و هذا التاريخ المصطنع المزيَّف المُتخَم بِ الأكاذيب. إني تَعِبٌ يا صديقي و أراني أمشي بِ اتجاه حافة قبَّة الأرض يا ميكاإيل و أخشى أنْ أقفز من هناك إلى حيث الحقيقة المطلقة!

-4-

-هطول الأجنّة مع المطر الكوني-

كان أداي قد زار ناريك، مع والده، في زمن مجهول. و كان ناريك قد سأل والده عن أحواله و صحته، و كان والده قد أفاده آنذاك: "إنه يتمتَّعُ بصحّة جيدة. يتابع واجباته المدرسية بانتظام، و أنا ألاحظ شغفه لِ البحث في الظواهر الطبيعية وحبّه لِ المعرفة. يخرج إلى الطبيعة كلّما سنَحَتِ الفرصة له. يتهيّأُ لنا بِ أَنَّه يبحث عن شيء مجهول في مكان مجهول، بل في أماكن مجهولة. لم يكن يعرف عَمّا يبحث و لماذا يبحث، هكذا كنا نعتقد. في كثير من الأحيان، و في مراحل مبكّرة من صِباه، كان ينشغل بِ متابعة بعضا من الحيوانات التي تقع في دائرة رؤاه، الأليفة و غير الليفة. كانت أمه تراقبه وهو ممدَّد على بطنه في الحَوْش على الأرض الترابية. حينذاك لم يكن يتجاوز السنة الثانية من عمره. كان يتابع مسار مجموعات من النمل الأشقر. يُؤشِّرُ بِ سبَّابته الصغيرة على الدرب الذي تمشي عليه النملات. كان يدمدم و كَ أَنَّه يتحدَّث معها، و في بعض الأحيان كان يصدر منه اعتراضا على شيء ما. أمّه لم تكن تعرف السبب، لكن تبيَّنَ فيما بعد، حين شرح لِ أمّه فحوى حركاته، بِ أنَّه كان يعترض على بعض النملات التي تعود أدراجها، عكس مسار النملات الأُخريات، خارج الطريق التي رسمتها بِ إفرازاتها و رقصاتها المتعارف عليها في ممالكها. كان سعيدا لِ حركاتها الدؤبة السريعة، و تجاوزاتها لِ بعضها في كلِّ الاتجاهات، حتى من فوق أجسادها الصغيرة. كانت تذهب و تعود بِ نفس الحيوية و السرعة، و كَ أنَّها ألعاب إلكترونية. لم يأبه لِ ما تفعله في رواحها و إيابها، و لم يأبه لِ ما تحمله بين ملاقطها، أو فكَّيْها الصغيرين. كلّ ما كان يشْغله، هو حركتها السريعة الاعتباطية. حينها لم يدرك الآلية التي تُحَرِّكها، والبرنامج المُخْتَزن في ذاكرتها البيولوجية.كان يعتقد بِ أنَّها تتحرَّك، هكذا، عشوائيا. كان يلعب مع جميع الحيوانات التي تقع في دائرة حيواته. يحاكيها، يراقبها، يقلِّدها. لم تكن الحيوانات، فقط، هي التي كانت تستحوذ على اهتماماته وتساليه الطفولية، وإنَّما كان يلهو مع الأشجار و النباتات أيضا. في ليالي الصيف،

كان يطيل النظر إلى السماء، يَعدُّ النجوم و يرسم بِ إصبعه أشكالا في الهواء. يجمع بعضا من النجوم(بِ كَفَّيه) و يُرتِّبها في مجموعات ويوصل بينها مشكِّلا منها لوحات لِ كائنات خرافية. ذات ليلة رأيته يفعل ذلك و يتحدَّث إلى أشخاص لم أرَهم، و حين سألته عمّا يفعل، أو ماذا يرسم و مع مَن يتكلَّم، أشار بِ إصبعه إلى مجموعة من النجوم و طلب منّي أنْ أنظر إلى ذلك النسر الذي رسمه بتوصيل النجوم مع بعضها، في مخيّلته، و أيضا أشار إلى مجموعة أُخرى من النجوم التي شَكَّلها في مخيّلته على أنَّها دبّ، وقال بِ أنَّه يطلب من كائنات موجودين هناك بِ ترتيب النجوم في الأشكال التي يرسمها من هنا. كان يستمع، بِ انتباه شديد، إلى حفيف الأشجار و فديد أجنحة الطيور عند انقباضها و انفرادها و خرير المياه و هزيز الريح و صرير الأبواب. كان يقول عمّا يسمعه: إنَّهم يُهيّؤن لِ ولادة جديدة، سيقضون على هذه الحياة. إنّي أسمعهم و لقد سمعتُ ما قالوه بِ خصوص عالمنا، أرضنا، كوكبنا".

إنَّه أداي في نسخته الجديدة. كان جنينا في البيضة الكونية التي تَشَكَّلَت من تلقيح الأنهار المقدَّسة لِ السماء الممدَّدة و الممتدة بِ جمالها و هيبتها و دلالها الخجول و عذريتها الأزلية. راحت مياه الأنهار في رحم السماء لِ تنال شرف عذريتها و لِ تتذَوَّقَ طعم الأثير اللانهائي في تلك الظلمة المقدَّسة.

جاء في مدوَّنات يريبوني (Yerepuni) ذِكْرُ أداي النصبيني؛ حيث تقول الأخبار بِ أنَّ متحف المدينة القديمة، أو بِ الأحرى متحف العاصمة الأولى لِ أرمينيا التي كانت تقع في مملكة أورارتو، والتي أسسها الملك أرام في القرن التاسع قبل الميلاد في حوض بحيرة فان (VAN) في هضاب ارمينيا. هذه المملكة كانت تُعتبَر من أكثر الممالك المتقدمة في عصرها، و تشير التنقيبات الأثرية لِ النقوش المسمارية عن انشاء حصن يريبوني قبل آلاف السنين بأمر من الملك أرغيشتي الأول على تلَّة تطلُّ على موقع يريفان الحالية لحماية المنطقة من هجمات القوقاز. و بِ اندماج اللغة الاورارتية مع اللهجة الأرمنية عبر العصور، تغير لفظها من يريبوني إلى يريفوني ثمَّ إلى يريفاني وآخيرا إلى يريفان. أمّا المؤرخون المسيحيون الأرمن و باعتمادهم على القصة التوراتية التي تؤكِّد على وقوف سفينة نوح على جبل آرارات، و رغبة منهم في تعظيم و تبجيل مكانة الجبل و إضفاء صفة القداسة عليه، و من خلال الحدث و الشخصية الرئيسة، النبي نوح، الذي انتقاه الله من بين شعبه كَ رجل صالح و تقي، من هذه الحيثيات، أرادوا أنْ يُعَظِّموا من شأن عاصمتهم يريفان. لذلك راحوا ينسبون الاسم إلى نوح اذ يعتقدون بِ أنه، و هو ينظر ناحية سهول يريفان بعد رسو فُلْكه على جبل آرارات، قال لِ نَسْلِه "يريفاتس" (بالأرمني تعني بانَت). في ذلك المتحف كانت الوثيقة ذات

العلاقة، و فيها يقول أداي النصيبيني:" إنَّني ضحكتُ، في سرّيٍ، من هذه الرواية لِ أنَّني لم أكن أعرف بِ أنَّ السيد نوح (نبيُّ الله) كان يتقنُ اللغة الأرمنية... آه كم أنا غبي في موضوع الأنبياء، فَ لَطالما هو نبيّ فَ هو ،إذن، يعرف اللغات المحكية كلّها حتّى لغة الحيوانات و النباتات. أَ لَمْ يتحدَّث مع الغراب و الحَمَام حين أرسلهما في مهمّة استكشافية؟ أَ لم يتحدَّث سليمان مع النمل و الهدهد؟ أَ لم يتحدَّث نوا بن ياماإيل مع الحمار يعفور؟"

كان متحف الحصن ذاك يحتوي على عدة وثائق تحكي عن أداي، و كان القائمون على إدارة المتحف قد سَرَّبوا بعضا منها. جاء في واحدة من هذه الوثائق، و كما يبدو، على لسان أداي نفسه حيث يقول: "كنتُ جُزيئا متناهيا في الصغر مندمجا في الغبار الكوني؛ أسبح ضمن الأمواج المتناغمة في السديم الكحليّ المائل إلى السواد اللامع مع شعشعات رمال ذهبية اللون. كانت حواسي مكتملة و متكاملة في تعاملها مع المؤثرات القادمة من الأفلاك القريبة و البعيدة. كنتُ أسمع أصوات الطبيعة و الحياة و الأفلاك. أسمع دمدمات و طَرقات النجوم و دبيب الكائنات هنا و هناك. كنتُ أسمعُ وشيشَ الموجات الناعمة من الغبار الذريّ، التي تتلامس بِ نعومة فائقة، و كنتُ أسمع لَغَطا يصدر من ذرّات قريبة منّي. عرفتُ بِ أنَّها، هي أيضا، كائنات مكتملة لكن لم أعرف على أيَّة هيئة هي. كما لم أكن أعرف طبيعتي أنا أيضا، على أيَّة هيئة سَ أكون. هل سَ أكون عنصرا من هذا السديم الكونيّ اللانهائي، أم أنَّني سِ أكون كائنا حيا مثل تلك التي على الأرض؟ هل سَ أكون حمارا أم أسدا أم سمكة، أو سَ أكون غرابا أم فراشة أم نباتا؟

كنتُ مكتملا ومُختَزَلا في الذرَّة التي احتلَّت لها مكانا في السديم الكوني. لم نكن نخضع لِ مقايس الزمن، و لم يكن لدينا ما يسمَّى بِ الزمن. لم يكن لدينا ليل و نهار، و بِ التالي، لم يكن لدينا قياس لِ الوقت، لِ الزمن. الأمر الوحيد الحقيقي الذي كنّا نلمسه هو أنَّنا نتحرَّك. أمّا كيف و لماذا و إلى أيّ اتجاه نتحرَّك و بِ أيَّة سرعة نتحرَّك، فَ هذه المسائل لم تكن مهمة بِ النسبة لِ الكينونة والوجود الفلكي، ولا تؤثِّر ولن تؤثِّرَ في ناموس الطبيعة الأزلي. كنّا نتلامس خلال زَحْفنا. نصطدم بِ بعضنا، و من خلال الأصوات التي كانت تصدر أثناءها، كنتُ أُخَمِّن شكل و هيئة الزاحف معي في الكتلة السديمية. ما كان بِ إمكان أحد القول بِ أنَّنا على هذه الحال منذ عام أو مائة عام أو مليون سنة. الزمن مسألة افتراضية لا دليل على وجوده كَ حقيقة حياتية فيزيائية. و التحولات التي تجري على مفردات الكون لا تجري بِ سبب الزمن الذي لا قياس له، أو بِ الأحرى الذي لا وجود له على الإطلاق، وإنَّما تجري تلك التحوّلات بفعْل القوانين

الكونية. فَ النجم حين يموت لا يموت لأنَّه شاخَ، أو لأنَّ عمره تجاوز المليون سنة؛ و إنَّما يموت بِ سبب التفاعلات التي تجري في تكوينه و كينونته. بِ سَبَبِ التأثيرات و المؤثِّرات المتبادلة بينه و بين الأجرام الفلكية الأُخرى، تلك التي تشاركه الحركة الأزلية في الفضاءات اللامتناهية. الإنسان أيضا، أو أيّ كائن عضوي أو غير عضوي، لا بل أيّ وجود في هذا الكون، لا يموت بِفعلِ تقادم الزمن عليه، و إنَّما بِسبب استهلاكه لِ ذاته و بِ سببِ مفاعيل القوانين الموضوعية التي يخضع لها الوجود، و بِ التالي تَحَوّل هذا الوجود من طبيعة إلى أُخرى.

تَنَبَّهَتْ حواسي لِ حَدَثٍ غريبٍ يجري في مكانٍ مجهول، و أنبأتني الذرات المحيطة بي مِن كلِّ الاتجاهات عن تدحرج مادة غريبة، عن مكوِّناتنا، نحو فضاءاتنا. شَمَمْتُ روائح لا تنتمي لِأنفاسنا. وجدتُني مغمورا في مادة كَ البللور لمعانا و كَ الأثير طراوة. إنها المياه القادمة من أماكنَ بعيدة، انفصلَت عن عشيرتها في رحلة حزينة نحو أفلاك الكون. كانت المياه، التي غَمَرَتنا، قد أَتَت إلينا بِ أخبار الأرض مُفَصَّلّة عِبْرَ رحلتها الشاقة من منابعها، حيث لَمْلَمَتْ مَشاهدَ الحياة في صُوَرِها الحقيقية و أخبار الأفراح و الأحزان والكوارث. كانت قد احتفظت في ذاكرتها مفردات الحياة التي كانت في طريقها إلى الفناء، قبيل صعودها إلينا. حين ضَمَّتني حاضنتي المائية في فقاعتها الشفّافة، حَدَّثَتني عن سلالاتها و كيف أنّها كانت تغمر الأرض كلها و كانت تتماوج بِ حرية مطلقة دون معرفة الجهات، أو بِالأحرى دون وجود ما يدلُّ على أنَّ هناك شيء اسمه اتجاه. كان الضوء الفضي يغمر السطح المتماوج اللامع، و لا لون سوى الأعراف البيضاء لِ أعناق الموجات اللعوب التي كانت تتراقص في تناغم مدهش، و كَ أنَّها تقدِّم عروضَ باليهات البجعات و عرائس المياه الفاتنة.

صارت الذرات أَجِنَّة في فقاعات مائية. و راحت تكتسبُ أوزانا و تزداد كثافة و ثِقلا تنتظر الانفصال عن الغبار السماوي الذي أخذ مسارات مختلفة عن مسارات السديم الكوني. ظَهَرَتْ تلك الفقاعات كَ عناقيد بيوض معلَّقة بِ أغصان السماء. كلّ عنقود معلّق بِ مشيمة خاصة به. كانت تلك العناقيد تسبح في جوف المياه، و كانت تأخذ أماكن متباينة في غمرة المياه. تحوَّلت السماوات إلى كروم شاسعة تتدلّى من دواليها العناقيد المكتنزة بِ البيوض المباركة. ظَلَّت تتمايل و تتراقص في إيقاعٍ كونيّ متناغم بعضها مع بعضها الآخر. كانت المعارف الفلكية قد حَدَّدَت هيئة و طبيعة الكائنات التي سَ تولد من الفقاعات الحاملة لِ أجِنَّة السماوات، و كانت هيئة و طبيعة الكائنات الحيَّة قد تَمَّت برمجتها في مختبر الإله الأرضي. ذلك الإله الذي ينتظر ولادة هذا الجنس لِ الانقضاض عليه و جعله نسخة من نفس الجنس الذي حوَّله إلى وحوش

فتّاكة و أدوات لِ القتل وآلات لِ تدمير الحياة. إنَّ طبيعة الكائنات حَسب تلك البرمجة هي، أنَّ الكائن الأوحش و الأخبث هو الكائن الذي كثافته أعلى من كثافة الكائنات الأُخَر، و هو الذي يسقط على الأرض قبل الآخرين. الكثافة العالية تجعل قلب الكائن مظلما و تجعل روحه سوداء و عقله شرّيرا. كان الإله الأرضي قد سَمّاه الإنسان. طبعا هذا ينطبق على أولئك الذين يعيشون، الآن، هناك في مملكته. فَأوَّل الذين سَ يهطل هو الإنسان، أمّا آخِرَ الكائنات التي سَ تدخل المجال الأرضي تكون ذات كثافة شبْه معدومة. سَ تتراقص مع موجات الهواء بألوانها الزاهية. إنَّها الفراشات المزركشة رمز البراءة و الحُبّ و الجمال. نحن لن نهطل الآن على كوكب الأرض، لأنَّ قرار مركز الزوبعة الكوني المتعلّق بِ هطول الجنس الجديد مرهون بِ الفناء الكلّي لِ البشر، و ربّما لِ هذه الحياة الشرّيرة على الأرض. لذلك سيكون الهطول الأوَّل في السديم الكوني ريثما يتحقَّق مضمون قرار الزوبعة الكونية.

إنَّ كائنات الهطول الأوَّل التي هَطَلَتْ في السديم الكونيّ كانت مُحَمَّلة بِ مشيماتها كَ مخزون لِ الطعام الذي سَ يُعينها على الحياة إلى أجَلٍ مُحَدَّد. إلى أنْ تتعلَّم و تتمكَّن من الاعتماد على قواها الذاتية، و على تنفيذ البرنامج الذي حُمِّلَ في خلايا أدمغتها. و إلى ذلك الحين لن تكونَ كائنات أرضية، و إنَّما سَ تبقى كائنات منتمية إلى الغبار الكوني. دخلتُ في السديم الكوني أثناء الهطول الأول. كنتُ أتغذَّى من مشيمتي التي حملتها على كتفي، و كانت، بعد كلِّ وجبة منها، تكتنز بِ الغِذى مُجَدَّدا. كانت روائح الرحم المقدَّس التي رافقت المشيمة التي أهدتنيها أمّي الأزلية تَدلُّ على مكان انبثاقي من جوفها المقدَّس. وجدتُني أسبح في مياه تشبه تلك التي كنتُ فيها أثناء تَشَكُّلي في فقاعتي الكونية. كنتُ أسمع همسات ناعمة، من خلال انحناءات حزَم المياه، و بريق قمم ثنياتها من حولي والتي تداعب مسامعي الطرية. كانت تنشدُ أغاني المهد و تحكي قصص الحَمَامات البيضاء وشرانق الحرير. كانت تبعث الطمأنينة والهدوء في روحي، و تُحَفِّز ذاكرتي الكونية لاسترجاع مروياتها عندَ قيامها بِ تلقيح بذورنا في ذلك السديم اللانهائي. التقيتُ بالعديد من الكائنات التي كانت معي هناك في السديم الأزلي حيث كنّا نتحرَّك بِاتجاه اللاإتجاه. جميع الكائنات التي التقيتهم كانوا يحملون مشيماتهم على اكتافهم و يتغذّون منها دون الانتباه لِ الوقت. كنّا مجموعة من الكائنات نتحرَّك سويّة، يمكن القول بِ أنَّنا أصبحنا أصدقاء. كنتُ أنا الإنسان و آخر مثلي لكنه مختلف عنّي جسديا–عرفتُ فيما بعد بِ أنَّه إنسان مثلي لكنه يُسمَّى (الأنثى)– و معنا سمكة كبيرة، اسمها الحوت، و عجل متوسط الحجم و نجم البحر وأسماك صغيرة متنوّعة و أسود و سلاحف مختلفة الأحجام، و كانت الطيور المتنوّعة و النحل و النمل، و ما يخطر

على البال من الكائنات الحيّة، كلها كانت معنا في عالمنا الجديد. كنّا أنا و الأنثى نسبح مثلهم، و نمشي، حينما يحلو لنا المشي، بِ خطوات غير مُحّدّدة الأبعاد. جميعنا كنا نَعوم، نسير و نطير في المياه المتلاطمة. و جميعنا هطلنا من السديم الكحليّ اللانهائي إلى المياه الفضيّة اللانهائية. ظَلَلْنا نتحرَّك قرابة ال خمسمئة ألف عام في المقاييس الأرضية و مع ذلك لم يَزْدَد عددنا. لم نتوالد من بعضنا و لم نتكاثر. كنّا نحن الذين عرفنا بعضنا هناك حيث كنّا نلهو دون تَعَبٍ و دون أَلَم. لم يَمُتْ أَحَدٌ منا و لم يُضاف إلينا أحد. فَ الفقاعات التي هَطَلَت مع المطر الكوني الأوّل بَقِيَتْ هي هي، وكان كلّ زوجٍ من هذه الكائنات الحيَّة متلازمَين مع بعضهما. فكما هطلَت فقاعاتنا هنا، كانت فقاعات أُخرى قد هطلت في أماكن مختلفة. و بِ التأكيد سوف نلتقي و نتعرَّف على بعضنا على الكوكب الذي سَ يَفْرَغ من ذلك الجنس المتوحّش.
سَ نعيش بِ سعادة مطلقة لأنَّنا لا ننتمي إلى قبائل و أديان و طوائف، لأنَّنا لن نملأَ الأرض بِ الذراري و لأنَّنا لسنا مثل هؤلاء الذين يفتكون بِ بعضهم و يخرّبون الطبيعة و يسمِّمون الهواء، لسنا مثلهم منافقون كَذَبة مخادعون مجرمون يصنعون، بل، يخلقون كائنات هلامية خرافية و باسمها يسرقون، يقتلون، يَزْنون، يغتصبون و يستعبدون الآخرين. إنَّ هؤلاء، الذين في طريقهم لِ الفناء، خلقوا تلك المسوخ وأسموهاآلهة، و راح كلُّ واحد يستبيح الآخر بِ اسم إلهه الوهمي الذي لا وجود له إلّا في مخيّلته المريضة و رأسه المحشو بِ الغائط و العضو التناسلي. نحن لا آلهة لدينا، و لن نخلقها لا هنا ولا في أيّ كوكب آخر، والسبب بسيط جدا، وهو أنَّنا لا نعرف سوى الحُبَّ في حياتنا، فَ لماذا سَ نخلق مسخا يزرع الفرقة و الحقد و الحسد و الكراهية بيننا؟.
كنّا نتحرَّك كَ مجموعات و لكن كلّ واحد كان يميل و ينجذب إلى مثيله. كنتُ أتذوَّقُ شبيهي الأنثى بأطراف أناملي و بِ باطن يديَّ، بصدري بوجهي ولساني. كانت تفعلُ الشيء نفسه. كانت تلمس جسدي، تتذوَّق طعمَ شفاهي. كنّا نتعانق، نتقاذف فوق منحنيات الموجات. نلتفُّ على بعضنا ونلتصق بِبعضنا. أرميها بِ رفْق عبْرَ الموجات وأَلْتَقطها بين ذراعي. نتماوج نتداخل في فراغات بعضنا، نرتعش ارتعاشات غريبةمدوِّخة تجعلنا نغفو بين أحضان المياه والسعادة تغمر أرواحنا. صنعنا لِأنفسنا، أو بِ الأحرى، ابتكرنا لِ أنفسنا اتجاهات و أزمان و أفعال لغوية. قلتُ لِ شبيهي(الأنثى) تعالي نتفق على هذه الافتراضات، أو الاصطلاحات وبناءا عليها نرتّبُ وننسّقُ و ندير يومياتنا، أو بالأدقّ حركاتنا، في هذه الأرجاء الشاسعة، في هذا المكان الذي هطلنا فيه.
– ما هي الافتراضات و الاصطلاحات التي تريدني أنْ أتفق معك عليها؟ قالت الإنسانة الأنثى.

– سَ أحاول أنْ أشرحَ فكرتي حول هذه المواضيع. لِ نقف بِ مواجهة بعضنا، أيْ أنا أنظر إلى وجهك مباشرة و أنتِ أيضا تنظرين إلى وجهي بِ شكل مباشر، الآن... لِ نعتبر ما ترينه في هذه الوضعية هو الأمام بِ النسبة إليك، أيْ أَمامكِ، و في هذه الحال أنتِ تكونين واقفة أمامي، أي ما أراه أنا في هذه الوضعية هو الأمام بِ النسبة إليَّ. أمّا الجزء، أو الحَيِّز الذي لا أراه منكِ لِ يكن اسمه الوراء، الخَلْف، و بِ المقابل يكون الحَيِّز الذي لا ترينه منّي هو الوراء. الآن صار لدينا الأمام و الوراء. لِ نتابع و نأتي إلى الاتجاهات التي سَ تعيننا في تحرُّكاتنا. اقترب منها و أمْسَك إحدى يديها و قال ليكن كل هذا الحَيِّز الذي يقع على طرف هذه اليد اسمه اليمين. يعني هذا الاتجاه هو اليمين بِ النسبة إليكِ. أمّا الاتجاه الذي يقع على طرف اليد الأُخرى فَ ليكن اسمه اليسار، أيْ هذا الاتجاه هو اليسار بِ النسبة إليكِ. و بِ نفس الطريقة يكون لديَّ اليمين و اليسار. انظري إلى رأسي، وضَعَ يده على رأسه، و قال لها كلّ هذا الحَيِّز الذي هو هنا نُسمّيه فوق، و الجزء الذي هو هنا– أشار إلى المسافة أسفل رأسه– يكون اسمه تحت.

– هذا ال فوق و ال تحت فيه غموض و ليس محدَّدا تماما. قالت الأنثى، و أضافت توضيحا لِ هذا الاصطلاح إذْ قالت: إنَّني فهمتُ من كلامكَ بِ النسبة لِ ال فوق و ال تحت ما يلي.

لِ تحديد هذين المفهومين يجب أنْ نأخذ نقطة، أو خَط، أو أيّ شيء آخر بِ حيث يكون هو المرجع، و نقول حينذاك فوق النقطة و أسفلها، أو فوق الخَطّ و أسفل الخط... قاطعها رفيقها بِ اندهاش و إعجاب لِ إضافتها و توضيحها لِ الفكرة قائلا: أحسنتِ... بِ الضبط مثلما قلتِ! و الآن لِ نجرِّبَ ترجمة هذه المصطلحات إلى أفعال على الواقع؛ هيا تعالي إلى جانبي. لكنها ظلَّت تتحرَّك دون أنْ تغيّر من اتجاهها. حينذاك عرفتُ بِ أنَّنا كان يجب أنْ نضيف إلى مصطلح اليمين و اليسار مصطلحا آخر يلازم الاتجاهين بِ شكل مباشر و هو أل جانب، أو الطَرَف، كَ أنْ أقول قِفْ بِ جانبي هنا و يُفْهَمُ من الإشارة إمّا في الطرف اليمين أو الطرف اليسار. أو أنْ أقول تعال إلى الجانب اليساري... وهكذا استدركنا استكمال المفاهيم و الاصطلاحات. وفي الحال قالت لي رفيقتي: تعال إلى جانبي اليميني و لنسِرْ إلى الأمام. و خلال تحرّكاتنا معا كَ مجموعة كنّا نُصدرُ لِ بعضنا، أنا وصديقتي، التوجيهات بالسير في الاتجاهات المختلفة، تلك التي كنّا قد اتفقنا عليها. أمّا بقية الكائنات التي كانت معنا كانوا مستغربين من أحاديثنا، مصطلحاتنا، غير المفهومة بِ النسبة إليهم، وكانوا قد لاحظوا سلوكنا الذي يتغيَّر فور إطلاقنا لِ إيعاز باتجاه معيَّن، ولذلك راحوا يسألوننا عن السرِّ

الذي بيننا، أنا و صديقتي، عن سرِّ الكلمات التي عند نطقها يتمّ تغيير الاتجاه مباشرة. شَرَعنا في شَرْحِ المصطلحات لهم، طبعا تلك التي اتفقنا أنا و صديقتي عليها. لقد أَخَذَ الشرح وقتا لا بأس به، فأثناء شرْحنا لِ معاني المصطلحات كانت تظهر معانٍ جديدة تُشْتَقُّ من المصطلحات الأساسية. نحن أيضا كنّا نستفيد من كلِّ جديد يظهر معنا.
كانت تحرّكاتنا و انتقالاتنا–في الوسط الذي نحن فيه– غنيَّة جدّا و متنوّعة في الأَداء. فَ حين كنّا نَنوي الإنتقال عن طريق المشي، كانت زعانفنا الخلفية تتحوَّل، مباشرة، إلى أرجل و الأمامية منها كانت تتحوَّل إلى أيد، و حاملنا، أو الوسط الذي يحملنا، كان يأخذ طبيعة صلبة تحت أقدامنا. كلّ نوع من الكائنات كان يتحرَّك بالكيفية التي يشاء، وكان الحامل يتغيَّر بما يناسب و ينسجم مع نوعية الحركة.
في إحدى رحلاتنا الجماعية، راحت الكائنات تطبّق ما تعلَّمته من تلك المفاهيم، و ذلك بِ إصدار إيعازات مختلفة ومتضاربة. كان المشهد كَ السيرك أو كَ مسرح مفتوح على الحركات الحُرَّة دون قيود أو ضوابط. كان أداؤنا يبعث على الضحك والفرح، سواء من حيث تداخل الاتجاهات بعضها بِ بعضها الآخر، أو نوعية التحرّك لأنَّ بعضنا كان يطير و البعض الآخر كان يسبح وآخرون كانوا يسيرون على الأقدام و منهم مَن كان يقفز... بعد هذا اللعب و اللهو طلبنا منهم، أنا و صديقتي، السماح لنا بالقيام بِرحلة على انفراد. قلنا لهم بِ أنَّنا نرغبُ في التجوّل واستكشاف ما يُخبئه هذا المكان الشاسع من عوالم مجهولة، وهكذا ودَّعْنا بعضنا على أمَلِ اللقاء ثانية. تابعَتِ الكائنات الحيّة حركتها بِ اتجاه المجهول. لا تبحث عن أيّ شيء ولا تجهد في الحصول على أيّ شيء. حركاتها و انتقالاتها ليست بسَبَبِ حاجتها إلى شيء ما، فَ هي تحمل غذاءها على أكتافها و ليستْ بِ حاجة لِ البحث عن الطعام. تحصل على المتعة و لذّة الارتعاشات دون عواقب ونتائج في تكوينها الجسدي والروحي. فَكلّ تلك الحركات و الارتعاشات و التنقّلات، إنَّما هي التعبير الواضح والصادق عن الحياة. إنها بِ تلك الوضعية و الكيفية تقول لنا: " إنَّنا نمارس فعْلَ الحياة. إنَّنا نعيش، نحيا".
غاب موكب أصدقائنا و تلاشت الدوائر التي كانت ترافق تحرّكاتهم و ساد الصمت، بِ استثناء وشيش الموجات اللعوب التي تهدهدنا فوق أكتافها تارة، وقممها تارة أُخرى. لقد ذهب الموكب إلى يسارنا، ونحن بتنا نتحرَّك– أنا و صديقتي– إلى يمينهم ممسكين بِ أيدي بعضنا. كنتُ سعيدا بِ رفقتها و كنتُ أُحسُّ بِ دفءٍ يتسرَّبُ إلى أعماقي. كانت بين حين و آخر تصعد على ظهري، تحضن رأسي و تتذوَّق أعضائي. أحسُ بِ ارتعاشاتها و أنفاسها العطرة و أنّاتها الحنونة، كَ تلك التي كانت تصدر من تداخل الغبار الفلكي هناك في السديم اللامنتهي.

تابعنا ترحالنا في الوسط المائل لِ اللون الفيروزي. كان المدى كلّه يتماوج، و الكينونة كلّها تتناغم، و الوجود كلّه ينشد في توافق مدهش مع نغمات العناصر كلّها. مضينا في الانزلاق السلس فوق سطوح الأثير، و في ثنيات الهِضاب و قمم الجبال الشاهقة. مَرَرْنا بِ جانب قلاع ضخمة و تكوينات تشبه مخاريط و أهرامات و قبَبَ فريدة في تشكيلاتها الهندسية. شاهدنا معابر و مسالك منحنية و متصالبة مفروشة بِ جواهر بَرّاقة تعكس ألوان الطيف من سطوحها المتماوجة و المتسطحة. كانت تلك المعابر و المسالك تصلُ الكتل الهندسية بِ بعضها بِطريقة عجيبة. كان المكان أشبه بِ مملكة خيالية. كنّا مندهشَين من هذه الرؤية الساحرة. أخذنا الدروب التي تَشقُّ أسوار هذه الممالك. رحنا نسير بين العمارات و الجبال و الكهوف العملاقة. مَرَرْنا بِ تجمّعات من الكائنات الحية، كانت هي الأخرى، قد هطلت مع المطر الكوني. لم يأبهوا لِ وجودنا بينهم. كانوا، حين تقع أبصارهم علينا، يهزّون رؤسهم و يُصْدرون أصواتا كَ هديل الحمام و صهيل الخيول. كانوا يتنقَّلون، أو بِ الأحرى يتحركون، من مكان لِ آخر بِ شكل غريب. أثارت طريقة تنقلاتهم الدهشة في نفوسنا، و ظللنا ننظر إليهم فاغرين أفواهنا. كان المشهد أشبه بتلك اللوحة التي ترافق المطر الربيعي، حيث انبثاق وتلاشي الفقاعات التي تنشأ جَرّاء اصطدام حَبّات المطر بِ سطح الماء. كان أحدهم، حين ينتقل من مكانه، يتلاشى و يتناهى في الصغر إلى حدِّ الانطفاء، و تراه ينبثق في المكان الذي كان يريد الانتقال إليه قاطعا بذلك المسافة التي حَدَّدها في دماغه. كان المشهد يشبه شريطا من الأضوية التي تتناوب في الاضاءة بشكل آلي.

كان أداي يحكي عن نسل فيرجين، و هو يتحرَّك فوق موجات الأثير، حيث يقول:" إنَّ نسل فيرجين لن يحتاج إلى الطعام والشراب، الآن فهمتُ ما كان يقصده أبي حين قال لي: كُلْ جيّدا يا ولدي! فَ الطعام هو وقود الجسد كما أنَّ الموسيقى هي وقود الروح. لكن يجب أنْ تعرف الفرق بينهما، الفرق بين مهامهما، وظائفهما و بالتالي الفرق بين نتائجهما على الإنسان. سَ أتركَكَ تبحث في هذه المسألة المضنية بِ نفسكَ، سوف تتعب كثيرا في البحث للوصول إلى معرفة جوهر هذه المسألة.... كُلْ جيّدا يا ولدي! فَ الطعام هو الساحر، أو قُلْ المارد، المنفلت من الضمير و الأخلاق، القادر على تدمير كلِّ شيء، تدمير مصادر غذائك، شرابك و هوائك. إنه ذلك المارد الذي يمكنك السيطرة عليه إذا عرفت لُغْزَ سطوته على الإنسان، في هذه المسألة أيضا، سَ أتركَكَ وحيدا تبحث عن مفتاح حَلِّ اللغز". قال لي هذا الكلام، أو بِ الأحرى، هذه الحِكَم الملغزة حين كنّا في طريقنا إلى كهف ناريك. إنَّك في الطريق الصحيح يا ناريك، و استنتاجاتك و شكوكك حول ما كنتَ تبحث عنه، هي أعظم و أخطر اكتشاف. إنَّه سَ

يقضي على الأشباح التي خَلَقتِ الآلهة، و بالتالي، سَ يقضي على مهزلة الآلهة الأشباح. نعم، إنَّ نسل فيرجين لن يحتاج إلى الطعام. لن يحتاج إلى الأنياب و المخالب ولا إلى السيوف و الخناجر. لن يملأ الفضاءات و المجرّات بِ المليارات من أشباهه. إنّي أنا هو بكرها، أنا أبو الإله الرملي، لا بل أبو الألهة التي سَ أُبْقيها في أبواغها ميتة كي تبقى الحياة نظيفة نقيَّة دون تلوُّث، الآلهة التي لن يكون لها وجود في الفضاءات و المجرّات كلِّها، و لن يكون لها وجود في هذه التخوم بعد اليوم.

انتهت في 2020/11/15